٢٥٠٩

العـــدد ٣٧١ السنة الثانية والثلاثون أكتوبر ١٩٨٩



مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهريا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة

العربي
ص.ب: ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون: ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٤٤٣ - ٢٤٤٧١٤١
برقيا: "العربي" - الكويت
تلفون فاكسميلي: ٢٤٤٤٣٧٦ - تلكس: MITR. 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL-ARABI
Issue No.371 oct. 1989, P.O.Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State Of Kuwait.

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الاعلانات

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارا

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٦ ريالات	[illegible]
مصر ٣٥ قرشا	سلطنة عمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ١٢ فرنكا
السودان ٢٥ قرشا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

العربي



الطين تصارع الزمن في حضرموت





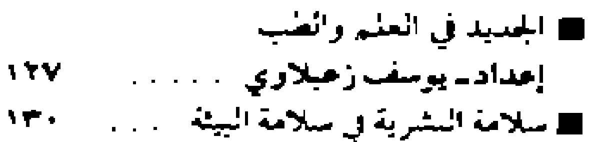
■ تشريح الإنسان بين العلم والدين!



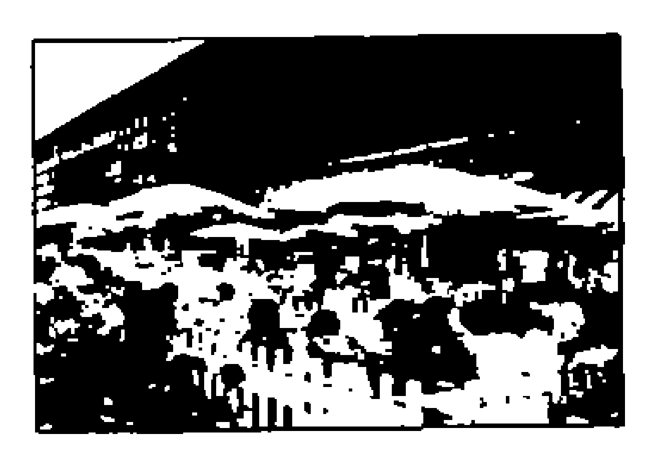
قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

طب وعلوم :



استطلاعات مصورة :



● ألمانيا الديمقراطية - الحياة والناس . . . ص ٦٨

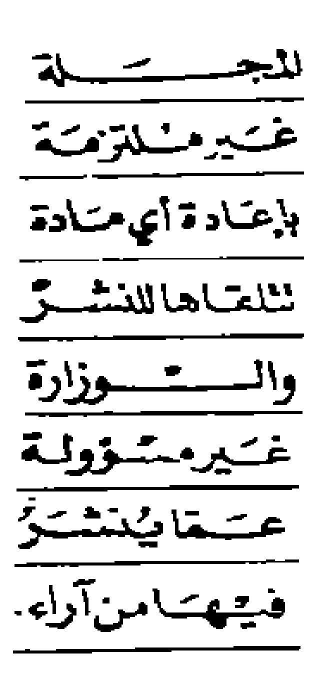


● تشريح الإنسان بعد الموت بين العلم والدين ص ٥٠

أدب وفنون :



● وجه لوجه : أدونيس
وجميل جبر . ص ٩٧



منتـــدى العـــربي :

تاريخ وتراث واشخاص :

مكتبة العــربي :

أبوابـــ ثابتـــة :



صـــورة الغـــلاف

في حضرموت حيث يمتزج التاريخ بشواهده المتعددة ، مع الطموح البشري في خلق مجتمع حديث ، شاهدت بعثة « العربي » خصوبة المكان وابداع الانسان .

[طالع الاستطلاع ص ١٣٢]

البيت العربي

مجلة الاســرة والمجتــمع

الكويت وهموم المسلمين

منذ فترة ليست بعيدة كتب المعلق البريطاني بيتر مانسفيلد دراسة عن أوروبا الموحدة عام ١٩٩٢م . وأظهر في تلك الدراسة ما لهذه الخطوة من إيجابيات كثيرة . ولكنه لاحظ أن أوروبا - تلك التي تقوم بحرية الإنسان وكرامته - تورّع نفسها في إطار ديني . وهو يشير إلى طرد المسلمين البلغار من بلادهم . لا لشيء جنوه إلا كونهم مسلمين . هذا التعصب على أسس دينية سماه الكاتب خطوة إلى الخلف . ومع أهمية قضية المسلمين البلغار فإن كثيرا من وسائل الإعلام الغربية ومسؤولين كثيرين لم يأخذوا هذه القضية مأخذ الجد على المستوى السياسي . وعلى المستوى الثقافي . على حين يعد أمر صغير في نظر من طرد آلاف المسلمين من ديارهم شغل العالم فترة طويلة

لقد قامت الكويت بشخص أميرها الشيخ جابر الأحمد بصفته أمير دولة عربية مسلمة . يهمها شأن العرب والمسلمين . وبصفته رئيس منظمة المؤتمر الإسلامي . بزيارة كل من تركيا وبلغاريا لدراسة الموضوع عن كثب . واستمع عن قرب لشرح ... وقد كانت نتيجة الزيارة هذه تأكيد سياسة حكيمة التي تتبعها الدولة الكويتية التي لا تألو جهدا في التواصل مع الشعوب العربية والإسلامية . واستمع عن قرب لحدة المشكلات التي يواجهها بعضهم

وتعبيرا عن حرص سمو الأمير على أن تسود العلاقات الطيبة بين جميع أبناء الأمة الإسلامية . فقد بعث سموه برسالة إلى ... وزير الدولة للشؤون الخارجية سعود الناصر الصباح حاملا رسالة من سموه إلى ... رئيسي ... وباكستان . تتعلق بتطور الأحداث الداخلية بين الشعبين الشقيقين . معبرا فيها عن قلقه وقلق الأمة الإسلامية . لما آلت إليه الأحداث من وقوع خسائر في الأرواح والممتلكات . داعيا إلى ... الحوار الأخوي الذي فيه مصلحة الشعبين

وانطلاقا من حرص الكويت على أن تلعب دورا فعالا في الأسرة الدولية . فقد قامت ممثلة في شخص أميرها بحضور مؤتمر قمة دول عدم الانحياز . وفي كلمته أمام المؤتمر قال أمير الكويت ... التحرر من قيود الديون يوازي التحرر من الاستعمار . ويمهد الطريق لبناء مجتمع إنساني أفضل .

وهو قول بليغ له أبعاده التاريخية على جميع المستويات العالمية

وقد ربط سموه ذلك القول ببرنامج محدد من أربع نقاط اقترحه لمعالجة مشكلة الديون . مع تحديد برنامج زمني لعقد لقاء تحضره مجموعة الدول الدائنة وممثلو صندوق النقد الدولي والبنك الدولي . لتدارس الأسس والمعايير اللازمة للتنفيذ على أن يتم هذا اللقاء في مدة أقصاها ستة شهور وقد لقيت مقترحات الأمير ترحيبا كبيرا لما تعكسه من اهتمام الكويت بهذه المشكلة العالمية المستعصية .

وقد أثبتت وقائع المؤتمر أن دور الكويت ودعوتها لإعادة الحوار بين الشمال والجنوب وتخفيف آثار الأزمة الاقتصادية التي تأخذ بخناق العالم . كان دورا مؤثرا . ولقي استجابة وترحيبا واسعين من الدول . وثناء من قادة العالم الثالث . وكان سمو أمير البلاد قد قام في إطار تحركه السياسي بزيارة مصر والعراق لتوطيد العلاقات العربية وتوكيدها . كما قام برحلة إلى الجمهورية الفرنسية . وذلك لتنشيط العلاقات العربية الأوروبية . خاصة مع موقف فرنسا المتفهم لقضايا ديون العالم الثالث . ثم أتبعها برحلة إلى أفريقيا . إيمانا من الكويت بأن أفريقيا هي عمقنا الاستراتيجي في الوطن العربي . وأن التعاون العربي الأفريقي هو تعاون ضرورة وحتمية مستقبل

كل هذه الزيارات تأتي في الواقع إكمالا لدور الكويت الحضاري والإنساني والإسلامي والعربي في تعزيز التعاون وتوثيقه . في عالم أصبح اليوم متقاربا أكثر من أي وقت مضى □

المحـــــــــرر



إزالة الحواجز



بماذا نحكم على مايجرى في الدول الشيوعية من بولندا إلى الصين ، مروراً بالاتحاد السوفيتي نفسه ، وانتهاء بهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ؟

إن مايجري هناك يستحق النظر والدراسة .

قد يحق لبعضهم أن يصدر حكما على الأمور التي تجري هناك على أنها إحدى الاحتمالات العديدة التي تؤدى إلى النتيجة نفسها ، إنها بداية موت الايديولوجية الشيوعية . وقد يجوز لبعضهم أن يقول : إن الماركسية لم يعد لها مستقبل لقد كان لها ماض فقط .

وقد يقول بعض آخر بتحفظ : إنها أزمة في النظام الاشتراكي العالمي ، يقوم هذا النظام الآن بمحاولات تجاوزها ، وعلى الرغم من أن هذه المحاولات عسيرة فإنها الطريق الوحيد لتجاوز تلك الأزمة . وقد يفسرها آخرون بما يستطيعون تغذيته من حجج مؤيدة أو حجج مضادة ، إلا أن مايبدو أمامنا شيء يستحق التسجيل والتأمل . ويستحق فوق كل

ذلك أن نعرف ماذا يمكن أن تكون نتائجه ، ليس على أصحاب العلاقة المباشرة فقط ، وإنما على منطقتنا العربية القريبة جغرافيا من بعض بلدان النظام الاشتراكي ، وكذلك من حيث أن بعضنا قد أخذ ببعض تطبيقاته . إننا نشهد في الحقيقة نهاية عصر كامل من الاجتهادات الاقتصادية والسياسية ودخول عصر جديد .

قد يتساهل الإنسان فترة على مستوى الإشباع المادي والمعنوي ولكن برجاء حياة أفضل في المستقبل

الموضوع الذي نرى على السطح جزءا من تفاعلاته ، في بولندا وفي الصين وفي الاتحاد السوفيتي وكذلك هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، هل هو موضوع خاص بإدارة الاقتصاد الاشتراكي ، وأن هذا الاقتصاد قد أدير فترة طويلة بطريق الخطأ ، حتى تراكمت كل هذه السلبيات التي تحاول هذه المجتمعات أن تجد حلولاً لها ، ومظاهرها الطوابير الطويلة أمام مخازن السلع الأساسية التي ينتظر فيها رب - أو ربة - الأسرة الساعات الطوال حتى يحصل على قوت يومه وعياله ؟ وكذلك هذا التضخم الكبير في عملة هذا البلد أو ذاك التي لاتكاد تفي باحتياجات المأكل - دع عنك الملبس أو المسكن - للإنسان العادي . أو في تراكم الديون بأرقام فلكية ، لا يستطيع الدخل القومي أن يفي حتى باحتياجات خدمة الدين المترتبة عليها سنويا ؟ أم أن القضية أكبر من ذلك بكثير ؟ أي أن القضية مرتبطة بموضوع السياسة ، وموضوع الحريات العامة والشخصية ، والحوار غير المقيد الذي يتيح للناس أن يقرروا كيف يحكمون ، وكيف توزع السلع والخدمات بينهم ، وأن يشتركوا بملء حياتهم في تحمل الأعباء والنتائج ؟

بعضهم يقول بأولوية الموضوع الاقتصادي ، وآخرون يقولون بأولوية الموضوع السياسي ، ولكن الأهم من هذا وذاك أن شيئا ما يحدث في هذه الأماكن ، شيء يثير كثيراً من الأسئلة قبل أن يقدم بعض الإجابات ، شيء سوف يؤثر على العلاقات الدولية في فترة قادمة من الزمن ، وشيء سوف يترك بصماته على نوعية الحياة لملايين من البشر في العقود القادمة .

ويبدو أن المجتمع - أي مجتمع انساني - له كيمياء خاصة ، هذه الكيمياء بعضها مشترك مع الجنس البشري ، وبعضها خاص بثقافة معينة . ولكن كيمياء التفاعل هذه لايمكن إغفالها وإن عطلت أو جمدت فترة طويلة ، فلا بد لها أن تعاود العمل ، وربما بشكل أكثر حزما أو أعظم اضطرابا ، ولكن لابد لها في النهاية أن تعمل . هذه الكيمياء التفاعلية (أو الميكانيكية) هي بمنظور عام الإشباع (المادي) والإشباع (المعنوي) لحاجات الإنسان المختلفة ، ونقصد بالإشباع المادي توافر الحدود الدنيا من

وسائل الحياة والانتاج المعقولة التي تحفظ للانسان حياته وتحفظ لأسرته كرامتها ، أما الإشباع المعنوي فهو أن يعيش الانسان بكرامة إنسانيته ، ولايتنازل عن هذه الكرامة لأي سبب أيديولوجي على المدى الطويل .

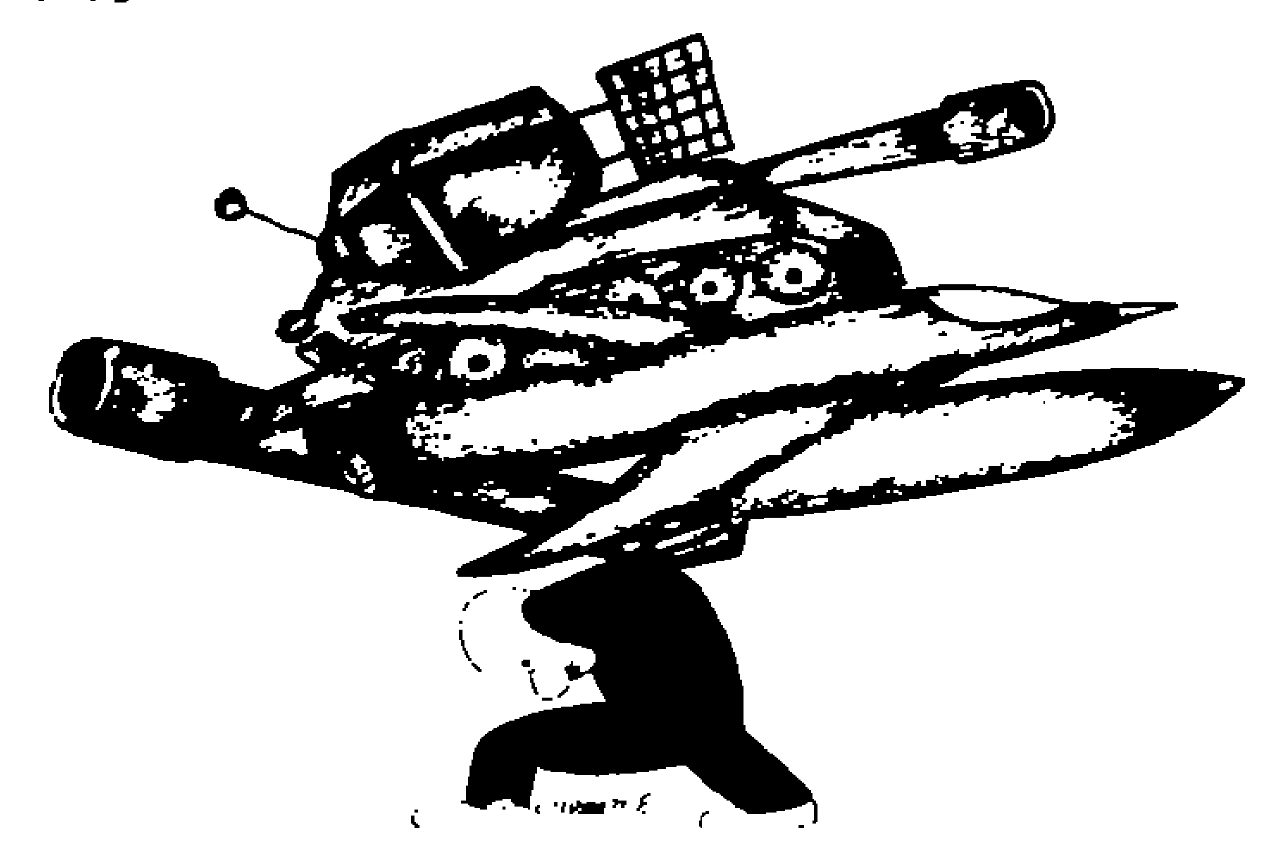
وقد يتساهل الإنسان فترة - في سبيل تحقيق إنجازات اجتماعية كبرى - عن مستوى معين من الإشباع المادي والمعنوي ، ولكن هذا التنازل يكون برجاء حياة أفضل في وقت ما ، في المستقبل ، وعندما يتبين له سقوط هذا الأمل في التقدم والرخاء - أي الحصول على اشباع مادي ومعنوي أفضل - يتحول للبحث عن طريق أو طرق أخرى ، يحقق من خلالها مايصبو إليه .

ونحن نعيش اليوم في مرحلة هذا التحول الكبير بالنسبة لأوربا الشرقية ، ولايُستبعد اليوم الذي يصل فيه هذا التحول الى بلدان شيوعية أخرى في الشرق الأقصى ، أو بلدان أخرى في أطراف عالمنا ، فإنها أن تأخذ بالحد المطلوب فيه توازن (الماديات) مع (المعنويات) .

بولندا الرمز والبداية :

في الأربعين سنة الماضية ، منذ أن قسم العالم في اجتماع يالطا إلى معسكر (اشتراكي) ومعسكر (رأسمالي) ، تبنت دول أوربا الشرقية ، تحت قيادة موسكو ، الحل الاشتراكي من أجل التقدم والبناء ، وطبق هذا الحل في بعض الأوقات تطبيقاً تعسفياً ، فأممت - على سبيل المثال - بعض مؤسسات الإنتاج التي هي من الصغر بحيث يتعذر ضبط إيقاعها في الاقتصاد الوطني ككل ، وأثبتت التجربة بعد التجربة أنه لايمكن القطع بصلاحية نموذج معين لإدارة السياسة والاقتصاد صلاحية مطلقة لكل المجتمعات ، وتنامى هذا الاعتقاد في إطار أوربا الشرقية التي اتسم التطبيق الاشتراكي فيها بسمتين رئيسيتين هما تعبير عما ساد في الاتحاد السوفيتي : السمة الأولى المركزية الشديدة في الاقتصاد والادارة ، والثانية محدودية الديمقراطية السياسية . وأدى ذلك إلى زيادة انحسار مشاركة الجماهير ، وسيطرة بيروقراطية جامدة ، هي بيروقراطية الدولة . وجرت محاولات واحدة إثر أخرى في بعض دول أوربا الشرقية للخروج من هذا المأزق فلم تنجح . كانت إحدى هذه المحاولات المبكرة في المانيا الشرقية ١٩٥٣م ، ثم تبعتها هنغاريا عام ١٩٥٦ فقمعت بشدة ، وبعدها بحوالي اثنتي عشرة سنة انبثقت المحاولة الثالثة في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وتم قمعها بعنف

عالمنا اليوم أصبح عالم تداخل عقائدي أوجد «دوزنة» في الفكر العالمي



كذلك ، وأصبحت كل من تجربتي هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا [illegible] كلاسيكية يذكرها الإعلام الغربي بشكل دوري على أنهما [illegible] الانعتاق والتحرر التي حاولتها بعض دول أوربا الشرقية في المفهوم الغربي للانعتاق والتحرر .

قيادة "تضامن" لحكومة في بلد شيوعي قد تصبح مثالا يحتذى في المستقبل

وقتذاك كانت موسكو تقود التوجهات السياسية معظم دول أوربا الاشتراكية من (المقود [illegible]) ثم يقودون . فلم ينجح أحد في محاولات الإصلاح

وجاءت تجربة بولندا في [illegible] التي تندرج في [illegible] وفي المناورات السياسية إلى حد [illegible] في انتخابات مباشرة شبه حرة في (يونيو) حزيران الماضي . وحصلت نقابة تضامن (تضامن) البولندية على ٣٥٪ من مقاعد البرلمان . وهي المقاعد التي سمح لنقابة تضامن بخوض الانتخابات فيها . وقد فازت بكل المقاعد المسموح بها ١٦١ مقعدا [illegible]

كأنما قال السوفييت للغرب "تريدون اقتصاد بولندا؟ إذن خذوه وادفعوا!

برلمانية عددها ٢٦٠ مقعداً في مقابل ١٧٣ مقعداً لحزب العمال البولندي المتحد (الحزب الشيوعي)، وبذلك يصبح حزب شيوعي لأول مرة خارج الحكم طوال الأربعين سنة تقريباً في تلك الاتحادات. ولم يستطع من بعد تشكيل حكومة. وطلب من نقابة (تضامن) مع الأحزاب الصغيرة الأخرى أن تشكل حكومة بولندية جديدة، مع احتفاظ الحزب الشيوعي ببعض المقاعد الوزارية المهمة، مثل وزارتي الدفاع والداخلية.

هذا الأمر بحد ذاته يعني تحولاً في إطار البناء السياسي لدول أوربا الشرقية، ويشكل مثالاً قد يحتذى به في المستقبل في بقية هذه الدول.

الأمر إذن بدأ بتغير من تجمع نقابي عمالي مستقل، دخلت بعض قياداته إلى السجن عندما أعلنت الأحكام العرفية في بولندا عام ١٩٨١، إلى مساهمة رئيسية في حكومة بلد شيوعي. لقد استغنى العمال عن حزب العمال. وبدأت التحليلات تخرج لنا ماعندها من توقعات: هل هذه بداية النهاية للأنظمة الشيوعية في أوربا الشرقية، وقد تلحقها بعض الأنظمة الأخرى؟ أو هل يتدخل الاتحاد السوفيتي من جديد، ليكرر ماتم في هنغاريا عام ١٩٥٦، وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨؟ أو أن ذلك كله مناورة من السوفييت للتخلص من عبء الاقتصاد البولندي المريض مرضاً مزمناً، ولايمكن لأحد أن يصلح شأنه إلا من خلال مساعدات ضخمة من الغرب؟ وكأن حال السوفييت هنا يقول ماقاله فرانز فانون الذي ناضل في صفوف الثورة الجزائرية ووثق لها، فقد لاحظ بعد الاستقلال أن لسان حال المستعمر يقول: «تريدون الاستقلال؟ خذوه وموتوا!».

وهنا: «تريدون اقتصاد بولندا؟ خذوه وادفعوا!».

الاختلاف الذي يجب ملاحظته هنا أن ماحدث في بولندا قد حدث لأن موسكو قد بدأت منذ عام ١٩٨٥ تطبيق خطوات العلانية وإعادة البناء، وهي خطوات أساسها إصلاح جذري للاقتصاد والسياسة. فلم يعد الموقف القطعي المتصلب لما يحدث في أوربا الشرقية كما كان في السابق من رفض وعدم موافقة، كما أن ـ أي موسكو ـ تبدو متأكدة أن لاخوف على حلف وارسو. ليخ فاليسا نفسه، قائد نقابة (تضامن)، الحاصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٣، يؤكد من جديد أن الإصلاحات المرجوة إنما هي داخلية تمس الوضع الداخلي في بولندا، ولاتمس تحالفات بولندا الخارجية، بل إن قيادات (تضامن) تطلب من موسكو العون في مسيرة الإصلاح. هل هذا القول هو تكتيك مؤقت، أم استراتيجية طويلة



المدى ؟ ستكشف لنا الأيام ذلك ، ولكن التعليق الأشمل الذى نقل عن فاليسا يشير إلى أمور أخرى ، لقد قال : « الآن بدأ من كان تحت العربة يهم بركوبها » .

ولكن مهما اختلفت الأسباب والتحليلات في تفسير ما يحدث في بولندا تبقى القضية الأولى التي يمكن ملاحظتها هي أن تشكيل حكومة في دولة أوربية شرقية (اشتراكية) بقيادة من خارج الحزب الشيوعي ، تشكل بحد ذاتها ظاهرة لم يكن أحد يفكر في إمكانية حدوثها منذ سنوات قليلة . وهي بحد ذاتها علامة بارزة في التحولات الجديدة .

نقابة « تضامن » ليست أيضاً حركة مكونة من ملائكة . فقد كان عدد أعضائها في بداية الثمانينيات يقدر بحوالي عشرة ملايين عضو . وأصبح عددهم الآن لا يتجاوز مليوني عضو . كما أن قيادتها للحكومة ستضطرها لاتخاذ إجراءات اقتصادية صعبة ، ستؤثر أول ما تؤثر في مستوى معيشة مؤيديها ومناصريها ، بل لقد بدأت منذ الآن تشير إلى أن الاضطرابات المتكررة في القطاعات الإنتاجية البولندية هي معيقة للاقتصاد ، بينما كانت الحركة إلى وقت قريب أول من يؤيد أي إضراب أو توقف عن العمل . إذن فإن اللعبة لم تنته تكتيكاتها بعد .

لذلك فإن المسرح البولندي السياسي سيكون مسرحاً مهماً للمشاهدين والمعنيين في الأشهر القليلة القادمة . فهو مكان لاختبار

النوايا . وهو مكان أيضاً لاختبار التوجهات . وفوق ذلك كله لاختبار الصلابة عند هذا الفريق أو ذاك

ربيع الصين :

في الوقت الذي يتذكر فيه العالم مرور واحد وعشرين سنة على ما عرف في الصحافة الغربية « ربيع براغ » ، أي المحاولات الإصلاحية التي جرت في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وجرى قمعها في ذلك الوقت .
ما زال هذا الإعلام يتذكر ما حدث في الصين ، في يونيو الماضي ، ربيع الجزيرة . ففي الصين - ذلك البلد العملاق الذي تبنى [illegible] الانفتاح منذ عشر سنوات . [illegible]

ماركسي ماوي [illegible] تدريج . [illegible] بدأت الأصوات تخرج إلى العلن مؤيدة للإصلاحات [illegible] جملة الإصلاحات تلك [illegible] جذرية . بعضها متوقع وبعضها [illegible] في الحسبان . وقد ثارت الشكوك شيئاً فشيئاً حول قدرة النظام في أن يحقق بكفاءة التغيرات الكبيرة المنتظرة من الإصلاحات الموعودة . وقاد هذه الشكوك - للمفارقة - الطلاب في جامعة بكين . ونقول (للمفارقة) لأن هؤلاء الطلاب أنفسهم هم الذين أشبعوا تثقيفاً بمبادىء الماركسية الماوية ، ولم يمنعهم ذلك من رصد الأخطاء ، والمطالبة بالانفتاح والتحرر . ويعني ذلك أن أي نوع من التثقيف القسري لا يتجاوز القشور إلى اللب إن لم يحقق على أرض الواقع ، ما سميناه الاكتفاء المادي والمعنوي لأغلبية الناس .

طلبة الصين الذين أشبعوا تثقيفاً بمبادئ ماو هم الذين طالبوا بالانفتاح والتحرر!

فالطلاب يجدون ظروف معيشتهم وظروف تعليمهم بائسة ، والمثقفون ينتظرون بصبر - يتناقص أولاً بأول - تحسين وضعهم الذي طالما وعدوا به . وكان ظهور (المواطن الجديد) يتأخر . وفي إطار البحث عن مخرج عمت الصين مناقشات . بعضها يؤيد الانخراط في تقديم إصلاحات أكبر - حتى لو كانت نتائجها على المدى القصير سيئة - وبعضها الآخر ينادي بتشديد القبضة . وعلى الطريقة التقليدية للسلطة في الصين ، حتى وقعت المواجهة في ميدان « تيان آن من » . وهو الانفجار الذي تحدثت عنه كل وسائل الاتصال في العالم .



ومن سخرية القدر أن عهد الانفتاح قد بدأ بخطوات حقيقية للإصلاح في العشر سنوات الماضية . لقد حققت تلك الخطوات كثيرا من النتائج الإيجابية . فعلى صعيد زراعة الأرض مثلا . عندما اتخذت السلطات قرارا بتصفية الزراعة الجماعية وتحويلها إلى زراعة عائلية ، زادت أسعار المنتجات الزراعية . وزاد دخل الفلاحين ، حتى أن بعضهم أصبح في يده من النقود ـ كما نقلت التقارير وقتئذ ـ مالا يستطيع صرفه وتصاعدت وتيرة الإصلاح في المدن ، وجذبت الأموال للاستثمار من الخارج في مناطق حرة شملت أقاليم بكاملها . بعض هذه الإصلاحات لم يصاحبه التوفيق . مما صعد قوة التيارات المحافظة لمقاومتها . ولكن هل انتهت المشكلة بإخلاء ساحة (تيان آن من) في مايو أيار الماضي من المتظاهرين . أو أن القضية الأساسية مازالت عالقة؟ وهي قضية تتصل إلى حد بشكل الإدارة والسياسة ، وعلاقة قوانين السوق الاقتصادية بمركزية الاقتصاد والحوار بدلا من التسلط .

يبدو أن ذلك ما بينته معظم التقارير والدراسات التي صدرت منذ مايو الماضي ، فالخلاف بين فصائل في الحزب الشيوعي الصيني ، بعضها مؤيد للإصلاحات . وبعضها معارض لها قد طالب بتصفية هؤلاء (الليبراليين) الذين شقوا الحزب وشجعوا المعارضة .

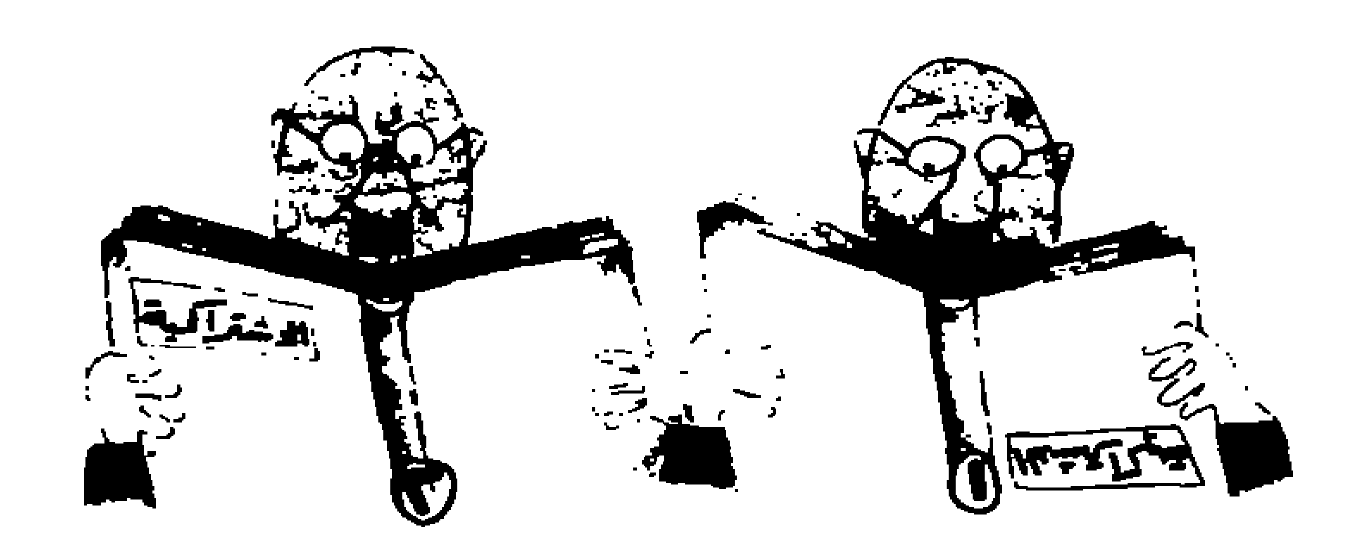
وستبقى هذه القضية عالقة ، يؤثر عليها بالطبع ما يحدث في أماكن أخرى من المعسكر الاشتراكي .

وفي أمـــاكـــن أخـــرى :

في أماكن أخرى من الدول الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي ، تجري مجموعة من الظواهر السياسية التي تلاحظ بشدة ، فلأول مرة يتحقق قيام إضراب في إحدى القطاعات الاقتصادية المهمة في الاتحاد السوفيتي ، وهي المناجم في الشمال ، بل ويعلن عن هذا الإضراب ، ويتابع ، ثم يحل بالطرق السلمية ، وتنقل وسائل الإعلام العالمية مطالب القوميات المختلفة في الاتحاد السوفيتي ، من جمهوريات البلطيق الثلاث إلى أرمينيا وأذربيجان وجورجيا . وبين ذلك كله توزع المجلات اليومية الغربية في موسكو ، وترفع الأجهزة كل أنواع الحظر على الكتابات والكتب والمنشورات ، ومنها كتابات وكتب لمواطنين سوفييت هربوا إلى الغرب في السابق ، وكانوا حتى فترة متأخرة يعدون من (المنشقين) .

في الوقت نفسه يتسرب عشرات الآلاف من ألمانيا الشرقية عن طريق هنغاريا ثم النمسا إلى ألمانيا الغربية . لقد كان الغرب لسنوات طويلة - خاصة الألمان - ينادون بشدة بفتح أبواب الهجرة ، لمن يريد ، من أوربا الشرقية إلى الغربية ، وبخاصة الألمان الشرقيين الذين تعدهم ألمانيا الغربية مواطنين ألمان ، وتعتبر أنها ممثلة للألمان بعامة . بعد الانفتاح الأخير نجد أن اللهجة السابقة عن تشجيع الهجرة قد تغيرت ، بل قامت ألمانيا الغربية بإغلاق قنصليتها في برلين الشرقية وبودابست لإيقاف هذا النزف الإنساني ، وأخذت ألمانيا الغربية تطالب بتحسين المستوى الحياتي الإنساني للألمان الشرقيين ، « وهم في بلادهم » . وذلك أيضاً تطور آخر على صعيد أوربا . وفي تطور آخر في هنغاريا - على سبيل المثال - والتي من المفترض أن تعقد فيها انتخابات لأحزاب متعددة في وقت قريب لأول مرة ، يتصارع على حلبتها السياسيون الاصلاحيون والمتشددون ، وهم يراقبون مايحدث في بولندا علّه يحدث في وقت لاحق في بلادهم .

ليخ فاليسا يقول : لقد حققنا الحرية .. الآن نريد الخبز !



مـــاذا يعني كـــل هـــذا التحول ؟

نعـود إلى سؤالنـا الأسـاسي : مـاذا تعني كـل هـذه الـظواهـر ، والاستجابات العديدة لها ؟ لا توجد إجابة قاطعة عن هذا السؤال ، فهناك أولا سوء إدارة في الاقتصاد لم يعد أحد ينكرها ، أدت في بعض البلدان إلى تراكم غير محتمل من السوء . بلد مثل بولندا ينتج البطاطس والشمندر ، تحول إلى إنتاج صناعات ثقيلة ، وفي المناجم ومصانع الحديد والصلب تكاد تنتمي لاقتصاد القرن التاسع عشر بدلاً من القـرن العشرين ، والنصـف الثاني منه على الأخص ، وتغرق في ديون ، فهي مدينة للغرب بحوالي ٣٩ بليون دولار ، وللمعسـكر الاشتـراكي بحوالي ٦ بـلايين روبـل . ويبلغ ماتدفعه لخدمة الدين ٥ر٣ بليون دولار سنوياً .

على سبيل المثال : يتم تخطيط مركزي للانتاج في بلاد أخرى ، يُحمَّل مصنع الاثاث كذا طن من الإنتاج دون الالتفات إلى الشكل أو مستوى التصنيع ، فينتج المصنع أثاثاً بأحجام ضخمة ، ولايصلح للاستهلاك ، وإنما لتحقيق أهداف الخطة فقط ، وتضيع ملايين الوحدات المنتجة نتيجة المـركزيـة في النقل والتخـزين ! نعم كل ذلـك صحيح « إنـه سوء إدارة الاقتصاد » .

ولكن هل صحيح أيضاً أن فكرة الاشتراكية ـ بمعناها الذي تبناه المعسكر الاشتراكي ، هي فكرة خطأ يجب أن تُهمل وتُسقط من الحساب ؟



هذا السؤال تصعب الإجابة عنه بمسئولية في هذا الوقت ، خاصة الإجابة عنه بإجابة قاطعة .

فالأفكار الرأسمالية التي يتبناها المعسكر الاشتراكي اليوم ، من إطلاق قوى السوق إلى الملكية الفردية ، هي أفكار بدأت تتخلل الواقع الاشتراكي العالمي وتحوله من قطعي متشدد وحرفي إلى معتدل مرن ، يأخذ بالحسبان أهمية مشاعر الإنسان وتطلعاته ، ولكن بالمثل لابد ألا ننسى أن هناك أفكاراً (اشتراكية) قد تخللت الواقع السياسي الغربي ، فقد قامت أحزاب اشتراكية تبنت أفكاراً اشتراكية معدلة مع تزاوجها بروح ديمقراطية ، وقد وصلت مثل هذه المجموعات التي أنشأت هذه الأحزاب في أوربا الغربية إلى الحكم ، ومثال على ذلك فرنسا وأسبانيا اليوم ، وبريطانيا الخمسينيات والستينيات ، وبعض دول أوربا الشمالية .

إذن حدث هناك تبادل وتلاقح في الأفكار بين الشمال والشمال . أفكار الديمقراطية والحرية تتسلل إلى ماكان يسمى (المعسكر) خلف الستار الحديدي ، والعكس صحيح ، أصبح هناك (دوزنة) في الفكر العالمي . وأصبح عالمنا اليوم عالم تداخل عقائدي ، وغدت بعض المطالبات السياسية القديمة غير ذات قيمة ، كالمطالبة مثلا بفتح هجرة الأوربيين الشرقيين إلى الغرب ، ومثل هذه الفكرة لاتمثل اليوم إلا أفكارا عاطفية خيالية ، ليس لها علاقة بواقع الحال .

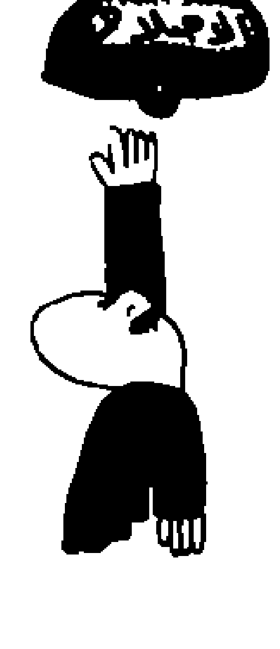
العالم لاينتظرنا إذا كنا نتقدم رجلاً ونؤخر أخرى

وفي الدول الاشتراكية : [illegible]

[illegible]

مساره ؟ وهل يستعاض في الإقناع والمشاركة عن القوة بصناديق الاقتراع ؟ إنها مرحلة سقوط الايديولوجيات ، فالايديولوجيات لاتنتعش إلا في أوقات احتدام الصراع ، والمراجعات العميقة التي تحدث الآن في المعسكر الاشتراكي ، كما هي المراجعات التي حدثت في المعسكر الرأسمالي عندما حولت الرأسمالية من رأسمالية بشعة مستغلة إلى رأسمالية بوجه إنساني ، هي ظاهرة عامة وسمة من سمات عصر بوجه إنساني .

يبدو أن المعسكر الاشتراكي يبحث أيضاً عن وجه إنساني للاشتراكية ملامحه الديمقراطية واحترام الحريات . إنها فترة حوار بين الشمال والشمال ، حوار يعتمد على مراجعة عميقة وجذرية لبعض الخيارات السابقة ، حوار يحمل بوادر وقلق أعظم وأكبر في هذا العالم الذي نعيش فيه ، والذي أصبحت أولوياته الحفاظ على السلام ونظافة البيئة ، وتوفير العيش الكريم للإنسان .



ومـــاذا عــنـــا ؟

في بداية الحديث قلت : هذا التحول الذي نشهده في المعسكر الاشتراكي ، ماذا يعني بالنسبة لنا نحن في هذه المنطقة العربية ؟ وأعود من جديد لأقول : إن هذا الحوار والمراجعة بين الشمال والشمال ، بين المعسكرين الكبيرين يوصلهما إلى نقاط اتفاق كانت مدخلاً لنا ـ نحن في العالم الثالث ـ عندما كانت نقاط خلاف ، وقتها كانت بعض دول العالم الثالث تصطف مع هذا المعسكر أو ذاك على أساس نقاط الاختلاف الظاهرة بين هذين المعسكرين ، الآن لم يعد بالإمكان الحديث عن خلافات بين المعسكرين يمكن أن تفيد العالم الثالث أو الوطن العربي . الصوت الأعلى الآن بناء الاجهزة والمؤسسات التي توكل إليها مهمات الحكم والمراقبة ومهمات الانتاج والتوزيع ، فقد غدت هي « الترمومتر » الأساسي الذي تقاس به نجاحات الاقتصاد والسياسة للأمم ، والاختلاف الجزئي في التطبيق لم يعد له شأن متى ما تأكدت حقوق المواطن المادية والمعنوية على حد سواء ، دون هذا التأكيد سوف نجد العالم من حولنا يغير تكتيكاته ويضبط إيقاعه على التقدم والتنمية ، ونعيش نحن متنقلين من اضطراب إلى اضطراب آخر ، نقدم رجلاً ونؤخر أخرى ، والنجاة لا ينتظرنا ☐

محمد الرميحي



(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

بقلم : الدكتور غازي القصيبي*

أول ما تفتحت عيناي عليه كان قوياً صاخباً بالحياة . ومرت سنوات ، وهزل وانحنى . ومرت سنوات أخرى ، ومشيت وراء النعش محمولاً . لا أكاد أصدق أن العملاق النابض بالحياة يحمل جسداً ضئيلاً ، بعيداً عن الحياة .

قيل لي حين بدأت أعي ما حولي : « أبوك في الستين » ، ولم يكن الرقم يعني شيئاً لي حينئذ . وكبرت قليلا ، وأدركت أن الستين ترتبط في الأذهان بالشيخوخة . وأصبت بالحيرة .

كان أبي تجسيداً للعنفوان . فكيف يجتمع العنفوان والكبر ؟ ! كانت خطواته تهز الأرض ، وتبتلع الدرج قفزاً ، كان منتصبا كالرمح ، كان أوسم من رأيت من الرجال .

وقبل أن يودع الدنيا بأيام كان لقائي الأخير معه ، كان قد تجاوز التسعين ، بدا كأنه يعتذر بالضعف عن الحيوية التي لازمت شبابه وكهولته ، كان يتجلد أمام الزوار ويصمد ، يجلس بكامل هيبته ، يخشى أن تخونه الذاكرة ، أو يتزلق لسانه بجملة لا معنى لها . اعترف للسنين بانتصارها على جسده ، لكنه لم يسمح لها بالتسلل إلى روحه ، أو الاقتراب من ذهنه .

---

* شاعر ووزير سابق وسفير حالي للمملكة العربية السعودية في البحرين .

وبين المشاهد الأولى والمشاهد الأخيرة تومض مواقف وقصص ، في البداية لم يكن غير وجود مهيب (ومخيف أحياناً) ، أقف عندما يجيء ، أقبل يده كلما رأيته ، أنظر الى الأرض وهو يحدثني . في النهاية ، أصبح الصديق الوديع ، ظل الوجود مهيبا (ولم يعد مخيفا) ، ظللت أقبل يده كلما رأيته ، أتحدث إليه وعيناي لا تفارقان وجهه .

أذكر كيف علمني السباحة ، كنت في ذلك الوقت في السادسة ، كنا بمفردنا في البركة . كان يسبح ، وكنت أتعلق على حافة البركة . نظر اليّ وقال ببساطة متناهية :

ـ متى تنوي أن تسبح ؟

لم يقل شيئاً غير هذا ، لم يهدد ، ولم يوبخ ، ولم يلحّ ، مجرد سؤال وبعد ذلك بساعات كنت أسبح .

كان هذا أسلوبه في التعامل : التلميح الذي لا يجرح ، والإيماءة التي لا تحرج ، لم يقل لي قط « صَلِّ ! » ولكنه ظل ، في كل رسالة تقريباً ، يذكرني بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . لم يقل لي قط « ذاكِر ! » ، ولكن فرحه بكل نجاح أحققه كان أوضح من ان يخفيه ، لم يقل لي قط « حَسِّنْ خطَّك ! » ولكنني سمعته يقول عن أحد أقربائي بمسمع مني « ليته يُحَسِّنُ خطَّه » .

أهدى لي ، وأنا على مشارف المراهقة ، كتابا دينيا ضخما ، وبعد ذلك بشهور أقبل عيد الفطر ، وأعطاني « العيدية » . قلت :

ـ هذه « عيدية » السنة الماضية نفسها ، لم تزد !

ـ ولماذا تزيد ؟

ـ لأنني أصبحت أكبر بسنة .

ـ وهل تتوقع أن تكبر « العيدية » معك ؟

ـ نعم ، لقد قرأت في الكتاب الذي أخذته منك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال ما معناه : إنَّ طمع ابن آدم يزيد كلما ازداد سنه

ـ صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ! ألم تقرأ في الكتاب شيئاً آخر ؟ ألم تجد فيه شيئاً عن القناعة ؟

قالها وهو يضحك ويضاعف « العيدية » .

ذات يوم ، وأنا في ذروة المراهقة المغرورة ، دخل مكتبه ليجدني فيه أتحدث بانفعال مع الساعي ، سألني بهدوء :

ـ لِمَ تصرخ أثناء حديثك معه ؟

ـ لأنه غبي .

ـ وهل هذا ذنبه ؟ لو أعطي قدراً من الذكاء أتراه كان سيرضى بالبقاء في موقع يتحمل فيه إهانات مثلك ؟

عبر السنين ، ظلت كلماته تطن في أذنيّ . كم تمنيت أن أقولها كلما سمعت رئيساً « ذكياً » يتذمر من مرءوسه « الغبي » .

كان يؤمن « بإقتسام » الأشياء ، حتى أصغر الهدايا كان يقتسمها مع الحاضرين . كانت طلبات الآخرين ترهقه . سألته مرة لِمَ لا يتجاهلها ، قال :

ـ لا يابني ، اليد العليا خير من اليد السفلى .

عندما كنت أحضر أطروحة الدكتوراة ، وأتبين لأول مرة أهمية الوثائق التاريخية ، طلبت منه أن يُدوِّن مذكراته ، وعرضت عليه أن أتفرغ بعض الوقت لمساعدته ، ولكنه رفض ، وألححت عليه ، في النهاية ، قال :

ـ هل تريدني أن أكتب ما يعرفه الناس جميعاً ؟ هذا لاقيمة له ، هل تريدني أن أذيع أسراراً هي عندي بمثابة الأمانات ؟ هذا مالا أستطيعه ، هل تريدني أن أكذب ؟

هذه الأيام ، كلما قرأت مذكرات شخصية عربية ، تذكرت موقفه من المذكرات ، وترحمت عليه ، وعلى الموقف .

كان أبي في حياته يعني أشياء كثيرة ، ولكنني لم أدرك كل ما يعنيه ، إلا بعد وفاته ، إنه كان معلماً موهوباً . □

عدد نوفمبر ١٩٨٩

من مجلة العربي

كراتشي: الأيام الزاهرة! استطلاع: [illegible]

قناة السويس: تحديات مستمرة وحياة متجددة استطلاع: [illegible]

- إلغاء ديون العالم الثالث
- عندما جاء الشباب إلى الكويت!
- الأوزون درع الحياة الواقي
- طيور تختطف الخواطر و[illegible]
- الأذن جسر للهمسات والضوضاء
- تحولات القصيدة العربية في أدب الشباب
- آفاق جديدة في علاج داء السكر
- التراكيب الأجنبية في اللغة العربية
- أضواء على عالم الفن السينمائي
- سوق للفن الإسلامي



د. مازن مبارك
و د. أحمد قدّور

واقرأ أيضاً للكتاب:

- د. محمد الرميحي - شريف الراس - د. عبدالرحمن زكي
رشاد أبو شاور - د. جمال الدين سيد محمد
د. صفاء يعقوب - حسين عيد - محمود مفلح

وللإسلام علينا حق

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

سلوك الطريق الذي يقود الإنسان إلى [illegible] ... [illegible]
المصالحة الداخلية بين الحق والإرادة . والمصالحة الخارجية بين الحق [illegible]

جاءت هذه المعاني في [illegible] ... فيه نعيش : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » (آل عمران : ١٩٣) .

كلمة « آمنا » هذه تحمل العقيدة والعمل معاً ، وصوح الفكرة ووضوح الطريق ، ثم تحمل مسئوليات العمل والصبر عليه بغير حدود ، إلا حدود الحياة . فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل .

وحين نتكلم عن « حق الإسلام » إنما نتكلم عن « الحق المصاحب » لا « الحق العابر » . فالعلاقة بالإسلام تعاقدية « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور » (لقمان : ٢٢) .

وهي علاقة تتشكل صورها حسب [illegible] الفرد وقدرته على [illegible] . هناك أولاً قدر مشترك في هذا التعاقد ، وهو ما يكون به المسلم مسلماً في عقيدته وسلوكه . ثم هناك قدر التخصص حسب فروع المعرفة التي يحتاج إليها المجتمع في [illegible] . [illegible] هذه التخصصات [illegible] [illegible] متعددة [illegible] بعض هذا يقوم به الأفراد ، وبعضه [illegible] ومنظمات . وبعضه تقوم به [illegible] . وبعضه تتعاون الدول الإسلامية فيما بينها على القيام به . والبعض الآخر والأخير تتعاون هذه الدول مع المجتمع العالمي على التنسيق بين معطيات الحضارات المتنوعة ، ومن بينها الحضارة الإسلامية ، في عالم معاصر يزداد ترابطاً وتقارباً .

تكامل الحضارة الإسلامية

[illegible] الحضارة الإسلامية [illegible] لا [illegible] إليها كأنها مجرد [illegible] [illegible] هذه لا [illegible] فيها [illegible] الاتجاهات [illegible] ومبانيه ومواقعه الاجتماعية . ولكن [illegible]

[illegible] هذه الصورة [illegible] [illegible] العقيدة والشريعة . وبين [illegible] الأخلاق والسلوك اليومي [illegible] نستطيع أن نتتبع خطوط الاتصال [illegible]

بين الدين والفن ، والاقتصاد والسياسة ، والأدب والإبداع العلمي وأخلاقياته ، فهناك فرق كبير بين حرية البحث العلمي وبين مجالات التطبيق في الحياة التي تحكمها الشرائع والقوانين ، وأقرب الأمثلة إلى ذلك بحوث هندسة الوراثة ، واحتمالات تطبيقاتها .

وإذا على مؤرخ الحضارة أن يواجه هذه المهام : أن يدرس حضارته ، وكيف قامت وتكونت ، وأن يكون قادراً على تمثلها في مستويين أساسيين : الأول مستوى القطاع الزمني (كأنه يلتقط صورة « فوتوغرافية ») ، والثاني مستوى التحولات الزمنية (كأنها شريط سينمائي) . بعبارة أخرى أن يكون قادراً على تمثل الصور الزمنية في سكونها وحركتها معا . ولنتفق على تعبيرين : الصورة والمسار .

في الحضارة الإسلامية - وهي في هذا لا تختلف عن أي حضارة أخرى - صور متعددة ومتعاقبة ومتعاصرة . وعلينا أن نبحث عن الخطوط المشتركة في هذه الصور جميعاً ، كما تحس عندما ترى الصيني مثلا أنه صيني : بعينه اللوزية ، ووجنته الأميل إلى البروز ، وبشرته الأميل الى السمك ، وشعره المسترسل ، هذا مع خلاف بين فرد وفرد هو من طبيعة الحياة البشرية . وأنت تحس الخطوط الحضارية المشتركة مع تغير في المستوى الحضاري ترتفع به موجة العطاء أو تنخفض ، وتندفع أو تبطيء . ولا تسلم حضارة من هذه التغيرات ، وإن استطاعت بعض الحضارات أن تجدد شبابها ، ولم يستطع البعض الآخر لعوامل داخلية أو خارجية ، فانطوت صحائفها ، ولم تبق منها إلا آثار على الأرض أو في المتاحف ، وفي مؤلفات عن إبداع كان ، ثم انقضى . ولا نستطيع أن ننكر - والتاريخ شاهد - توهج الحضارات وذبولها ويقظتها وصحوها . والأمثلة أمامنا من الشرق والغرب : في مصر والهند والصين واليونان وقلب الجزيرة العربية وأطرافها ، هذا إلى حضارات أمريكا قبل الكشف الجغرافي كالمايا والإنكا والازتك ، وقد دمر منها الاسبان قدرا رهيبا من أجل إبادة أي مقاومة بشرية ، ومن أجل الاستيلاء على ما فيها من ثروات .

الإسلام حضارة متجددة

والحضارة الإسلامية من الحضارات المتجددة التي استطاعت البقاء والاستمرار على الرغم من كل ما لقيت من عنت ومحاولات إبادة ، ويكفي أن نذكر الحروب الصليبية وحروب المغول وعنف بعض الدول الاستعمارية ومحاولاتها محو الهوية الإسلامية من بعض الأقطار ، وقد تكررت فيها الصحوات بعد الكبوات .

ونستطيع في هذا الأمر أن نميز في العالم الإسلامي بين ثلاثة قطاعات :

الأول : شمال البحر المتوسط (بصفة عامة) وقد اشتد الضغط الأوربي على هذا القطاع ، حتى استطاع استعادة اسبانيا ، وغربت شمس الإسلام عن الأندلس ، وعن صقلية ، وبعض جزائر البحر المتوسط ، وأصبح هذا البحر والمسلمون يعيشون على شواطئه الجنوبية والشرقية وفي آسيا الصغرى ، ولهم جاليات في شرق أوربا ، بينما انحسر عن أكثر شواطئه الشمالية .

الثاني : ونستطيع أن نسميه - بحق - جسم الإسلام الممتد من شواطيء المحيط الأطلسي غربا ويضم الوطن العربي حيث مهد الإسلام واللقاء بين العقيدة الإسلامية واللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، ثم يمتد جناح شرقي له شعبة شمالية إلى قلب آسيا حتى غرب الصين وأجزاء من شرقها ، وشعبة جنوبية الى إيران وأفغانستان وشبه القارة الهندية الباكستانية إلى اندونيسيا والجزائر الآسيوية في المحيط الهادي كالفلبين . وفي هذا القطاع الشرقي نرى الإسلام

عقيدة ، واللغة العربية لغة دينية ، بينما استطاعت لغات أخرى - أو بقيت - مستخدمة في الحياة اليومية .

الثالث : القطاع الجنوبي ، وبخاصة في افريقية جنوب الصحراء الكبرى ، وفي أجزاء من جنوب شرق آسيا حيث الصراع أو الحوار بين العقائد . وأبرز شركاء الحوار : الإسلام والمسيحية ، وبخاصة الكنائس الاوربية والأمريكية ، وهي مزودة بقدرات وإمكانات كبيرة ، مما دعا الجماعات والجمعيات الإسلامية إلى مضاعفة الجهد وتوسيع مجالات التعاون وآفاقه بين قلب الإسلام - فكريا وماديا - وبين هذه الأقاليم التي لا تزال مفتوحة أمام الامتداد الديني .

ولكل قطاع مشكلاته وحقوقه

نعود إلى القطاع الشمالي وقد أخذت تتبدل صورة الإسلام فيه : كان قطاع التراجع ، فأصبح من قطاعات التقدم . ومع سهولة الاتصال وقيام الدول الجديدة في افريقية جنوب الصحراء ، وفي أجزاء من الوطن العربي وفي جنوب شرق آسيا ، ومع توافر فرص العلم والعمل في الأقطار الصناعية المتقدمة اتجهت تيارات الهجرة من الجنوب إلى الشمال ، واجتذبت مسلمين وغير مسلمين . وفي غرب أوربا الآن - ونحن على مطلع العقد الأخير من القرن العشرين - نحو ستة ملايين مسلم : في بريطانيا نحو مليونين ، وفي فرنسا بين مليونين وثلاثة ، وفي ألمانيا نحو مليون ، هذا إلى جانب وجود جاليات إسلامية في هولندا والسويد وسويسرا ، وهي جاليات مستقرة ، وقد زاد عدد المساجد في فرنسا فأصبح نحو ألف ، وفي بريطانيا نحو مائتين وخمسين ، هذا عن طريق تحويل شقق أو أدوار في منازل إلى مساجد وأماكن لقاء ، وتكونت في أوربا مجتمعات لها سلوكها المتميز عما حولها .

ولا يختلف الأمر عن هذا في العالم الجديد : الولايات المتحدة وكندا ودول الكاريبي وأمريكا اللاتينية ، حيث يقدر إجمالي عدد المسلمين الآن بنحو تسعة أو عشرة ملايين : الثلثان في الشمالية والثلث موزع بين الوسطى والجنوبية .

ولا نستطيع القول بأن مسلمي هذه المواطن الجديدة على كلمة سواء ، أو أن مشكلاتهم تشابه مشكلات إخوانهم في العالم الإسلامي ، فقد هاجروا ولقوا ظروفا جديدة تحتاج منهم إلى فكر جديد واجتهاد جديد ، هو ما يطلقون عليه في الإسلام المعاصر ، فهذه الأقليات الإسلامية التي تبحث عن السماحة والأمن والنمو الهادئ والقدرة على تربية الأجيال الجديدة على مبادئ الإسلام ، دون أن ينفصلوا عن حياة الغرب الذي يعيشون فيه ، ولا عن حضارته السائدة المسيطرة الحاكمة .

ولقد استطاعت الشعوب الآسيوية والافريقية أن ترتبط ارتباطا عضويا بالحضارة الغربية : في الحياة اليومية ، في العمل المشترك ، في المصانع ، في الرياضة ، في الآداب والفنون : الموسيقا والسينما والمسرح ، وبقي المسلمون أو أكثرهم خارج دوائر الترابط اليومي ، ويكفي أن ندرس - بإمعان - عددا من الأفلام السينمائية لنرى فيها مكانة « العربي » والمسلم ، وسنرى الفوارق إذا قارناها بمكانة الآسيوي أو الافريقي ، الصور غير متشابهة ، ودرجات الاتصال والتفاهم متباينة . ويختلف معها شعور الرأي العام الغربي - المتأثر بمؤثرات معادية أو مصادقة أو متعاطفة - اقترابا أو ابتعادا عن الإسلام والجاليات الإسلامية والتعاون معها .

كما أننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن الجماعات اليمينية المتعصبة في بعض الأقطار الغربية التي لا ترحب بهذا المد الإسلامي ، ولا بموقف القوى الصهيونية التي انفردت بالميدان في بعض الأقطار ، واستطاعت الوصول إلى مركز

التأثير على القرار السياسي والتمهيد له ، ومتابعته حتى صدوره وتعميقه لصالح « اسرائيل » .

ثم لك أن تتابع الدراسة لترى آثار ذلك في الحياة السياسية والأدبية والفكرية ، وما يصدر عن دور النشر من كتب تستطيع أن تعبر حدودها إلى الأقطار الإسلامية ، وتؤثر في صياغة الأفكار والمواقف ، وعلى ردود الأفعال ، وفي إبراز مواقف استفزازية لقطاعات من العالم الإسلامي ، وقد تكون بعض هذه الكتب لمؤلفين يحملون أسماء إسلامية .

وقضية كتاب « الآيات الشيطانية » لسلمان رشدي ما زالت حية منذ صدور الكتاب في خريف ١٩٨٨ ، وعلى الرغم من كل الضجة التي أثيرت حول الكتاب ، ولعله بسبب هذه الضجة انتشر الكتاب وأعيدت طبعاته ، وفي صيف ١٩٨٩ صدرت ترجمته الفرنسية ، وذلك بعد صدور الترجمتين الاسبانية والايطالية . واحتفظ الناشر الفرنسي « كريستيان بورجوا » باسم المترجم سرا . ولم ترض بعض دور العرض الكبرى كلافاييت وبرنتن في باريس أن تبيع الكتاب تحسبا لأي خطر . ولكن هذا لم يمنع الدور الأقل مكانة من عرض الكتاب ، وبلغ عدد النسخ المبيعة في يومين خمسا وستين ألفا (مجلة التايم ٣١ يوليو ١٩٨٩ ص ١٥) .

وهناك كتاب آخر ، لايقل سوءا عن « الآيات الشيطانية » يحمل اسم « الدائرة المغلقة » ، بقلم الكاتب والصحفي دافيد برايس جونز ، وهو من دار وايدنفلد ونيكلسون (لندن ١٩٨٩) وهو يتكون من مقدمة وثلاثة عشر فصلا وخاتمة . والكتاب عن الحياة العربية . وهو مختص في السيئات وليته يعرضها بموضوعية . ولكنه يختار من السيئات أشدها ، ثم يلوي أعناقها ، ويشير وراءه استشهادات كثيرة . هي في ذاتها عمل واسع في الاختيار ، ثم يذكر الشبهات والإسقاطات [illegible] يحققها [illegible] ويرد عليها [illegible] عند [illegible] الأسس [illegible]

هذه الاقتباسات والمراجع والصفحات ، قد يغره هذا ويدعوه إلى التصديق ، فماذا لو كان القارىء غريبا بعيدا عن ميدان الأحداث ، ولا خبرة له بالرجال ، ولا وقت عنده للموازنة ؟

واضح أن هذا النوع من الإنتاج يستهدف النيل من العروبة والإسلام ، وأنه جزء من الحرب النفسية والفكرية التي تشنها بعض دوائر الغرب ، ولكن .

أين النقد والتقييم في حياتنا ؟

عند هذه المرحلة من الحديث أود أن أقف قليلا ، هل نتابع عرض المشكلات في القطاع الشمالي ثم الأوسط والجنوبي ؟ هل نذكر اشتعال الحروب والصراعات على مستوى الوطن الواحد ، وعلى مستوى الجيران ، بدءا من السنغال وموريتانيا في أقصى الغرب إلى الصراعات العرقية والطائفية والمذهبية في جنوب شرق آسيا ، مرورا بلبنان وما بين العراق وإيران ، وما يحدث في أفغانستان ؟ هل نذكر وضع « اسرائيل » بين القطاعين الافريقي والآسيوي من العالم الإسلامي ؟ هل نذكر ما تلقى الأقليات الإسلامية في الفلبين ، وفي نظائر ـ أو ما يقرب من النظائر ـ فيما يلقاه مسلمو بلغاريا ؟

ثم القطاع الجنوبي بكل الزحف التبشيري فيه ، وهو أمر ليس سريا ، وإنما له مؤتمراته ومنشوراته ، وهيئاته المتخصصة التي تعلن عن أهدافها ؟

ويمكن أن نتجه في الحديث نحو المسارعة إلى الاعتراف بأوجه النقص في حياتنا الإسلامية لنبادر بعد هذا إلى عرض خطة ذات شقين :

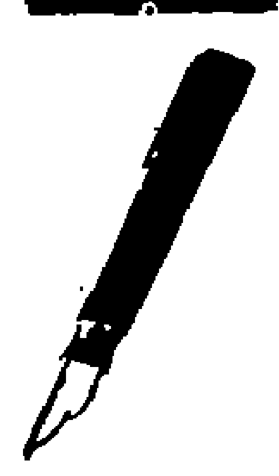
الشق الأول : هو حاجتنا إلى صياغة جديدة للحياة الإسلامية ، يتميز فيها أمران : أن نحتفظ [illegible] يسمح به الإسلام [illegible] . وهذا أمر مشترك [illegible] شعوب الأرض . وقد أحدث به أسلوب [illegible]

سبقتنا في الحياة المعاصرة إلى التقدم ، بدءاً من اليابان وكوريا شرقا ، إلى العالم الجديد غربا ، وأول هذا حسن إعداد الأجيال للحياة في نظرة متكاملة ، تكفل كرامة الفرد والمجتمع . الأمر الثاني ما يكون به المسلم مسلما : من عقيدة وخلق وثقافة . ذلك لأن أكبر عقبة في سبيل احترام الإسلام كحضارة عالمية ما يمارسه المسلمون في واقع حياتهم من حروب داخلية وصراعات وتخريب لديارهم وثرواتهم ، مما يصرفهم عن حسن إعداد الجيل الجديد لحياة خصبة مثمرة ، وليس من العدل في شيء أن نلقي اللوم على غيرنا وتكتفي بإدانة الاستعمار وأعداء الإسلام .

الشق الثاني : هو الجانب الفكري ، ولو شئنا اصطلاحا أدق لقلنا : المناخ الفكري الذي تبغي صياغته للمسلمين : كيف نفهم حضارتنا في شمولها وتكاملها ومسارها ؟ وكيف نعرضها على أبنائنا ، بحيث لا تكون مجرد سرد للأمجاد ، كأننا تراجمة في متحف ؟ علينا أن نبرز نقاط القوة لنزيدها قوة ، ونقاط الضعف حتى نحاول بقدر استطاعتنا تجنبها ، وهناك نقاط ضعف عميقة الجذور ، كأنها أمراض متوطنة ، تحتاج إلى معالجة وصبر وممارسة عالية : ومن أبرزها طبيعة التعامل بين الأجهزة الحاكمة والشعوب . نريد أن تكون دعائمها الثقة المتبادلة والمسئولية المشتركة والصبر على تكوينها ، بحيث تستطيع التغلب على النزوات العابرة . نريد احترام الوقت فهو الحياة . نريد حب العمل والعلم والإبداع ، بحيث يصبح العمل سعادة ، والسعادة في رؤية الإنجاز . نريد أن ندعم روح الفريق وروح الجماعة .

وبعد : أليس من التناقض أن نؤمن في الدين أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد ، بينما يحيا الأفراد وهم يقدمون مصالحهم على مصالح الجماعة ؟

وأخيرا : أرجو القارىء الكريم أن يجعل ختام هذا الحديث قراءة ثانية لفقرته الأولى . □



● يعتقد كثيرون أن قلم الحبر الذي نعرفه اليوم هو من اختراع الأمريكي « لويس أديسون ووترمان » ، في القرن الثامن عشر ، إلا أن المتتبع لتراثنا العربي يجد أن ذكره قد ورد في إحدى المخطوطات العربية التي ترجع إلى عصر الدولة الفاطمية ، وهذه المخطوطة هي كتاب « المجالس والمسامرات » ، لأبي حنيفة النعمان ، ويذكر فيه أن المعز لدين الله الفاطمي هو أول من أوعز لاختراع أقلام الحبر التي تحوي خزانا للحبر . فقد جاء في هذا الكتاب أن المعز لدين الله ذكر القلم فوصف فضله ، ثم قال : نريد أن نعمل قلما يكتب به بلا استمداد من دواة ، ويكون مداده من داخله ، فمتى شاء كتب به ما شاء ، ومتى شاء تركه ، فارتفع المداد ، وكان القلم منه ناشفا ، ويجعله الكاتب في كمه فلا يرشح شيء من مداده ، فيكون آلة عجيبة ، لم نعلم أنا سبقنا إليها ، ثم تكون دليلا على حكمة بالغة . قلت : ويكون هذا يا مولانا ؟ قال : يكون إن شاء الله ، فما مر بعد ذلك إلا أيام حتى جاء الصانع الذي وصف له الصنعة بقلم من ذهب ، فأودعه المداد على مقدار الحاجة ، وكتب به أحسن كتاب ، ثم رفعه عن الكتاب ، فأمسك المداد ، فرأيت صنعة عجيبة ، لم أكن أظن أني أرى مثلها .

لحنان في ليلٍ أزرق

ليلٌ أزرق
وظلّها لمجمعِ القُبلِ في العتمةِ
حطّتْ فوقَ المروجِ التفاح
امرأةٌ وشعاع
تتهادى نحوي لجمانِ الشعلا في عينيها
تسألني : مَنْ أنتَ ؟ ومِنْ أينَ أتيتَ؟
أجيبُها : طيفٌ مِنْ طارحِ هذا الوقت
جئتُ مِنَ الأعشابِ الباكيةِ على
أقدامِ الرّيح
كي أعبرَ هذا الأفقَ الدامعَ
حزيناً وجريحاً

- ٢ -

ضحكتْ كالموسيقا تتلفّعُ
بجيوبِ الرُّوح

- ٣ -

تقلّبتُ بعيني العشقِ إلى آخرِ
منعطفاتِ القلب
سألتني : إنْ كُنتُ عرفتُ الحبّ
وأجبتُ :
الآنَ يداهمُني
مِنْ شرفاتِ القلب

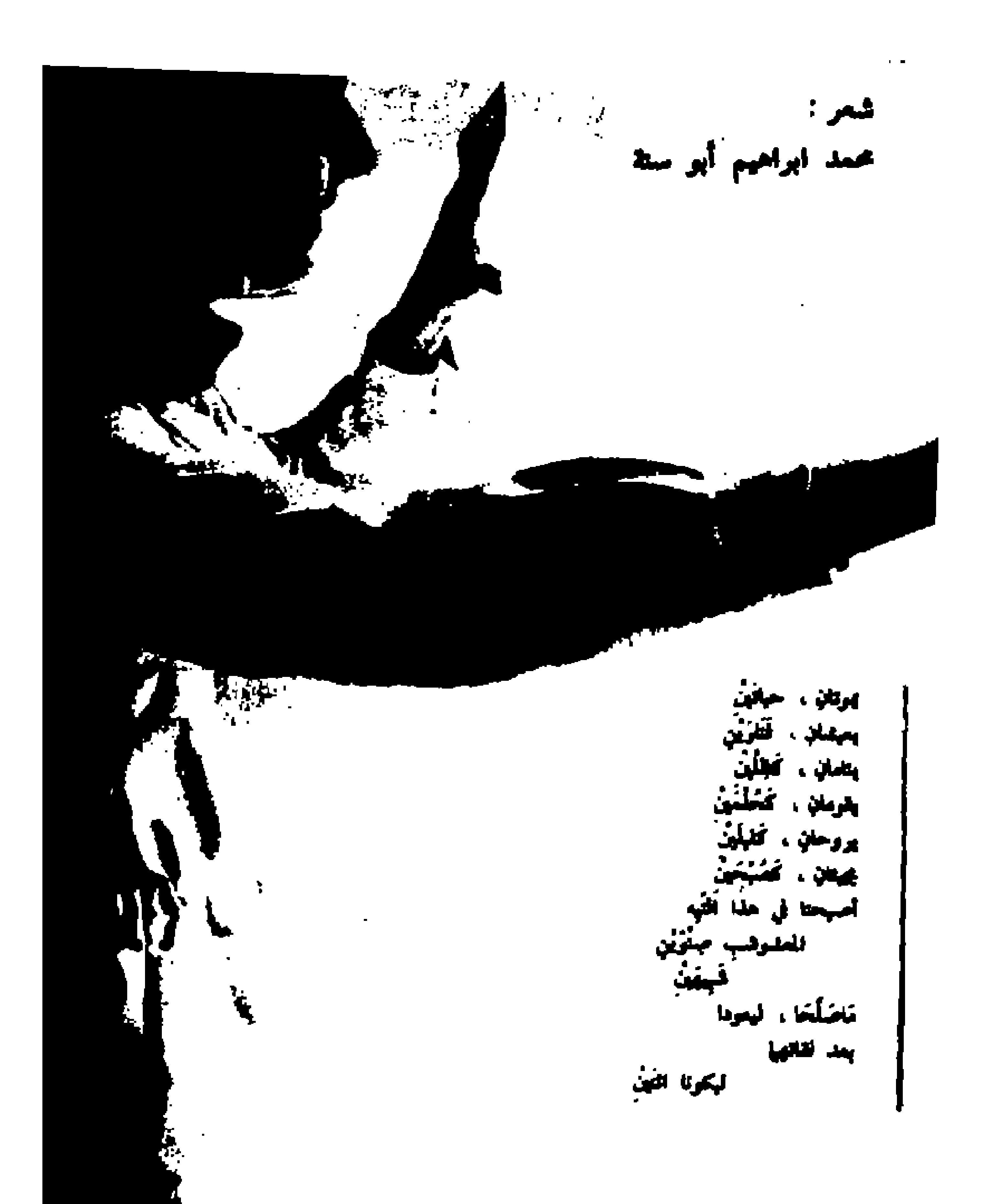
- ٤ -

حينَ لمستُ يدَيْها
كانتْ أناملُ أصابِعِها
تعزفُني لحناً
يتراقصُ مِنْ بدءِ طفولتِنا
حتّى آخرِ قطرة
تسقطُ مِنْ عينَيْنا
في حقلِ العُمْر
يا سيدتي : مَنْ أنتِ ؟ ومِنْ أينَ أتيتِ؟
وهل هذا الجدولُ الرقراقُ هو الحبّ ؟
لعلّني ، وضحكتْ
ما بينَ أمومةِ عينَيْها
وصلاةِ القلب

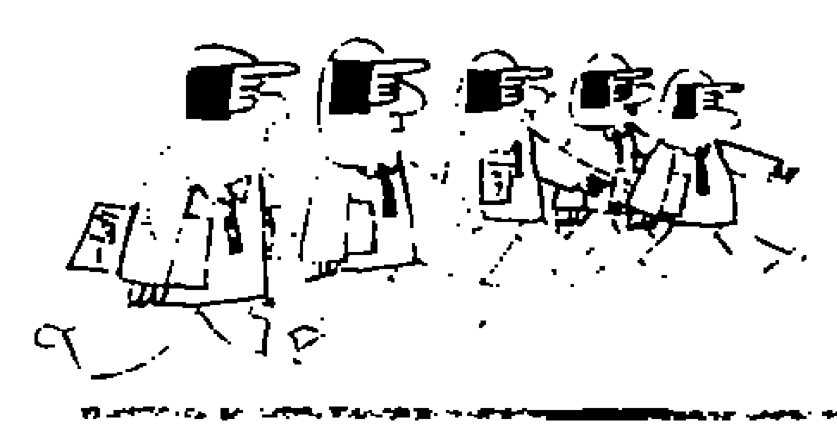
وتراقصْنا
كنّا لحنَيْنِ ، وريحَيْنِ
بعيدَيْنِ ، قريبَيْنِ
صغيرَيْنِ ، كبيرَيْنِ
سعيدَيْنِ ، حزينَيْنِ
وحيدَيْنِ ، كثيرَيْنِ
مضيئَيْنِ ، مُرتعشَيْنِ
سماويَّيْنِ ، وكهفيَّيْنِ
ضحوكَيْنِ ، عبوسَيْنِ
ونجميَّيْنِ ، طليقَيْنِ ، حبيسَيْنِ
وطريَّيْنِ ، خفيَّيْنِ
ساكنَيْنِ ، مهاجرَيْنِ
ريحيَّيْنِ ، جبليَّيْنِ
وصيفيَّيْنِ ، شتائيَّيْنِ
جليديَّيْنِ ، حنونَيْنِ
بلوريّانِ ، صخريَّيْنِ

شعر :

محمد ابراهيم أبو سنة



وطنان ، حبيبتين
يبتعدان ، كفرقدين
يلتقيان ، كقبلتين
يحترقان ، كشمعتين
يروحان ، كظلين
يجيئان ، كشمسين
أصبحنا في هذا التيه
المطلوب صغيرين
فبعدت
تعانقتا ، ليعودا
بعد لقائهما
ليكونا النصفين



لغة الحوار في المسرح العربي مشكلة بلا حل!

بقلم : الدكتورة حياة جاسم محمد

المسرحية نوع أدبي يتميز عن الأنواع الأدبية الأخرى باختفاء صوت الشاعر أو الكاتب وانتفاء السرد ، فهي تتكون من خلال ما تقوم به الشخصيات من أفعال ، وما تتبادله من حوار ، ولكن هذا الحوار ظل مشكلة بلا حل ، فهل تكتب بالفصحى أم بالعامية أم بلغة ثالثة ؟ .

الحوار ثانوي في الرواية ، لأن الكاتب يسرد الأحداث ويطورها ، ويصف الشخصيات ويكشف عن نفسياتها ، أما في المسرحية فالحوار أساسي ، وهو ما به تقوم المسرحية وتتشكل ، حتى أن « رينيه ويلك » ، في النظرية الأدبية ، يجعل الأنواع الثلاثة المجردة هي : السرد ، والحوار ، والأغنية .

وظائف الحوار في المسرحية

إن للحوار في المسرحية وظائف خطيرة ، ويقسم « مليت » و « بنتلي » في كتابيهما « فن المسرحية » ، هذه الوظائف الى نفعية وغير نفعية . أما الوظيفة غير النفعية للحوار فهي أنه يروق ويمتع لما فيه من جماليات ، ولكن هذ

الوظيفة ثانوية إزاء الوظائف النفعية المتعددة للحوار ، وأهمها تطوير عقدة المسرحية ، أي مجموع أحداثها ، وطريقة ارتباط هذه الأحداث ، ويتم هذا التطوير عن طريق مصاحبة الأفعال التي تقع على خشبة المسرح ، والكشف عن الأفعال التي تقع خارج المسرح ، أو التي تحصل في ماضي المسرحية . وكذلك الإشارة الى ما يتوقع حدوثه في المستقبل .

والوظيفة النفعية الأخرى للحوار هي الكشف عن الشخصيات بتوضيح أبعادها المظهرية والاجتماعية والنفسية ، وذلك يقتضي أن يكون الحوار مناسبا للشخصية من حيث عمرها مثلا ، ودرجة ثقافتها ، ونوع نفسيتها ، انبساطية كانت أو انطوائية . حادة أو هادئة . متفائلة أو متشائمة . وما الى ذلك من الاختلافات النفسية الأخرى

مشكلة اللغة في الحوار

إن اللغة هي أداة الحوار المسرحي على الرغم من وجود التمثيل الصامت الذي يظل استثناء لا يخرق القاعدة ، وعلى الرغم من تأكيد المسرح الحديث على الأصوات والأشياء في عروضه الى درجة كبيرة . وفي المسرح العربي تكون لغة الحوار مشكلة كبيرة تفرض نفسها على الشاعر أو الكاتب المسرحي ، وعلى القارىء أو المشاهد ، والدارس الباحث . ومصدر هذه المشكلة وجود ثنائية الفصحى والعامية في اللغة العربية . فانطلاقا من البديهيات الفنية التي تقدمت لابد للشخصيات ، في المسرحية العربية ، أن تتكلم عربية ملائمة لمستواها الاجتماعي والثقافي ولتكوينها النفسي ، وهذا يعني أن الفصحى قد تبدو غير مناسبة للشخصيات التي لم تتعلم أو هي محدودة التعليم ، وأن العامية أنسب لها . وتكون النتيجة أن تختلف لغة المسرحيات العربية تبعا لاختلاف العامية في الأقطار العربية المختلفة ، وهو اختلاف كبير يقف حائلا دون التواصل الذي تسعى إليه المسرحية مع مشاهديها وقرائها ، وتظل فاعلية المسرحية محدودة بحدود القطر الذي كتبت بعاميته ، أو أقطار قليلة تفهم عامية ذلك القطر . وكون العامية المصرية بحكم انتشارها الواسع مفهومة في الأقطار العربية جميعها استثناء لا يقاس عليه ، ولا يغير من أبعاد المشكلة المدروسة ولا من النتائج المترتبة عليها .

استخدام الفصحى والعامية معا

لقد فرضت مشكلة اللغة نفسها على الكاتب المسرحي العربي منذ أول تجربة في كتابة المسرحية في العربية ، عام ١٨٤٧ ، وهي تجربة اللبناني مارون النقاش وذهب الكتّاب المسرحيون العرب مذاهب مختلفة في مواجهة هذه المشكلة . فأما مارون النقاش نفسه فقد رأى أن يستخدم في مسرحيته الأولى « البخيل » الفصحى والعامية معا ، فاختار الفصحى للشخصيات التي تؤهلها خلفيتها الاجتماعية والثقافية لاستخدامها في الحوار ، في حين اختار للشخصيات الأخرى أن تتكلم العامية المحلية للقطر الذي تنتمي إليه ، ثم ريشا الخادمة تتحدث العامية اللبنانية ، وعيسى يتحدث العامية المصرية حين يتنكر بزي كاتب مصري ، ويتحدث غالي وناظر كما يتحدث أتراك قليلو المعرفة بالعربية . والى ذلك أشار النقاش نفسه في تقديمه مسرحية « البخيل » ، ووثق لذلك محمد يوسف نجم .

وأخذ بالطريقة نفسها ميخائيل نعيمة من لبنان ، في مسرحيته « الآباء والبنون » التي يعالج فيها صراع الجديد والقديم متمثلا في صراع الأبناء والآباء . وقد كتب هذه المسرحية عام ١٩١٦ ، ونشرها في كتاب عام ١٩١٧ . وقد ناقش هو الآخر قضية لغة الحوار في مقدمة كتبها لمسرحيته ، وبين أنه لم يجد حلا للمشكلة سوى

الجمع بين الفصحى للمتعلمين والعامية لغير المتعلمين ، وزاد على ذلك أن جعل إحدى الشخصيات تتكلم العامية وإن لم تكن أمية تماما ، لأن العامية توافق طباع تلك الشخصية ومداركها ، وأنه مال الى العامية في حديث الشخصيات المتعلمة مع غير المتعلمة » في بعض المشاهد التي تليق بها العامية أكثر من الفصحى » دون أن يحدد طبيعة هذه المشاهد .

وهناك بعض المسرحيات من النتاج المسرحي المعاصر تجمع بين الفصحى والعامية ، منها على سبيل المثال : « بلدي يابلدي » لرشاد رشدي ، « آه ياليل ياقمر » لنجيب سرور الذي استخدم في استهلالها (البرولوج) شعرا حرا بالفصحى والعامية في سائرها . « الوافد » ، « اخطاب د » ، « ليلة مصرع جيفارا » لميخائيل رومان ، وكذلك « النار والزيتون » لألفريد فرج . والصفحات الدرامية التي كتبها نعمان عاشور واستمدها من تاريخ الجبرتي وعنونها « شعب مصر » . ولم تشر أي من المسرحيات الأخيرة الى مشكلة الفصحى والعامية أو تبرر استخدامها معا .

الفصحى في المسرحية العربية

مازالت الفصحى وسيلة تعبير لدى الكثير من كتّاب المسرح العربي ، وقد اتضح هذا الاتجاه منذ بداية التجربة المسرحية العربية في انتاج الرائد الثاني أبي خليل القباني من سوريا ، فقد استخدم الفصحى في مسرحياته ، ما كان منها تاريخيا أو مستمدا من تراث القصص الشعبي أو مقتبسا أو مترجما . كذلك فعل سليم النقاش ونجيب الحداد فيما ترجما أو ألفا من مسرحيات ، والشيخ سلامة حجازي في مسرحه الغنائي فقد كان لفرقته مسؤول خاص عن اللغة مهمته ضبط الألفاظ ضبطا صحيحا ، ومراعاة أداء الممثلين لها أداء فصيحا لايشوبه لحن . وحرص علي أحمد باكثير على استخدام الفصحى في المسرحيات الكثيرة التي كتبها ، والتي تنوعت ما بين تاريخية وسياسية واجتماعية معاصرة . واستعمل توفيق الحكيم الفصحى في جل مسرحياته على اختلاف اتجاهاتها الفنية ، ولم يركن الى العامية إلا في القليل منها . أما في المسرحيات العراقية والمسرحيات السورية فتشكل الفصحى تيارا غالبا .

إن الفصحى بالطريقة التي استخدمت بها في المسرحية العربية ، قاصرة عن القيام بالمهمات الفنية المتوقعة منها ، وهو قصور ليس في طبيعة الفصحى نفسها ، لكن الكتّاب المسرحيين أحيانا ينطقون الشخصيات فصحى لا توجد إلا على صفحات الكتب القديمة ، وتضطرهم غرابة بعض المفردات إلى شرحها في هوامش ، وما يقال عن المفردات يصدق على التعابير وتكوين الجمل والصور والأخيلة . إن ذلك كله يبعد المسرحية عن روح العصر ويؤدي الى إنصراف الجمهور عنها ، فلا بد لكل مسرحية ، حتى التاريخية ، من أن تكون صادرة عن روح العصر ومنسجمة معه . والقصور الآخر يبدو في استخدام فصحى واحدة لشخصيات المسرحية جميعها مهما اختلفت مستوياتها الاجتماعية والثقافية ، فيبدو غير المتعلم أو قليل التعليم بعيدا عن المعقولية والواقع وهو ينطق فصحى غريبة لا يستخدمها حتى مثقفو العصر .

اللهجات العامية في المسرحية العربية

التزم الرائد الثالث للمسرح العربي يعقوب صنوع من مصر ، بالعامية لغة للحوار في جميع مسرحياته التي كتبها وقدّمها على المسرح المصري ابتداء من عام ١٨٧٠ ، وكان هدفه من تأسيس مسرحه ، كما ورد عنه ، إرشاد مواطنيه الى الطريق الذي يؤدي بهم الى الرقي والمدنية ، ولعل هذا دفعه لاختيار العامية لتناسب مدارك

الجمهور المصري حينذاك ، ولتناسب شخصيات مسرحياته ووضعياتها ، وكانت جميعها مستمدة من واقع المجتمع المصري المعاصر في وقته .

وتواصل استخدام العامية في الحوار لدى عدد من كتّاب المسرح المصري ممن جاء بعد صنوع ، وكذلك استعملها محمد عثمان جلال فيما ترجمه عن الفرنسية ، أو مصّره ، من ملاهٍ لموليير وماسي لراسين ، حيث اختار الزجل المصري وسطاً ، وكذلك في المسرحية الوحيدة التي ألّفها . ويبرّر المترجم اختياره الزجل بأنه يتبع أصلها المنظوم ، ويجعل نظمها يفهمه العموم ، وأن اللغة الدارجة أنسب هذا المقام ، وأوقع في النفوس عند الخواص والعوام ، ولكنه لم يدلل على رأيه ذاك فنيا .

وآثر الكاتب المسرحي المصري محمد تيمور العامية في جميع ما كتبه من مسرحياته إلا مسرحيته الأولى التي كتبها بالفصحى ثم أعاد كتابتها بالعامية لأنه وجد العامية ، كما يقول ، أكثر مطابقة للحقيقة والواقع . وتابعه في ذلك ، في مصر أيضا ، ابراهيم رمزي ، وعباس علام في بعض مسرحياته معللا ما فعله بأنه فضل أن يتوجه الى الشعب مستخدما لغته لكي يتمكن من التصدي للملاهي التي يعرض فيها ما يسيء الى أخلاق الناس ويفسد آدابهم . كذلك استخدم سيد درويش ومنيرة المهدية العامية في مسرحهما الغنائي ، والريحاني في ملاهيه وهزلياته ، وعلي الكسار الذي ذكر أنه يريد مخاطبة الشعب بلغة يفهمها ، لكي يمكنه من معرفة أمراضه ووسائل علاجها . وقد لجأ إلى العامية يوسف وهبي في عدد من مسرحياته الجادة ، ومحمود تيمور في مسرحياته الواقعية المعاصرة ، وتوفيق الحكيم في بعض مسرحياته الأولى ، ومنها ، « المرأة الجديدة » (١٩٢٣) ، « حياة تحطمت » (١٩٣٠) ، وبعض مسرحياته ذات الفصل الواحد ، مثال : « الزمار » (١٩٣٢) ، « جنسنا اللطيف » (١٩٣٥) . وشهد النصف الثاني من الخمسينيات مرحلة جديدة في مسيرة المسرح المصري بدأت بعرض مسرحية « الناس اللي تحت » لنعمان عاشور ، وكان ذلك عام ١٩٥٦ . ومن أهم مميزات هذه المرحلة كما حدّدها الناقد جلال العشري ، التصاقها بالواقع المصري المعاصر في موضوعاتها وشخصياتها وحوارها ، ولذلك استبدلت الفصحى بالعامية ، وظهر جيل من كتاب المسرح المصري ، هو جيل ما بعد ثورة ١٩٥٢ ، يستخدم العامية فيما يكتبه من مسرحيات جادة ملتزمة ، تتمتع بالنضج الفني الذي لم يتوافر لكثير من المسرحيات التي سبقتها . وترك لنا مسرح الستينات في مصر تراثا مسرحيا كبيرا كانت العامية لغة حواره ، وأبرز كتابه : نعمان عاشور ، سعد الدين وهبة ، ألفريد فرج ، يوسف ادريس ، رشاد رشدي ، ميخائيل رومان ، نجيب سرور ، محمود دياب ، علي سالم



وآخرون ممن واصل معظمهم الكتابة في السبعينيات وبعضهم في الثمانينيات .

وفي العراق كتب يوسف العاني للمسرح العراقي ، منذ بداية الخمسينيات ، مسرحيات ملتزمة تعالج قضايا سياسية واجتماعية من واقع العراق المعاصر حين كتابتها ، وهي مسرحيات كما يذكر العاني نفسه ، كتبت لتمثل ومُثلت بالفعل ، ولذلك جعل المؤلف كلا من الشخصية المسرحية والجمهور موضع اهتمامه .

إن إعادة كتابة الحوار بالفصحى عند نشر المسرحية ليس حلا لمشكلة لغة الحوار في المسرحية العربية ، فمن البديهيات المعروفة أن المسرحية تشاهد ، ولا يكتمل وجودها إلا بعرضها على خشبة المسرح . وإذن ، فمازالت المشكلة قائمة ، وستظل المسرحية المكتوبة بالعامية محدودة الفاعلية بسبب عاميّتها تلك . وبالإضافة الى ذلك ، فإن إعادة الكتابة تتطلب من الكاتب جهدا فنيا ووقتا ، كما أن من العبث واللامعقول أن يكتب الكاتب نسختين من كل مسرحية يؤلفها ، ولابد أنه غير مقتنع بإحداهما .

وفي المسرح الكويتي اتجاه واضح في معالجة القضايا الاجتماعية المحلية والمعاصرة ، مما أدى بكتّاب هذا النوع من المسرحيات الى اتخاذ العامية لغة الحوار . وتطغى العامية على المسرح الجزائري ، وتظهر واضحة في النتاج المسرحي في تونس والمغرب .

اللغة الثالثة

استخدم توفيق الحكيم الفصحى في أغلب مسرحياته والعامية في القليل منها ، ولكنه في مسرحية « الصفقة » ومن بعدها « الورطة » جرّب استخدام لغة ثالثة ، كما يدعوها ويحددها بأنها لغة التخاطب في الحياة اليومية ، ولكنها مع ذلك قريبة الى العربية الصحيحة . وهي لن تحتاج عند التمثيل الى نقلها الى العامية ، وبذلك لن يكون للمسرحية نصان بل نص واحد ، ينطقه الممثل عاميا ويقرؤه القارىء فصيحا .

إن ما يقترحه الحكيم ليس بقادر على أن يحقق للمسرحية العربية شمولية يحول استخدام العامية دون تحققها ، فإن الارتفاع بلغة التخاطب وتقريبها من الفصحى ، في مصر وحدها ، بالمقترحات التي أشار إليها الحكيم يتطلب جهدا ووقتا من الأدباء والدارسين للاتفاق على الرخص والاختزالات والتغييرات المطلوبة لإيجاد اللغة الجديدة ، وإلا فان كل كاتب سيجتهد في ذلك ، وستكون ، في مصر وحدها ، لغات لا لغة واحدة جديدة ، ويصير الصدع كسرا بدل أن يُرأب . إن اللغة الثالثة الجديدة حين تظهر ، ستكون لغة المسرحيات المصرية ، لأنها قائمة ، أساسا ، على التقريب بين استعمالات العامية المصرية والفصحى ، وإن لكل قطر عربي عاميته التي تختلف عن العاميات الأخرى في مفرداتها وتراكيبها وتكوين جملها ، ولذلك فإن إيجاد لغة ثالثة يقتضي وقتا وجهدا في كل قطر عربي ، أو في أحسن الأحوال في أقطار قليلة تتقارب عامياتها ، للاتفاق على التجاوزات والاختزالات المطلوبة . وعلى الرغم من ذلك ستظهر لغات جديدة بدلا من لغة واحدة منشودة ، بالإضافة الى أن اللغات الناتجة ستكون لغات مصنوعة وليست لغات طبيعية تفرضها احتياجات الواقع ، وسيظل المسرح العربي ، بعد تلك الجهود كلها ، إقليميا لا يحقق التواصل الشامل المرجو له . وقد ناقش محمد غنيمي هلال ، في كتابه « النقد الأدبي الحديث » اللغة الثالثة التي استخدمها الحكيم في مسرحيته « الصفقة » ، وأشار الى ركاكة العبارات وعاميتها .

إن الدليل على قصور لغة الحكيم الثالثة يظهر في أن الحكيم نفسه لم يستخدمها في غير مسرحيته

المذكورتين سابقا ، ولم يستخدمها سواء من الكتاب المسرحيون في مصر على الرغم من مضي زمن طويل على دعوة الحكيم إليها ، ظهرت مسرحية « الصفقة » عام ١٩٥٦ - وكذلك لم تقم في الأقطار العربية الأخرى أي محاولة نظرية أو جهود عملية لإيجاد لغة ثالثة بديلة .

مشكلة بلا حل ؟

إذن ، هل هي مشكلة دون حل ؟ بدءا ، ينبغي الإشارة الى أن المسرح ، مثل أي فن آخر ليس الواقع نفسه ، وإنما هو فن وصنعة ، وله جمالياته المعروفة . وليست مهمة الفن - حتى الواقعي منه - نسخ الواقع وإنما إختلاؤه وتفسيره مستخدما في ذلك وسائل فنية مختلفة ، ومستعينا بخيال الجمهور الذي يسد الفراغات ويرى في المسرح ماقد تقصر طاقات العرض المسرحي عن توفيره . وكما يتقبل الجمهور مشهد غابة مرسومة على ستارة على أنها غابة حقيقية تجرى فيها الأحداث ، وكما يستسيغ الجمهور نوعا معينا من الإنارة ويجد فيها ضوء القمر دونما قمر حقيقي ، كذلك ينبغي التعامل مع لغة الحوار في المسرحية على أنها لغة فنية لا لغة الواقع نفسه كما هي ، وتلك حقيقة يتفق عليها الباحثون .

إن استخدام الفصحى « المحدثة » المعاصرة في الحوار يمكن المسرح العربي من التغلب على المشكلة الفنية ، مشكلة مناسبة اللغة للشخصية ، وعلى ما يسببه استخدام العامية من محدودية وانغلاق ، ويحقق كذلك الارتفاع بلغة الجمهور ، فليس المفروض في المسرح أن يهبط بالجمهور ، وإنما يفترض فيه أن يرتقي بالجمهور وهو يمتعه ويسليه ، وأن يسمو بمشاعره وأفكاره ولغته ، وذلك ما حققته وتحققه المسارح الجيدة في أنحاء العالم . وما يقال عن المسرح يصدق على وسائل الاتصال الجماهيري ، لاسيما التلفاز .

إن مشكلة لغة الحوار في المسرح العربي جزء من مشكلة أكبر هي الابتعاد عن الفصحى في التخاطب والحوار حتى في أوساط المثقفين وفي المناسبات الثقافية ، بل وحتى في التدريس على اختلاف مستوياته . وفي دروس اللغة العربية نفسها . وهذه المشكلة على خطورتها ، لم تحظ بالاهتمام والعناية اللازمين ، ولم تبذل جهود جادة من أجل البدء بتجاوزها . لن يكون إحلال الفصحى « المحدثة » المعاصرة محل العامية أمرا ميسورا ، ولكن يمكن تحقيق العسير حين يتوافر الاعتقاد بأهمية الهدف والاستعداد للعمل . الا نبدأ ؟ . □

زمن نابليون

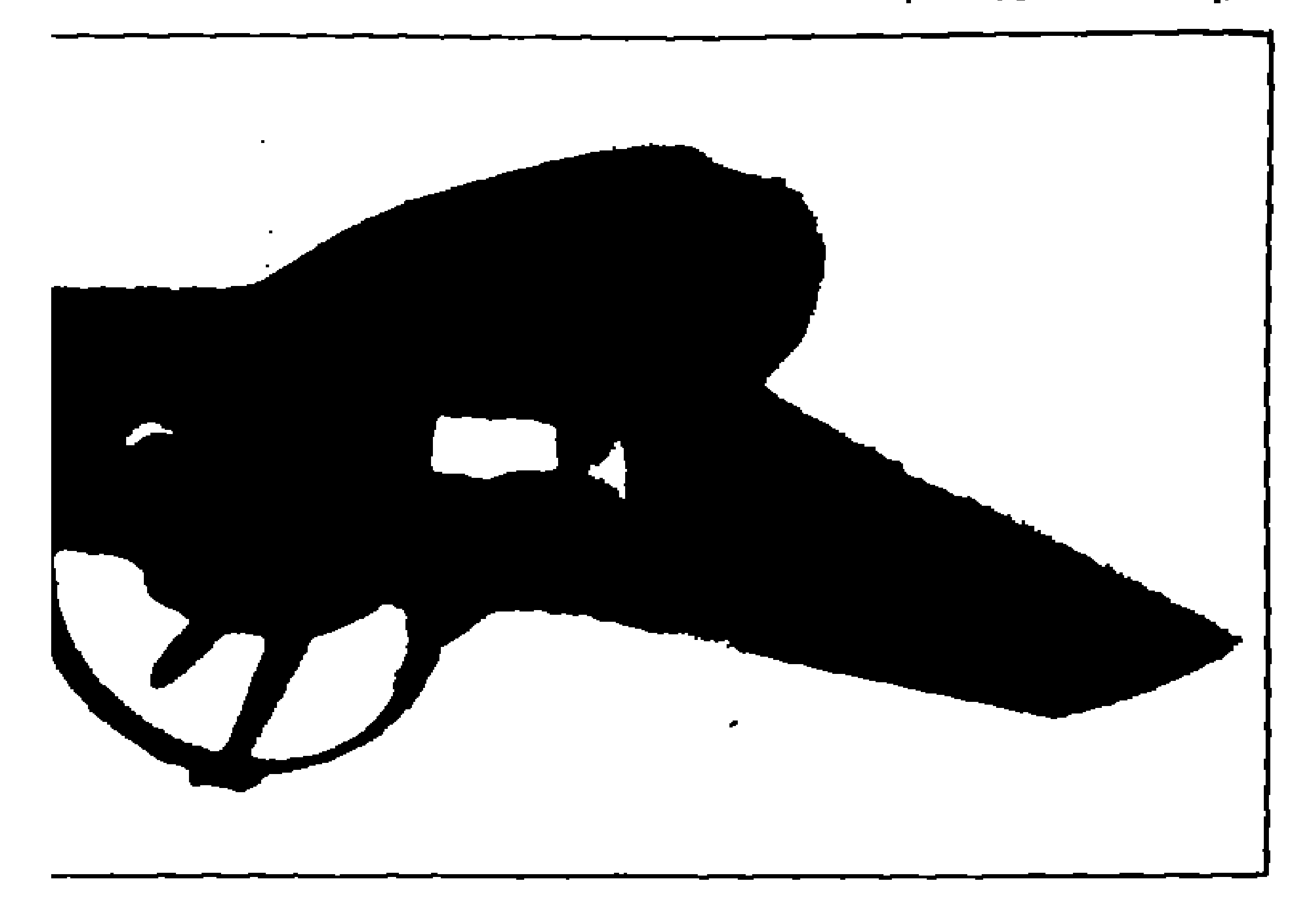
سئل برنارد شو مرة : في أي عصر كنت تفضل أن تعيش ؟ فأجاب : في عصر الامبراطورية الأولى ، ففي ذلك الزمان كان رجل واحد يزعم أنه نابليون .

أنا عدو الشرح الطويل ، فهو يخدع إما من يقوم به أو من يصغي إليه ، وعادة مايخدع الاثنين معاً .

« غوته »



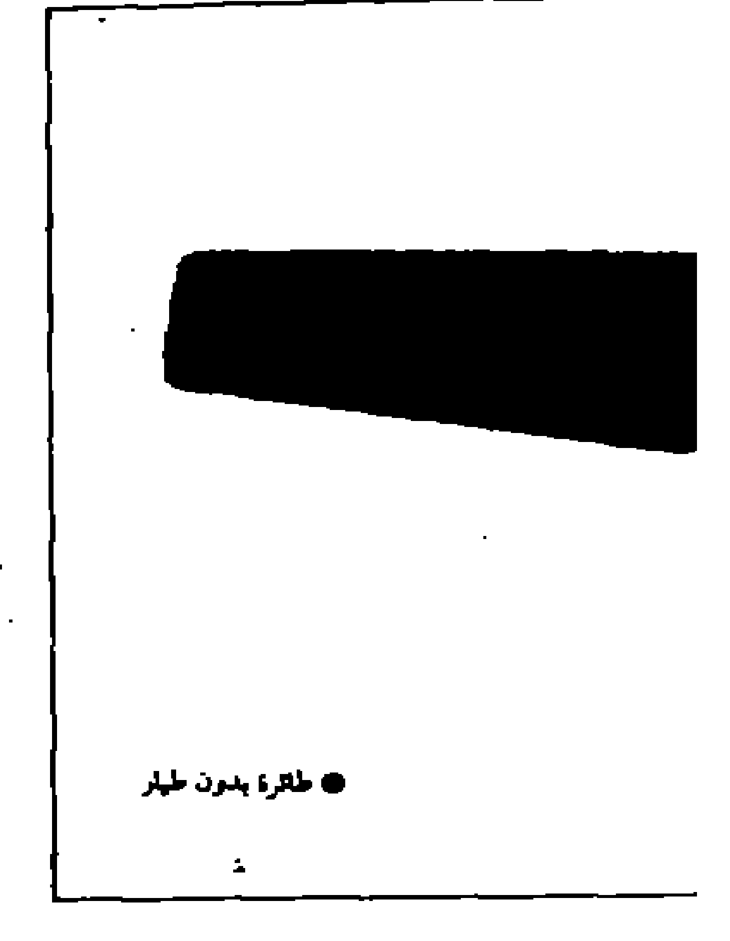
نابليون



طائرة ركاب بدون طيّار .. وبلا وقـــود !!

بقلم : سعد شعبان

تحقق في كندا - في نهاية عام ١٩٨٧ - إنجاز سيكون له ما بعده في عالمي الطيران والفضاء . فقد أمكن تحليق طائرة بلا وقود ولا طيار ، واخذت حركتها من محرك كهربائي على متنها وهذا يعمل بطاقة اشعاعية تصل اليه من الأرض . فتحركت الأحلام لتسيير طائرة ركاب بلا وقود ، وشطحت الأحلام الى حد الاستغناء عن بعض الأقمار الصناعية وتصميم صاروخ فضائي يعمل بهذه الاشعاعات .



● طائرة بدون طيار

ليس العهد ببعيد عندما انقطع تدفق النفط من أوروبا عام ١٩٧٣ إثر المقاطعة العربية عندما اندلعت الحرب بين العرب و «اسرائيل» ، ووقتها ظهرت الطوابير الطويلة أمام محطات البنزين ، وظهر الحصان في أغلب شوارع المدن الأمريكية والأوروبية ، وتصاعد الحديث عن أزمة الطاقة ، ومنذ ذلك الحين بدأ الغرب يفكر جديا في صور الطاقة البديلة للذهب الأسود . وجدّ العلماء في بحوثهم سعيا وراء الاستغلال والبحث عن صورة أرخص لطاقة ظل العلماء يحلمون بها سنوات طوالا ، ولم يجدوا أيسر ولا أرخص من الطاقة الشمسية ، باعتبارها منحة إلهية توجد في الحياة بلا ثمن ، وكان من البحوث الرائدة في هذا المجال ، بحث يهدف الى تسييل غاز الهيدروجين الموجود في الهواء وحرقه ، ليحقق هدفين هما سهولة المصدر باعتباره أحد مكونات الهواء ، وسهولة الاحتراق لكونه غازا جيد الاحتراق ، لكنه يحتاج للأوكسجين كمؤكسد ، وهو أيضا موجود في الهواء . وبوسعها شطحت أحلام علماء الطيران ، لأن مثل هذا المصدر للطاقة لو تحقق لأمكن أن تطير الطائرة بلا توقف . فهي تستمد الهيدروجين من الوسط الذي تطير فيه ، ولكن ذلك يستلزم أن تتغير تصميمات محركات الطائرات ، وقد يتوارى بعضها الى عالم النسيان ، حتى تتلاءم مع الوقود الجديد . ومازالت بحوث العلماء ماضية في هذا السبيل وقد تتحقق يوما ما .

طائرة بلا طيار :

على نفس المضمار ظهرت في أواخر الحرب العالمية الثانية الطائرات الموجهة اليكترونيا التي تطير بلا طيار . شاع استخدامها في الحرب الكورية ثم حرب فيتنام . ومازالت تحقق كثيرا من الأهداف العسكرية دون التضحية بطيار لتشغيلها ، والإقلال من مخاطر تعرض الطائرة للدفاعات الجوية المعادية . وأغلب هذه الاستخدامات وأهمها الاستطلاع العسكري وكشف الأهداف المعادية ، أو بمعنى أدق التجسس لمعرفة مالدى الأعداء أو تبين تحركاتهم .

لذلك تجهز الطائرات التي بلا طيارين بأجهزة التصوير اللازمة لتصوير الأهداف المعادية التي تطير فوقها . فإذا كان الوقت نهارا ، استخدمت آلات التصوير العادية ، وإذا تحول الوقت الى الليل وحل الظلام ، استخدمت آلات تصوير تعمل بالأشعة تحت الحمراء ، أو استخدمت أيضا آلات التصوير التلفازية الأكثر دقة والأكبر مدى .

ولأن الطائرة بلا طيار وليس مفروضا أن تعود الى أراضيها ـ وغالبا لا يتم لها ذلك ـ فإنه يلزم متابعتها وتوجيهها منذ وقت الاقلاع حتى تخترق مجال الأعداء وتقوم بمهامها الاستطلاعية .

ولذلك توضع على متن هذه الطائرات أجهزة اليكترونية تتعامل مع محطات التوجيه الأرضية التي تحقق لها سلامة الطريق المختار بعيدا عن الدفاعات

المقاتلة . كما تحقق التحكم في سرعتها وارتفاعها وتطوير اتجاهها من أجل المناورة في انجاز مهامها . كما تقوم الأجهزة الاليكترونية أيضا بمهمة نقل الصور لاسلكيا الى محطات المتابعة ، لأن عودة الطائرة ليست مضمونة بأفلام التصوير .

بذلك تتحقق سرعة نقل المعلومات في حينها ، وهو أمر لم يكن متاحا عند الاعتماد على الاستطلاع بواسطة الطائرات التي يقودها طيارون . لأن المعلومات كانت تأتي متأخرة بضع ساعات تستنفد في الطيران والعودة وتحميض الأفلام وتكبيرها ، ثم تفسير الصور ونقلها الى حيث يستفاد منها .

لقد تعددت استخدامات الطائرة بلا طيار فأصبح لها - الى جانب الاستطلاع بالتصوير - أدوار جديدة في مجالات الاستطلاع الاليكتروني والتشويش على الرادارات العسكرية ، أو حمل حمولات ناسفة لاسقاطها أو السقوط بها فوق أهداف معادية محددة وصغيرة الحجم .

كما استخدمت هذه الطائرات أيضا لتضليل الصواريخ المعادية ، باسقاطها سطوحا معدنية كأوراق القصدير أو عبوات خفيفة تحمل أليافا معدنية لتنعكس عليها نبضات الرادار فتحدد لها أهدافا وهمية ، أو لتكشف مواقع انطلاق هذه الصواريخ .

الاليكترونيات والميكروويف :

ومع تقدم تقنية الاليكترونيات ، تقدمت صناعة أجهزة توجيه الطائرات بلا طيارين ، وأصبحت أكثر دقة وأبعد مدى . ومع تقدم استخدام الحواسب الالكترونية زودت كثير من الطائرات بأجهزة « الطيار الآلي » سواء الطائرات العسكرية أو المدنية لتستغني عن التعامل مع المحطات الأرضية . فالطيار الآلي يقوم بمهام التحكم في الاقلاع والتوجيه والمناورة والتصوير والتشويش والاسقاط والتحكم في كل شيء حتى لحظة الهبوط .

ومن صور التقدم في تقنية الالكترونيات عامة بعد الحرب العالمية الثانية ، تركيز الأشعة اللاسلكية في حزم ضيقة للتحكم في اتجاهاتها وذلك بزيادة ترددها .

والمعروف أن كل الموجات اللاسلكية هي في طبيعتها موجات كهرو - مغناطيسية تنتقل في الهواء أو في الفضاء بسرعة الضوء التي تساوي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية الواحدة . وكلما زاد تردد الموجات اللاسلكية قصرت أطوالها ونقص مدى انتشارها . وتقاس الترددات بوحدات يطلق عليها اسم « الكيلو هرتز » أي (الألف تردد في الثانية) أو « ميجاهرتز » أي (مليون تردد في الثانية) .

لقد تمثل هذا التقدم الاليكتروني في ابتكار الرادار في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأصبح قادرا على اكتشاف مواقع الطائرات المعادية ، الأمر الذي كان له أثره في وضع نهاية للغارات التي ركزها الألمان فوق الجزيرة البريطانية . بل وفي وضع نهاية للحرب ، لأن تقنية الرادار ظلت سرا لدى المعسكر الغربي حتى وضعت الحرب أوزارها .

ولم يتوقف التقدم في زيادة الترددات على الرادار ، فقد ظهرت الى الوجود محطات الاتصالات المتعددة القنوات التي تطورت فيما بعد وأصبحت محطات « الميكروويف » أي الترددات متناهية القصر .

لقد أصبحت موجات « الميكروويف » قادرة على تحقيق التوجيه الدقيق نظرا لشدة تركيزها ، والانتقال في حزم موازية لسطح الأرض . وتحتاج أشعة « الميكروويف » الى هوائيات معدنية طبقية الشكل لنقلها من نقطة الارسال الى نقطة الاستقبال . ولقد نجحت موجات « الميكروويف » في خلق دنيا جديدة في عالم الاتصالات لأنه يمكن أن تحمل عليها « آلاف المكالمات الهاتفية والإشارات .

وفي حقبة السبعينيات أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية ما يزيد على ٢٠ مليون دولار ، لوضع خطة تستهدف تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كهربية على منصات كبيرة المساحة تعلق في الفضاء وتستهدف البحوث نقل هذه الطاقة بعد ذلك من الفضاء وبثها الى الأرض بأشعة « الميكروويف » ، لكن مازالت هذه البحوث داخل المعامل ، وتلقى

كثيرا من الاعتراض لأنها ستزيد تلوث الغلاف الجوى بالاشعاعات .

المفاجأة الكندية :

في ٤ سبتمبر عام ١٩٨٧ تحقق انجاز جديد في عالم الطيران ستكون له آثاره في المستقبل ، إذ أمكن لستة من الباحثين الكنديين في عالم الطيران اطلاق طائرة صغيرة في تجربة رائدة . ووجه التجديد أنها تطير بلا طيار وأيضا بلا وقود .

ولقد ارتفعت الطائرة في الهواء بدفع مروحة هوائية . واستطاعت أن تحلق على ارتفاع مئات قليلة من الأمتار فوق الغابات الكندية بسرعة بلغت ٣٥ كيلو مترا في الساعة .

ومن الناحية النظرية فإنه كان بوسع هذه الطائرة أن تظل في الجو لعدة أيام أو اسابيع أو حتى شهور ، لو أراد لها الباحثون ذلك . لأنها لم تكن تحمل وقودا على الاطلاق ، ولكن تأتيها الطاقة من شعاع « ميكروويف » يرسل من الأرض .



● الجناح الطائر

لقد كانت الطائرة نموذجا صغيرا ، طول جناحها لا يزيد عن خمسة أمتار .

وقد قام الباحث الكندى « جو شلوزاك » وزملاؤه في مركز أبحاث الاتصالات الكندي بتصميم هذا النموذج الذي يمكن اعتباره « طائرة بلا طيار » لكى يقوم بدور قمر صناعى للاتصالات . أي لكى ينقل الاذاعات المسموعة والمرئية التلفازية الى مناطق نائية لتوفير النفقات الباهظة للأقمار الصناعية .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو ، كيف أمكن أن يطير هذا النموذج بدون محرك للاحتراق ؟ .
والحقيقة أن عملية توجيهه والتحكم في اتجاهاته تمت بامداده بطاقة اشعاعية بواسطة موجات « ميكروويف » وجهت اليه من الأرض في اتجاه رأسي الى أعلى ، حيث استقبلتها هوائيات معدنية مسطحة الشكل ثبتت أسفل هيكل الطائرة وتحت أجنحتها . وقد قامت هذه الهوائيات بنقل هذه الطاقة لتتحول داخل النموذج الى تيار كهربى يعمل على تغذية المحرك الكهربى الذى يمد المروحة بالحركة الميكانيكية اللازمة لادارتها .

وفي المستقبل القريب سوف يطور الباحثون النموذج المصغر للطائرة التي حلقت في سبتمبر ١٩٨٧ ، الى نموذج كبير طوله ٣٥ مترا . وسيظل هذا النموذج المطور يطير في الهواء لعدة شهور ، معلقا فوق حقل من الهوائيات قطره عشرات الأمتار . ويقدر أنه سيستطيع أن يصعد حتى ارتفاع ١٩ كيلو مترا . وعندئذ سيكون في وسع هذه الطائرة نقل اذاعات المذياع والتلفاز وبثها فوق مساحة واسعة تعادل ولاية أمريكية كاملة . ويمكن أن يبقى هذا النموذج الذى لا يقل في حجمه عن طائرة عادية الى أجل غير مسمى .

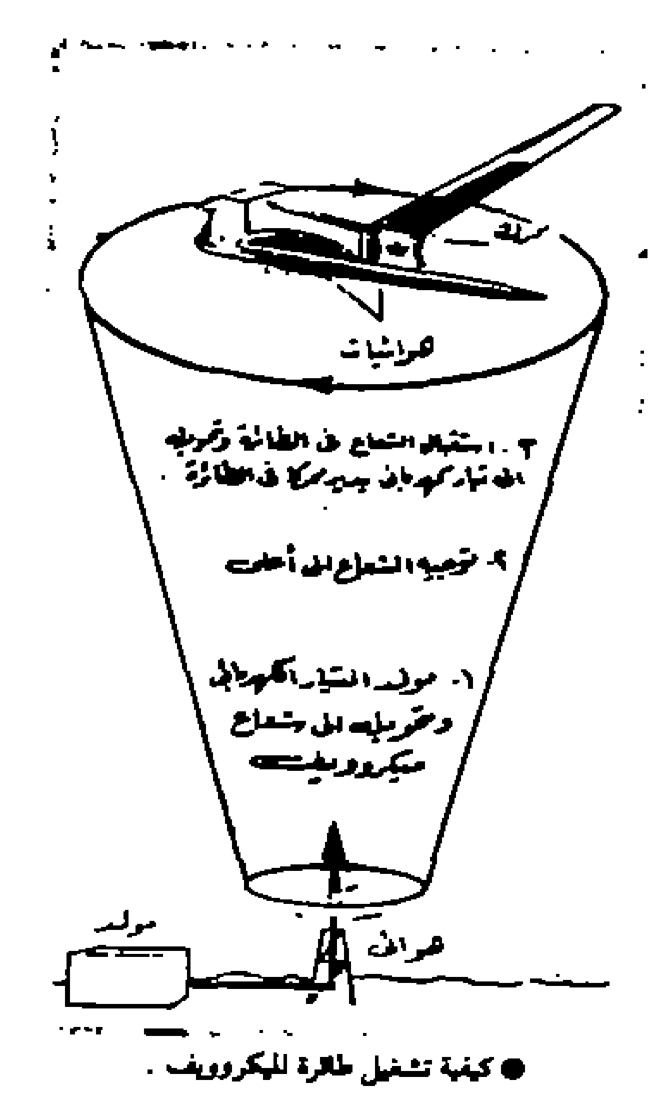
وكالة ناسا تلتقط الخيط :

عقب هذه التجربة الكندية الرائدة ، شرع المصممون في وكالة الفضاء الأمريكية « ناسا » وفي

عدد كبير من الجامعات الأمريكية ، في صنع طائرات بدون طيارين ، لكي تعمل « بالميكروويف » . والهدف الذي يخططون له هو أن تتمكن هذه الطائرة من أداء مهام علمية في أعالي الغلاف الجوي ومشارف الفضاء الخارجي . وربما تمتد المهام الى الاعمال العسكرية كمثل المراقبة والتصوير ، على غرار ما تقوم به الأقمار الصناعية التي تعمل في المدارات المنخفضة لأغراض التجسس . ولاشك أن مثل هذا الإنجاز سيكون أقل تكلفة من اطلاق قمر صناعي للقيام بنفس المهام ، لأن اطلاق القمر يحتاج لصاروخ دفع وتجهيز قاعدة اطلاق ، ومحطات توجيه .

وقد أدرك الباحثون الأمريكيون أن طائرة « الميكروويف » يمكن أن تقوم بمهام لا تستطيعها الطائرة العادية ، مثل عمليات الاستطلاع من ارتفاعات عالية ، ووقتئذ يمكن أن تزود طائرة « الميكروويف » بكاميرات للتصوير المتنوع . ويمكن أن تمتد أغراض هذا الاستطلاع وتمتد الى غير الأغراض العسكرية مثل كشف المهربين ، ومراقبة زوارق الصيد على السواحل ، ومراقبة الأحوال الزراعية وتحديد أماكن الحرائق في الغابات ، وأحوال الطقس المحلية .

لقد تعاقدت وزارة الطاقة الأمريكية مع إحدى الشركات لتصميم طائرة « ميكروويف » تستطيع التحليق على ارتفاع ٢٢ كيلو مترا لدراسة تجميع غاز ثاني أوكسيد الكربون ، وظاهرة جديدة تعرف في الأوساط العلمية باسم « تأثير المحميات الزراعية » التي تطلق عليها اسم (الصوبة) وذلك لاستكمال دراسة وتأثير هذه المحميات على الغلاف الجوي ، وزيادة غاز ثاني اوكسيد الكربون فيه ، وتأثير ذلك على التغييرات التي تطرأ على طقس الارض . وقد اقترح مهندسو التصميم صنع طائرة ميكروويف يبلغ طول جناحيها ٤٥ مترا ، ويمكنها حمل ٧٥٠ كيلو جراما من الاجهزة ، ليكون بوسعها البقاء في الفضاء إلى أجل غير مسمى وإذا تعطلت الطاقة الصادرة إليها من حقل الهوائيات فيمكن أن يقوم مولد ديزل بالعمل بدلا منها .



● كيفية تشغيل طائرة الميكروويف .

آمال المستقبل :

بعد نجاح تجربة طائرة « الميكروويف » ، تطلع عيال العلماء الى تطوير هذا النجاح والقفز الى انجازات أكثر تقدما . وعلى سبيل المثال :

● إن وجود طائرة « الميكروويف » يعني أنه في المستقبل القريب ، سيمكن لأي دولة من دول العالم الثالث تتوافر لديها طاقة كهربية رخيصة أن تحصل على مايعادل قمرا صناعيا للاتصالات .

● يتصور البعض إمكان استخدام « الميكروويف » في المستقبل في أغراض متطورة أكثر طموحا من امداد طائرة بالطاقة ، كاطلاق « سفينة فضاء » أو « شاحنة فضائية » الى مدارات منخفضة . ويشجع على ذلك

ما وصلت اليه تقنية المواد من تقدم في تخليق مواد خفيفة الوزن ، وما تحقق من نجاح فعلي في صناعة طائرة استطاعت خلال عام ١٩٨٦ الدوران حول الكرة الأرضية في قفزة واحدة دون حاجة الى التزود بالوقود .

● ونفس هذا النجاح يعني أنه من الممكن مستقبلا أن تحلق في السماء طائرة « ميكروويف » ذات حجم عادي ، وتظل في الهواء معلقة لمدة عشر سنوات لتقوم بأي مهام علمية أو عسكرية .

● ومن الناحية النظرية فإنه يمكن لطائرة « الميكروويف » أن تحمل ركابا ، ولكن سيتعين آنذاك متابعة مسار الطائرة لامدادها بطاقة « الميكروويف » بالتتابع كل مائتي كيلومتر تقريبا ، من محطات أرضية . لأن ذلك سيكون بلاشك أرخص من استخدام الطائرات الحالية التي تلتهم كميات خيالية من البنزين .

● يقترح بعض الباحثين تصميم « صاروخ فضائي » يعمل « بالميكروويف » ، يمكن استخدامه في رفع الأقمار الصناعية من مدار منخفض الى مدار أعلى ، حيث يمكن لهذه الأقمار أن تعمل في أغراض البث المباشر . لكن ذلك سيتطلب لأجهزة إرسال لأشعة « الميكروويف » تكون بالغة القوة . وهو ما يتصور بعض العلماء أنه سيكون على تطوير أثناء برنامج « حرب النجوم » الأمريكي .

حفنة من المصاعب :

شأن كل اكتشاف جديد ، يكون هناك جانب براق هو الإنجاز الذي يحققه ، لكن يقف أمامه عدد من المصاعب ، أو قد تكون له آثار ضارة .

وبالنسبة لطائرة « الميكروويف » توجد مخاطر بيئية وصحية عديدة يلزم الإشارة اليها .

فكل لون من ألوان الإشعاعات له مخاطر على صحة الإنسان التي تزيد من احتمالات الإصابة بالسرطان . ولاشك أن نشر عدد من محطات « الميكروويف » التي ترسل طاقاتها في الهواء ، ستكون بمثابة مصدر جديد من مصادر تلوث البيئة بالاشعاعات . وعلماء البيئة يشعرون بكثير من القلق إزاء مصير الذين سيعيشون بالقرب من حقول هوائيات « الميكروويف » ، وخاصة أن بعض الافتراضات تصور أن مساحة حقل الهوائيات اللازم ستكون في مساحة ملعب لكرة القدم . فكيف سيمكن لجيران هذا الحقل العيش الى جواره دون مخاطر ؟ .

ولكن المتحمسين للمشروع يقولون بأنه من الممكن اقامة مثل هذه الحقول في أماكن نائية بعيدة عن التجمعات السكانية .

وعلى الرغم من أن المواد الخفيفة الوزن قد أصبحت حقيقة واقعة ، فإن هناك مصاعب أيضا في تصنيعها ، واستخدامها في طائرات « الميكروويف » ، أو صواريخ « الميكروويف » ، لأنها ستستغرق وقتا طويلا حتى تصعد الى مدارات عالية . إلا أن انخفاض تكاليفها الى درجة كبيرة تعادل ١ الى ٢٠ من الثمن ، أمر يغري بالتفكير ، ومحاولة تذليل المصاعب . □



× يقولون إنها دينامو بشري . . تشحن كل شيء بكهربائها .
× الزمن حائك ثياب تخصص في اجراء التعديلات .
× شيئان تجدهما في الحياة بوفرة ، النصيحة الجيدة ، والمثل السيء .
× الأفكار كالبراغيث ، تقفز من إنسان لآخر ، ولكنها لا تلسع كل إنسان .



بقلم : محمود المراغي

"السقا" مشكلة سياسية !

من يصدق انه ما زال في مدن عالمنا الثالث من يتعذر عليه الحصول على مياه الشرب فيلجأ "للسقا" ويدفع اضعاف ما يدفعه من يتمتع بالمياه الصالحة للشرب، المنقولة عبر الانابيب؟

من يصدق ان نسبة هؤلاء - ووفقا لاحصاءات البنك الدولي - تصل الى ٢٣٪ من سكان الحضر في الدول النامية، وان النسبة ترتفع الى ٣٥٪ في افريقيا "جنوب الصحراء"؟

الظاهرة رصدتها المنظمات العالمية، وقالت انه نتيجة لذلك يدفع المواطن في نيجيريا للسقايين عشرة اضعاف ما يدفعه الاخرون الذين تصلهم المياه الى منازلهم، وترتفع النسبة الى ١٥ ضعفا في بيرو، وستين ضعفا في اندونيسيا، وتصل كحد اقصى - الى مائة ضعف في هاييتي!

الظاهرة مقلقة، ونحن على ابواب القرن الواحد والعشرين.. ومع ذلك فهي جزء من ظاهرة اوسع اسمها: مشكلة المرافق والخدمات في الدول النامية.

بعد الاستقلال

معظم هذه الدول التي نطلق عليها اسم "الدول النامية" تدخل ضمن الدول حديثة الاستقلال.. ولهذه الدول سماتها.

.. فهي في العادة فقيرة في الامكانيات اللازمة للبناء.

وفقيرة في المرافق التي تمثل ما نسميه "بنية اساسية"، كالماء والكهرباء والطرق والصرف الصحي.

.. وفي نفس الوقت.. فهي غنية بالتطلعات، حتى اطلق علماء الادارة والتنمية كلمة "ثورة التطلعات او ثورة التوقعات" تعبيرا عن المناخ السائد في الدول حديثة الاستقلال والتي تعتقد شعوبها انه بالتخلص من الاستعمار والسيطرة على الثروة الوطنية، لا بد ان يتحسن مستوى المعيشة ويجني الفرد ثمار الاستقلال.

في مثل هذه الاحوال يكون الاندفاع لبناء المرافق الاساسية واردا.. ويكون الضغط الجماهيري شديدا لانجاز المزيد من الخدمات، والتي يجري تقديمها في العادة بتمويل حكومي، وباقل من التكلفة.

نتائج متباينة

تختلف نتائج هذه السياسة من بلد الى اخر وفق ظروفه الاقتصادية، وتعداد سكانه، وحالة المرافق والخدمات.. ولكن وفي معظم الاحوال تمضي السنوات والصورة على هذا النحو :

.. المرافق والخدمات دون حد الاشباع.

.. القروض الخارجية يجري توجيهها للمرافق الداخلية غير المنتجة ماليا، فتتزايد القروض وتتزايد الأعباء، خصما من الدخل الجاري، المنخفض في العادة.

.. الانفاق لا يقابله انتاج سلعي، او انتاج خدمات للبيع بالسعر الاقتصادي فتكون

النتيجة: المزيد من التضخم وارتفاع الاسعار.

.. تتم المرافق في كثير من الحالات اعتمادا على الخبرة والاموال الاجنبية، فتاتي تكلفتها اضعاف التكلفة الحقيقية.

ولكن.. كيف تواجه الدول ذلك، وهي لا تستطيع الغاء التزامها تجاه مواطنيها؟

- في العديد من الحالات.. كان الحل ماليا، وفرديا، وفوضويا .

تتعقد مشكلة النقل في المدن الكبرى، فينسحب القطاع العام تدريجيا ويترك الفرصة للقطاع الخاص فتتدفق السيارات، وتضيق بها الطرق، فيتدخل اصحاب سلطة التشريع بفرض رسوم مرور تحد من حركة المرور، او تزيد من موارد الدولة. النموذج الأول - الحد من حركة المرور - جرى تطبيقه في سنغافورة حيث تقرر فرض رسوم على السيارات التي لا تحمل ركابا باعداد كبيرة وتدخل المناطق المزدحمة.. اما النموذج الثاني - وهو فرض رسوم لزيادة الموارد ومواجهة نفقات المرافق، فقد تم اخيرا - وعلى سبيل المثال - في مصر حيث يتزايد عدد الطرق «الاوتو ستراد» التي يجري المرور عليها نظير رسم محدود يدفعه المسافر في اول الطريق .

نفس المنطق - وبنصيحة من البنك الدولي او صندوق النقد الدولي - يجري تطبيقه في الماء والكهرباء والصرف الصحي.. حيث يجري تحريك اسعار استهلاك الماء والكهرباء وتقليل الدعم الموجه لها املا في زيادة الموارد وانقاص الاستهلاك.. حتى الصرف الصحي يجري استنباط اشكال لفرض رسوم عليه.. وحتى مياه الري تجري الدعوة لبيعها للفلاحين! .

القاهرة مثقلة.. فمشكلة المرافق لم تحل، وميزانيات الحكومات لم تنصلح، واعباء المواطنين تتزايد .

نموذج القاهرة

القاهرة نموذج واضح لذلك.. فقد نمت عشوائيا.. امتدت جغرافيا.. تزايد سكانها بشكل غير مخطط. بلغ عددهم في القاهرة الكبرى والتي تضم محافظة القاهرة واجزاء من الجيزة والقليوبية «١٢» مليون نسمة، يتحرك في دروب المدينة اكثر من نصفهم كل يوم. في مجال واحد هو مجال الحركة والنقل نرصد الآتي كنموذج لما نقول:

.. نصف مليون سيارة خاصة تتحرك .

.. «٣٠» الف اوتوبيس بري ونهري وعربة ترام ومترو.. تنقل كل يوم «٢٠» مليون راكب .

.. «١٥٠٠٠» الف سيارة اجرة و«١٥٠» الفاً مما يسمى سيارة «سرفيس».

و.. في مهنة واحدة هي مهنة بائع متجول يتحرك في القاهرة «٣٠٠» الف بائع .

النتيجة: اختناق في الطرق والمواصلات - وقت ضائع في الانتقال وقضاء الحاجات - آلاف الساعات وآلاف الملايين تضيع كل سنة.. ومستوى منخفض من الخدمة .

المشكلة.. والحل

هل من حل لهذه الظاهرة التي تسود العالم الثالث؟ .

في التحليل نقول.. ان الظاهرة اتسعت نتيجة النمو غير المخطط وغير المتوازن.. حدث الاستقلال فاندفع الجميع للاصلاح.. لكن كان اصلاحا احادي الجانب.. وبينما نمت الخدمات وزادت المرافق لم ينم قطاع الانتاج بنفس الدرجة، ولم تمتد يد المخطط لغير توزيع السكان وتحدث نوعا من التحكم في الحركة والانتشار.. وبينما تولت الحكومات الانفاق على هذه المشروعات.. فقد تخلت في كثير من الحالات عن وظيفتها الاساسية: التخطيط والتوجيه والتحكم في المتغيرات الاساسية للمجتمع.. لقد قامت الحكومات باعباء الحكومات الاشتراكية وسلكت مسلك الحكومات الرأسمالية.. والحل - لدول محدودة الموارد - هو التخطيط. والتخطيط. والتخطيط وحينذاك سيختفي «السقاء» وتختفي معه الكثير من الاشياء التي تدخل باب «لزوم ما لا يلزم» . □



بقلم: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

من المعلومات المتواترة في كتب التاريخ ، أن المرأة الغربية في العصور الوسطى لم تلق قدراً كافياً من الاحترام والتقدير ، وأنها كثيراً ما كانت تتعرض للأذى والضرب والامتهان ، مما جعل الكنيسة تتدخل أكثر من مرة للتخفيف عنها . كيف كان موقف الكنيسة ؟ وماذا فعلت ؟

ربما كان من أطرف الاجراءات التي اتخذتها الكنيسة لرفع الظلم عن المرأة في تلك العصور ، ذلك المرسوم الذي صدر عن البابوية في القرن الثالث عشر ، والذي يحدد فيه حجم العصا التي يجوز استخدامها في ضرب المرأة ، فإذا كانت العصا مستوفية لشروط معينة من ناحيتي الطول والسمك ، فإن الضرب يكون جائزا مشروعا .

المرأة في ظل الاقطاع

علينا أن ندرك أن هذا الوضع السيّء الذي كانت عليه المرأة الأوربية في العصور الوسطى لم يشمل كل نساء المجتمع ، وإنما هناك فئات من النساء تمتعن بقدر كبير من حرية العمل والحركة ، ومارسن في الحياة العامة دوراً نشطاً ، ربما فاق دور الرجال . ذلك أن للمجتمع الأوربي



الغربي في تلك العصور كان مجتمعا طبقيا تفاوتت فيه أقدار البشر وحقوقهم ، وفق الطبقة التي ينتمون إليها . وازداد هذا الطابع الطبقي وضوحا في حقبة ازدهار النظام الاقطاعي ، بين القرنين التاسع والثالث عشر للميلاد ، ففي ظل هذا النظام حرمت المرأة في طبقة الرقيق والأقنان من معظم الحقوق التي تكفل لها حياة بشرية كريمة ، في حين نعمت نساء النبلاء والفرسان بكل مظاهر الاحترام والتبجيل ، وتتمتع بامتيازات واسعة على الصعيدين السياسي والاجتماعي . وبقدر ما كان الفارس يمتهن زوجة القن أو ابنته ، بقدر ما كان ينحني أمام المرأة التي تنتمي إلى طبقته ، ويقبل يدها ، حتى قيل إن الفارس نصير الله والمرأة .

وفي ظل هذه التقاليد خرج الصليبيون من غرب أوربا في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، على هيئة حملات متتابعة ، قاصدين للشرق الاسلامي ، حيث نجحوا في تأسيس ثلاث إمارات كبرى في الرها وانطاكية وطرابلس ، ومملكة قوية في بيت المقدس ، عدا الكثير من الموانىء والحصون التي استولوا عليها . وكان للصليبيين في مستوطناتهم بالشرق نشاط واسع متعدد الأوجه ، أسهمت فيه المرأة بدور فعّال يتفق ومركزها الاجتماعي من جهة ، والأوضاع والتقاليد المتوارثة التي عاشت في ظلها في الغرب الأوربي من جهة أخرى .

قلة في النساء

هنا لا بد لنا من ملاحظة ، أن المجتمع الصليبي في الشرق ظل دائما يعاني من نقص في أعداد النساء الوافدات من غرب أوربا ، لأن الصليبي كثيرا ما كان يترك زوجته وأسرته في الغرب لرعاية مصالحه في غيابه ، أو تخوفا من مستقبل مبهم غير آمن . وهذا هو السر في أن نسبة لا يستهان بها من الصليبيين الذين استقروا

في الشرق ، فقد تزوجوا مسيحيات شرقيات من طوائف الأرمن والسريان والروم الارثوذكس وغيرهم . هذا في حين لجأ دعاة الحروب الصليبية والمنظمون لها إلى جلب أعداد من النساء من غرب أوربا وجزر البحر المتوسط إلى بلاد الشام ، لسد حاجة المجتمع الصليبي في الشرق ، ومحاربة الأمراض الاجتماعية التي فشت في ذلك المجتمع . وقد استرعت هذه الحقيقة أنظار المسلمين المعاصرين ، فذكر العماد الأصفهاني أنه حدث سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) أن « وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة ، متحلية بشبابها وحسنها متزينة . وقد اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجرائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وتأهبن لإسعاد الأشقياء . . . ورأين لا يمتنعن من العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان . . . وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيما اجتمعت فيه غربة وعزبة . »

ومن هؤلاء النساء الوافدات من غرب أوربا من أسهمن في محاربة المسلمين دفاعا عن الكيان الصليبي الذي ظل أشبه بجزر متناثرة وسط محيط اسلامي واسع كبير . واسترعت هذه الحقيقة انتباه المؤرخين المسلمين المعاصرين أيضا ، فأشار أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار إلى تلك المرأة الافرنجية التي هاجمت أسيرا مسلما ، وجرحته جرحا عميقا في وجهه لتثأر لزوجها القتيل .

شهادات المؤرخين

يقول العماد الأصفهاني الذي ربطته بصلاح الدين صلة المودة عن نساء الصليبيين : « وفي الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وقوانس . وكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال ، وكل هذا يعتقدنه عبادة ، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه لهن عادة » . وفي حوادث سنة ٥٨٤ هـ ذكر ابن الأثير أنه شاهد بنفسه استيلاء صلاح الدين على قلعة برزية « ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة امرأة (فرنجية) ترمي من القلعة عن المنجنيق ، وهي التي بطلت منجنيق المسلمين . فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به ، عزم على الزحف » .

أما في ميدان النشاط السياسي ، فإن المرأة الصليبية مارست دوراً مهما ، هو في الحقيقة دور متوارث ألفه المجتمع الأوربي في الغرب . فمن أركان النظام الاقطاعي في غرب أوربا أن الاقطاع كان يورث للابن الأكبر أو للابنة الكبرى . كل ما في الأمر هو أنه كان يشترط في وريثة الإقطاع أن تكون تحت وصاية رجل ـ الزوج أو السيد الاقطاعي ـ حتى يتسنى لها النهوض بالوظيفة الأساسية للمقطع ، وهي الحرب . وهكذا كان للمرأة شخصيتها



● قال العماد الأصفهاني : (كان بين الفرنج نساء فوارس .. لهن دروع وخوذات .. وكن في زي الرجال .. ويبرزن في حومة القتال ..) .

الاعتبارية التي أثارت طموحها في مجال السيطرة والسيادة ، وهي الصفات التي حملتها معها للمرأة الغربية إلى الشرق زمن الحروب الصليبية .

نساء طلبن العون من المسلمين

لم تكتف المرأة الصليبية في الشرق بالسعي وراء تحقيق الزعامة لنفسها ، وإنما كانت تتصل بالقوى الاسلامية المجاورة أحيانا لطلب المساعدة ضد منافسيها السياسيين من الصليبيين .

من ذلك أنه حدث في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد أن تزوج بوهيموند الثاني صاحب إمارة انطاكية الصليبية من الأميرة اليس ابنة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وأنجبت له طفلة صغيرة هي الأميرة كونستانس . فلما قتل بوهيموند الثاني أرادت الأم - الأميرة اليس - أن تستأثر بحكم الإمارة ، وتحرم ابنتها صاحبة الحق الشرعي في الحكم . ولتحقيق غرضها ، لم تحجم الأميرة اليس عن التآمر ضد الصالح الصليبي العام ، فاتصلت بعماد الدين زنكي صاحب حلب ، وأرسلت إليه رسالة سرية تطلب مساعدته للوصول إلى حكم أنطاكية مقابل تعهدها بالتبعية له ، ومع الرسالة هدية وفرس مطهّم .

وفي أواسط ذلك القرن - الثاني عشر للميلاد - توفي ملك بيت المقدس ، تاركا ولي عهده القاصر - بلدوين الثالث - تحت وصاية أمه ميلزاند . وكان أن استبدت ميلزاند بالأمور في المملكة حتى تسببت سياستها في إثارة العديد من المشاكل ، وإنزال أبلغ الضرر بالصليبيين حينذاك . وعندما بلغ ابنها سن الرشد رفضت الأم أن تتخلى عن شئون الحكم ، حتى أجبرت سنة ١١٥٢ على الموافقة على تتويج ابنها تحت تأثير الرأي العام . ومع ذلك فقد عز على ميلزاند أن تتخلى عن سلطانها ، فاتفقت مع بطرق بيت المقدس على أن يعاد تتويجها هي الأخرى مع ولدها ، ووضعت مشروعا لتقسيم المملكة الصليبية بينها وبينه !!

وفي المرحلة الحرجة التي كان يمر بها الكيان

الصليبي بالشام عندما أخذ صلاح الدين يتأهب لإنزال ضربته الكبرى بالصليبيين في حطين ، قامت سيبل زوجة بوهيموند الثالث أمير انطاكية بارتكاب خيانة كبرى ضد القضية الصليبية ، تحقيقا لطموحاتها ومصالحها الخاصة . ذلك أنها دأبت عندئذ على اجراء اتصالات سرية مع صلاح الدين ، أطلعته فيها على خطط الصليبيين وتحركاتهم . ويذكر المؤرخ أبو شامة - صاحب كتاب الروضتين « وكانت امرأة إبرنس انطاكية - وتعرف بدام (مدام) سيبل في موالاة السلطان (صلاح الدين) ، عينا له على العدو ، وتهاديه وتناصحه ، وتطلعه على أسرارهم ، والسلطان يكرمها للملك ، ويهدي إليها أنفس الهدايا » .

وأخيرا نكتفي بالاشارة إلى مرجريت زوجة لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الملقب بالقديس . ذلك أن مرجريت لم تشأ أن تترك زوجها القديس لويس يخرج وحده على رأس حملته الصليبية الشهيرة على مصر في منتصف القرن الثالث عشر ، وإنما حملت هي الأخرى شارة الصليب ورافقته . ويذكر جوانفيل - مؤرخ هذه الحملة - أن مرجريت كانت طوال إقامة زوجها في المشرق تقوم بدور المستشار الأول له ، وصاحبة الرأي المسموع في الأمور كلها ، حتى لو كان رأيها مخالفا لآراء مستشاريه .

ميلاد حنا الحزين

ومن المعروف أن الصليبيين في هذه الحملة استولوا على دمياط سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) لكنهم ظلوا ساكنين فيها قرابة خمسة أشهر قبل الشروع في الزحف جنوبا تجاه المنصورة . وطوال هذه الأشهر ظلت مرجريت توجه سياسة الملك ، حتى إذا ما زحف الملك على رأس جيشه إلى داخلية البلاد ، بقيت مرجريت في دمياط تقوم بدور حلقة الوصل بين الصليبيين في الداخل ، والعالم الخارجي . وفي أرض دمياط وضعت مرجريت وليدها الذي أسمته حنا بالحزين لأنه ولد بعد وقوع أبيه في الأسر بثلاثة أيام .

وعندما تم الصلح مع المسلمين في مصر سنة ١٢٥٠ م ، وأفرج عن لويس التاسع من محبسه بالمنصورة ، غادر دمياط إلى بلاد الشام ، حيث عزم على تجميع قواته ، والعودة مباشرة إلى فرنسا التي كانت أمه الملكة بلانش تدير شؤونها في غيابه . ولكن مرجريت أشارت على زوجها الملك لويس بالبقاء في الشام حتى ينجز عملا يعيد إليه ماء وجهه بعد هزيمته وأسره في مصر . وكان أن أقام الملك لويس بالشام نحوا من أربع سنوات (١٢٥٠ - ١٢٥٤) محاولا دعم المجتمع الصليبي . وفي هذه الفترة ، وضعت مرجريت ابنا آخر أسمته بطرس وهو الابن الثاني الذي أنجبته في الشرق ، مما يوضح أن قسوة الظروف التي مر بها لويس التاسع لم تصرفه عن حياته العائلية ، وأن هموم الملك القديس ومتاعبه لم تنس زوجته مرجريت نصيبها من الدنيا .

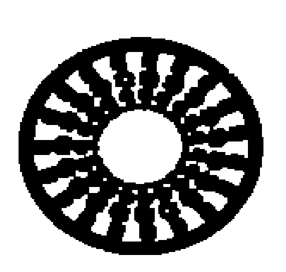
هذه الأمثلة قليل من كثير ، وهي توضح أن المرأة الصليبية الغربية ، كان لها دور على مسرح الحروب الصليبية في المشرق ، أكبر مما يتصوره كثيرون . □

شهد أعرابي مأدبة أقيمت عند الحجاج . فلما قُدِّمت الحلوى - ترك الحجاج الأعرابي حتى أكل منها لقمة ثم قال : من أكل من هذا ضربت عنقه .

فامتنع الحاضرون كلهم عن الأكل . وبقي الأعرابي ينظر الى الحجاج مرة - والى الحلوى مرة أخرى ثم قال : « أيها الأمير .. أوصيك بأولادي خيرا » واندفع يأكل .

يصدر في

١٥ اكتوبر ١٩٨٩م



كتاب العربي

الكتاب الخامس والعشرون

تاريخنا.. وبقايا صور

بقلم الدكتور شاكر مصطفى

كتاب العربي مرآة العقل العربي



تشريح الإنسان بعد الموت بين العلم والدين

بقلم : الدكتور سامي محمود علي

في معظم العقائد القديمة والأديان ، يكتسب جسم الإنسان بعد الموت مكانة تصل إلى مرتبة القداسة - أحيانا - ، لكن الضرورات العلمية التي تتوخى مصلحة الإنسان عامة قد تفرض تشريحه ، وهنا يحدث تناقض بين الرؤيتين العلمية والدينية . فأيهما يستحق الترجيح ؟

من القضايا التي تطرح دائما والتي تثار حولها تساؤلات ، قضية تشريح جسم الإنسان بعد موته . والحقيقة أن هذه التساؤلات تدور في معظمها حول تحريم أو عدم تحريم هذا التشريح ، وهي في هذا تتفق مع قضية أخرى تتصل بها ، وهي قضية نقل الأعضاء والتبرع بها بغرض زرعها في الأجسام المريضة . لكننا نرى أن تشريح جسم الإنسان - في بعض الأحوال - يتجاوز فائدته التعليمية أو القانونية إلى كونه مقياسا حقيقيا لمعرفة تأثير بعض الأدوية على أعضاء الجسم وأنسجته ، بل يمكن أن نعده تخطيطا للصحة العامة بكل ملامحها .

لقد كان الإنسان - ولا يزال - معنيا بنفسه مهتما بجسمه منذ فجر التاريخ . وكانت الدعوة المستمرة لمعرفة خصائص الجسم الإنساني وتفاصيله تتناقل عبر الأجيال كوسيلة لقهر المرض واكتساب الصحة ، لكن الإنسان اتخذ صورة الكائن المقدس الذي لا يجب العبث به بعد موته .

وعندما أراد المصريون القدماء تخليد موتاهم ، قاموا بتحنيط أجسامهم ، ولا شك أنهم اكتسبوا بعض المعلومات عن جسم الإنسان أثناء التحنيط ، لكن عملية التحنيط نفسها لم تكن أكثر من وسيلة لحفظ الجسم ، لذلك فإن الأعضاء والأحشاء كانت تنزع بدون عناية أو دراسة .



وعندما حل القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت أفكار قيمة تتعلق بدراسة جسم الإنسان ، وقد اضطلع أبو قراط وغيره من أطباء اليونان القدامى بهذه الأفكار ، وكان الجسم في رأيهم عبارة عن مجموعة من الأجزاء المترابطة ، وأن المرض هو سوء أداء لوظيفة أحد هذه الأجزاء . حقا لقد كانت أفكارا عظيمة انتزعت الطب من مجاهل الخرافات وأعادت إليه صورته التي تعتمد على الدراسة والتجريب . وكان من نتيجة هذه الأفكار أن ظهر « جالينوس » في القرن الثاني الميلادي . كان « جالينوس » طبيبا اغريقيا مارس الطب في روما ، وبرز اهتمامه على وجه الخصوص بعلم التشريح . فقد ظهرت مؤلفاته التي تضم وصفا لعظام الإنسان وأحشاء الحيوان ، وكانت مؤلفاته عن التشريح بمثابة الكتاب المقدس لكل المشتغلين بالطب خلال الخمسة عشر قرنا التالية .

دور فاسليوس

وهكذا ظل علم التشريح يتأرجح بين الخرافة القائمة على معتقدات قديمة وبين مؤلفات « جالينوس » التي تعتمد أساسا على التشابه في تشريح الحيوان . ولم يتحول علم التشريح إلى دراسة حقيقية لجسم الإنسان قائمة على الفحص الفعلي للأنسجة والأعضاء إلا في عام ١٥٤٣ م عندما ظهر كتاب « نسيج جسم الإنسان » لمؤلفه البلجيكي « اندريا فاسليوس » . كان « فاسليوس » قد درس في جامعة « بادو » مبادىء علم التشريح ، إلا أنه اعتمد على ملاحظته الدقيقة ويده المدربة في فحص الأعضاء المختلفة والأنسجة والأربطة التي يحتويها جسم الإنسان . واستعان « فاسليوس » بواحد من الرسامين الكبار هو « ستيفن كالكار » الذي استطاع أن ينقل أفكار وملاحظات « فاسليوس » إلى صور في الكتاب الشيق « نسيج جسم الإنسان » .

كان هذا مدخلا تاريخيا مبسطا عن المراحل التي مر بها علم التشريح . فماذا عن القيمة الحقيقية لهذا العلم كما تظهرها أهميته في مجالات التعليم والطب والقانون ؟

الموتى يعلمون الأحياء .. !

ليس الموت وحده هو الذي يعطينا العبرة والعظة ، بل إن الموتى - أنفسهم - يقدمون للأحياء ما غاب عنهم ولم يفهموه ، إنه عطاء لم ينقطع ، بل تواصل حتى بعد الرحيل . ولعلنا من خلال هذا المفهوم ندرك أن تشريح الموتى بعد الوفاة في بعض الأحيان يمكن أن يقدم لنا أكثر من مجرد فائدة تعليمية أو كشف للكيفية التي حدثت بها الوفاة بما يحقق فائدة لرجال القانون .

إذن فالعلم لديه مبرراته ، وهي دون شك مبررات قوية تخدم الإنسان نفسه ، لكننا بداية نحب أن نلقي نظرة مبسطة على عملية التشريح نفسها . فالبعض يظن أن تشريح الإنسان بعد موته ليس أكثر من عملية شق أو فتح الجسم لفحصه وفحص أعضائه ، لكن الحقيقة أن التشريح يشمل ثلاث عمليات يكمل كل منها الآخر . فهناك أولا الفحص الدقيق لظاهر البدن من الخارج ، ثم تأتي الخطوة الثانية بفحص الأعضاء الكبيرة بعد فتح الجسم فتحة طولية تبدأ من أعلى - في المنتصف تقريبا - كل كتف ليلتقي الخطان عند أسفل عظمة القص في منتصف الصدر ، ويستمر الشق حتى منطقة العانة أسفل الجسم ، ليبدو الفتح في النهاية على شكل حرف "Y" باللغة الانجليزية . وفي هذه الخطوة تفحص أعضاء الجسم مثل الكبد والكلى والمعدة والأمعاء والقلب والرئتين . وأخيرا تأتي الخطوة الثالثة وفيها تفحص عينات من الأنسجة المختلفة تحت المجهر « الميكروسكوب » .

وكان الطبيب الألماني « رودلف فيركو » قد اكتشف طريقته في تشريح الجسم في القرن التاسع عشر التي عمد فيها إلى نزع الأعضاء من الجسد عضوا عضوا ، ثم فحصه وتشريحه منفصلا . ثم جاء الدكتور « فريدريش ألبرت زينكر » وابتكر طريقة أخرى تقوم على فحص العضو من خلال الجهاز الذي يضمه ، فمثلا تفحص الرئتان من خلال الجهاز التنفسي كله الذي ينزع من الجسم قطعة واحدة ، وهذه هي الطريقة المتبعة الآن . ويلاحظ من يقوم بالتشريح أي تغيير طرأ على العضو ، أو انحراف عن السواء ، ثم يفصل العضو ويتم تشريحه لمعرفة أي تغيير عن ما هو طبيعي .

وتشريح العضو لا يتضمن فحصه وكشف ما به من تغير فقط ، لكنه يوزن وتقاس أبعاده لرصد أي تغيير إذا ما قورنت بالأبعاد والأوزان القياسية والثابتة علميا . وبعد أن تتم كل هذه الخطوات ، فإن أجزاء صغيرة من الأنسجة المختلفة تصبغ وتوضع في شمع البرافين لفحصها « ميكروسكوبيا » . وفي بعض الحالات تجرى اختبارات ميكروبية أو كيميائية على الأنسجة لبيان تأثير بعض المواد الغريبة على الجسم .

قد يكون المرفأ الأخير

التشريح إذن عدة عمليات تجرى على الجسم ، لا تهدف لمعرفة سبب الوفاة ، أو كيفية حدوث المرض فقط ، لكنها في الوقت نفسه تعد مقياسا لمعرفة مدى صلاحية بعض الأدوية المستخدمة ، ومقدار سميتها على الجسم ، خاصة تلك المستخدمة لعلاج مرض السرطان .

كذلك يقودنا التشريح ، لمعرفة العديد من الأمراض الجديدة التي تنشأ كنتيجة لعوامل البيئة ، أو مخاطر الصناعة . ومن الأمثلة التي كان للتشريح الفضل في كشفها نوع نادر من


● للتشريح فوائد كثيرة

الأمراض السرطانية هو « الانجيوساركوما » وهو ورم يصيب الكبد ، فقد لوحظ انتشار هذا المرض في العمال الذين يعملون في المصانع التي تستخدم مادة « الفنيل كلوريد » ، وكان ظهور الورم بصورة متكررة لدى هؤلاء العمال ـ كما أظهر التشريح ـ مقدمة لعمل دراسات وأبحاث ساهمت في التحكم في الحالة .

ومن الأغراض التي أفاد منها التشريح عمليات زرع صمامات القلب الصناعية التي استخدمت لأول مرة عام ١٩٦٠ م . فقد أعطى التشريح معلومات جيدة ، كما صحح نظريات قديمة ، عن شكل وحجم ونوعية هذه الصمامات ، وأعطى هذا كله مؤشرات لصنع أفضل نماذج لهذه الصمامات .

وأخيرا فإن التشريح هو المرفأ الأخير للأطباء إذا أصابتهم الحيرة عند تشخيص مرض ما . ولعلنا من هذا المنطلق ، نقول : إنه على الرغم من التقدم الرفيع جدا في استخدام وسائل التشخيص الحديثة ، فإن بعض الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع ، أكدت أن خطأ التشخيص كان في حوالي ٤٠٪ من المرضى الذين خضعوا للتشريح بعد وفاتهم .

ولكن ماذا يعني ذلك ؟ إن ذلك يعني في بساطة ، أن إحصائيات الصحة التي تتعامل مع أسباب الوفاة غير حقيقية ، حيث إنه لا يتم تشريح كل متوفى بطبيعة الحال ، وهذا يعطي انطباعا بأن ما يكتب في شهادات الوفاة عن الأسباب التي أدت إلى الوفاة غير دقيقة ، وهي بالتالي ليست وسيلة صادقة يمكن الاعتماد عليها لتخطيط برامج الرعاية الصحية .

التشريح بعد الموت

أخيرا ، ماذا يقول الدين حول هذه القضية ؟ . الحقيقة أن هناك تباينا واضحا في آراء العلماء والفقهاء حولها . فالتشريح بعد الموت له فوائد عدة من وجهة نظر العلم والطب ، وقد عددنا هذه الفوائد . لكن من المنظور الديني فإن الأمر يختلف ، فالتشريح بعد الموت مادة تشريعية جديدة أو هي عرف تعورف عليه ، لم يكن موجودا أو معروفا لدى علماء الشريعة القدماء ، وبالتالي فهو مثل كل القضايا الجديدة يخضع للاجتهاد الذي قد يتباين ويختلف .

عموما فالرأي الديني حول هذه القضية ينقسم إلى رأي مؤيد وآخر معارض . فالرأي المعارض يقول : إن للميت حرمة لا تقل عن حرمته وقت حياته . ويذكر أصحاب هذا الرأي ما رواه أبو داود بسنده إلى عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، قال : « كسر عظم الميت ككسره حياً » . وينظر المؤيدون لهذا الرأي إلى عملية التشريح ، ونقل الأعضاء وزراعتها ، كأعراف طارئة ، وهي أعراف فاسدة من المنظور الإسلامي ، أو كما يقول الدكتور صوفي أبو طالب في كتابه (تطبيق الشريعة الاسلامية في البلاد العربية) : « الأعراف الطارئة لا تصلح لتخصيص النصوص الشرعية حتى لو اتخذت شكلا عاما . إذ أن مخالفة العرف الطارىء للنص يعدّ نسخا لهذا النص ، وهو غير جائز ، لأن مرتبة العرف أدنى مرتبة » .

في المقابل نجد رأيا آخر يبيح عملية التشريح بعد الموت لتحقيق مصلحة عامة للمسلمين وامتناع للضرر . ومن المؤيدين لهذا الرأي الأستاذ « عبدالله المشد » رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف فهو يقول : إن فقهاء المذهبين الحنفي والشافعي ، قد أجازوا تشريح جسد الميت لمصلحة راجحة ، مثل استخراج مال ابتلعه انسان ثم مات ، أو تشريح جسد إمرأة ميتة لاستخراج جنينها الذي ثبت بيقين للأطباء المختصين أنه مازال حيا في بطنها ، وكذلك أجازوا التشريح لإثبات جناية ليتحقق بها وجه العدالة والحق . كما أجازوا ذلك للتعليم من باب الوجوب الكفائي ، بمعنى أن ذلك الأمر واجب على فريق من أبناء الأمة ، فإذا قام به البعض سقط عن الجميع ، وذلك من قبيل المصلحة العامة مع امتناع الضرر ، والأصل في ذلك كله الإباحة وليس التحريم . لأن الحرام ثلاثة أقسام هي :

أولا : حرام لذاته . وهو ما ورد في النص القرآني الصريح قطعي الثبوت والدلالة بحرمته ، مثل قوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ . . . » النساء (٢٣)

ثانيا : محرم لغيره ، وهو ما لم يرد به نص صريح قاطع بحرمته . وذلك مثل المخدرات والاتجار فيها ، لأن ذلك يؤدي إلى إتلاف النفس والعقل والمال . وهذه من الكليات الخمس التي أوجب الله الحفاظ عليها ، وحرم إتلافها والتعدي عليها .

ثالثا : محرم حرمة عارضة ، مثل العقود التي وثقت أركانها وشروط صحتها ، ولكنها اشتملت على غش أو تدليس وذلك لقوله تعالى « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بالباطِل » . النساء (٢٩) .

نميل للثاني

فنحن أمام رأيين لكل منها حجته وأسانيده ، ولكننا نميل بالترجيح للرأي الثاني الذي يتفق مع ما يذهب إليه العلم من فوائد مؤكدة ، يتيحها تشريح جسم الإنسان بعد الموت لبعض - ولا نقول لكل - الحالات ، بما يحقق في النهاية صالح الإنسان ، وغاية الصحة التي ينشدها الجميع . □

بعض أعلام العرب

كان أبو الطيب المتنبي ابن سقاء . . وأبو العتاهية الشاعر المشهور كان يبيع الجرار . . وأبو تمام حبيب الطائي كان يخدم حياكا ، ويعمل عنده بدمشق .

والإمام أبو حنيفة كان بزازا أي تاجر حرير ، وأبو بكر الرازي الطبيب المشهور كان في شبابه يضرب بالعود ، ويتكسب منه ، والحجاج بن يوسف الثقفي كان يعلم الصبيان هو وأبوه بالطائف ، ولكنه صار بعد ذلك أمير العراق وخراسان وسائر الشرق .

أسئلة صعبة حول وطن الحلم

بقلم : الدكتور محمد حافظ دياب

القراءة كنشاط إنساني واع ، وضروري ، له مستويات متعددة ، تبدأ من المطالعة ، وتنتهي بالمشاركة في خلق المكتوب من خلال رؤية القارىء له . وحول فعل القراءة ودورها ، تعددت التعريفات والتفسيرات التي تتشابك في ساحاتها مدارس النقد الأدبي المختلفة .

القراءة ضرورة وليست ترفا ، وحديث مع عشاق القرون الخوالي ومبدعي العصر ، مقياس لغنى الثقافة والهوية القومية ، شرط أن
وم على الالتزام الحي بين حرية الكاتب الذى
اجه نفسه قبالة حرية القارىء . فبهذه الكيفية
كبر خارطة المكتوب ـ المقروء ، وتتجاوز تأثيرها
نعاليتها لكي تقترب من (وطن الحلم) كما
للق عليها المؤرخ الانجليزى إدوارد جيبون .

إن هذا الوطن لم يعد قاصرا على « مكيافيل »
لذي كان يرتدى أفخر ثيابه ليقرأ الكلاسيكيات
لاتينية ، أو « بترارك » الذى مات وعينيه على
روف كتاب تضيئها له مائة شمعة موزعة في
زايا غرفته ، أو « رونسار » الذي كان يتمدد
احة في مسبحه ساعات طوالا ليعيد قراءة
الياذة .

نمية القراءة

ثم ان جهودا دائبة تبذل في الوقت الحاضر
نمية هذا الوطن بتجديد (مرفق) القراءة فيه
ن طريق برامج محو الأمية ، وتشريعات رعاية
المكتبات وإقامة مشروعات المكتبات المتنقلة في مصر ، والمكتبات (الخفيفة) في الولايات المتحدة ، والمكتبات العائمة في النرويج وقطارات الثقافة في فرنسا ، وتيسير نظم الإعارة البريدية ، ونوادي المكتبات ، وكفالة وسائل القراءة للمكفوفين ، ومحاولات استخداماتها التجريبية في السجون والمستشفيات لعلاج بعض امراض الجهاز العصبي ، وإعداد التصنيفات التي تشمل الكتب والمقالات والأبحاث التي تمت بصلة إلى تنمية نشاط القراءة وجماعاتها ومراكز أبحاثها ودورياتها ، إضافة إلى انتشار صناعة الكتب المسموعة أو المسجلة على أشرطة الكاسيت منذ بداية الثمانينيات في أوربا وامريكا التي بلغ من رواجها أن ظهر منها في الولايات المتحدة وحدها ، وحتى عام ١٩٨٦ ، نحو اثني عشر الف عنوان ، وهي صناعة تعتمد على إعادة اكتشاف الأذن في نقل المعلومات ، خاصة لرجال الأعمال والمسنين والمكفوفين .

وفي مطلع الدولة الاسلامية ، يذكر التاريخ أنه بعد معركة بدر طلب النبي ـ صلى الله عليه

وسلم - إلى كل أسير فقير قارىء من أسرى قريش أن يعلّم عشرة من صبيان المدينة المسلمين الكتابة والقراءة ، بدل الفدية المالية ليطلقه .

بعد ذلك بدأ النبي في تكوين جماعة من القراء لتكون عاملا داخليا للتثقيف ، ولحمل الدعوة إلى الخارج ، ينوّه عنها الواقدي بقوله : « كان من الأنصار سبعون رجلا شبَبَة يسمون القراء ، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية المدينة ، فتدارسوا القرآن وصلّوا . حتى إذا كان وجاء الصبح ، استعذبوا من الماء ، وحطبوا من الحطب ، فجاءوا به إلى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أهلوهم يظنون أنهم في المسجد ،وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهليهم . فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجوا ، فأصيبوا في بئر معونة » (المغازي للواقدي ، ١٠/٣٤٧) .

وقد وقعت هذه المذبحة - خصوصا والمغتالون دعاة عزّل - من الرسول موقعا أليما ، « فدعا على قتلتهم خمس عشرة ليلة » . لكن غضب الرسول وحزنه لاغتيال أصحابه ، لم يكن لأنهم كانوا عزّلا فقط ، ولا لأن الذين دعوهم هم الذين قتلوهم ، بل لأنهم كانوا القرّاء الجدد للجماعة الإسلامية الناشئة . فعندما بدأ النبي دعوته بمكة ، « لم يكن فيها أكثر من عشرين رجلا يقرءون ، ويكتبون » . وكان هذا يعني عدم إمكان انتشار الإسلام الذي يفترض كتابه (القرآن) أناسا لايحفظونه عن ظهر قلب فقط ، بل يتناقلونه كما أنزل ، كي لاتتسرب إليه أخطاء الذاكرة وأوهامها . من هنا كان حرص النبي منذ البداية على تعليم أصحابه والمقبلين الجدد على الإسلام . ادراكا منه للارتباط العميق بين القراءة والقراء من ناحية ، واستمرار الإسلام دين دعوة من ناحية أخرى . ويبدو أن هذه لم تكن الجماعة الوحيدة ، بدليل أنه أرسل بعد ذلك جماعات من القراء ، لتعليم الناس الإسلام والقراءة في نجران وصنعاء وعمان .

هكذا ومنذ البداية ارتبط الإسلام دعوة ومصيرا بالقراءة بشقيها النظري (المعرفة) ، والمهارة (التلاوة) .

قراءات ثلاث :

ومفهوم « القراءة » يمثل مسألة خلافية بين دارسيه ، نشأ عنها أبعاد ثلاثة لهذا المفهوم ، يمكن ان تعد في آن معا مستويات ثلاثة متنامية لفاعلياته :

(١) البعد الأول الذي يقف عند تحريك النظر فوق الحروف والكلمات أو النطق بها ، ويعتمد الإحساس اللفظي بالعبارة قبل معناها عادة ، ويستهدف التحقيق الصوتي والمران اللساني ، وهو لذلك أقرب إلى المطالعة . (٢) البعد الثاني الذي يقف عند حدود التلقي المباشر ، والاجتهاد في أن يكون هذا التلقي مقرونا بأكبر قدر من (الأمانة) في ادراك النص ، اعتقادا بأن معناه قد صيغ نهائيا ، فلم يبق إلا العثور عليه كما هو ، ومن ثم يقتصر على استعداد القارىء للتقبل السالب ، ودون الدخول في محاورة النص وإضاءته .

ويرى الكاتب الفرنسي ، رولان بارت أن (داء) هذه القراءة أو بالحرى (عاهتها) الدائمة تكمن في عجزها عن إدراك الرموز الموجودة في النص - خاصة إذا كان نصا أدبيا - وإنكارها أنه ذو دلالات متعددة ، ويفسر هذا عجز هذه القراءة بعدم استطاعتها أن ترى في النص إلا



معنى واحدا تركز عليه ، وهو غالبا معنى حرفى ، ولهذا فمن غير المجدى ـ لدى أصحابه ـ محاولة البحث عن معان أخرى بديلة ، أو حتى معان مكملة لذلك المعنى الحرفى . إذ على مايقول بارت « فى النص ، القارىء وحده يتكلم » وهو ما يعنى أن نسبة النص إلى مؤلف تعادل إيقاف النص وحصره وإعطاءه مدلولا نهائيا . إنها بتعبيره « إغلاق الكتابة » .

وثمة واقعة نقدية مشهورة فى هذا الصدد ، يذكرها « زكى نجيب محمود » (فى فلسفة النقد ، ص ١١١) حين أورد أن الناقد « ستانلى هايمن » علق على قصة لروبى ماكولى بما يفيد اخفاءها إيماءات جنسية ، وأشار إلى أن تحويل بعض الأسماء النسائية فى القصة إلى أسماء مذكرة ، يمكن أن يساعد على إظهار هذا المعنى . ولن يحتاج ذلك إلى جهد كبير بسبب التقارب الشديد بين التذكير والتأنيث فى أسماء الشخصيات الرئيسية .

وحين قرأ المؤلف هذا التعليق سارع إلى إنكاره ، وأصر على أن قصته خالية مما ادعاه الناقد الذى رد عليه قائلا : « إنه ليؤسفنى أن السيد ماكولى يفضّل ـ لأى سبب من الأسباب ـ أن يحرم نفسه من أن يكون كاتب القصة الشائقة المتشعبة التى قرأتها له ثم وصفتها للقراء ، ويختار لنفسه بدلا من ذلك أن يكون كاتب القصة الهزيلة الفقيرة التى يصفها هو للقراء . وليس السيد ماكولى أول قاص أنتج نتاجا أدبيا خيرا مما يعلم ، وخيرا مما يريد أن يسلّم به ، ولعله لن يكون آخر قاص فى ذلك . ولست على استعداد للفرار من ميدان القراءة النقدية لقصة من القصص ، كلما هاج فى وجهى مؤلفها مصرّا على أن قراءتى لقصته لم تكن هى قراءته لها » .

(٣) أما البعد الثالث ، فالقراءة عبره لاتتوقف عند مجرد التلقى المباشر ، بل تساهم بوعى فى إعادة إنتاج وجهة النظر التى يحملها النص ، والكشف عن جوهره وتأويله ، بحيث تتحول إلى فعل إبداعى يؤدى إلى ذروة وظيفتها المولدة للدلالة .

القراءة والكتابة :

وتاريخية المكتوب لاتقوم على مجرد تواجد النص، ولكن على تعرّف القارىء به وهو ما يعنى أن القراءة ليست رديفا للكتابة ، ولا فعالية تابعة لها . لقد كان التصور الشائع يعد أن هنالك عمليتين منفصلتين تماما هما : الكتابة التى تتم من قبل المؤلف ، والقراءة التى تحدث زمنيا بعد الكتابة ، ومن ثم لم يظهر فى هذا التصور مستوى لعلاقة عضوية بينهما ، فى حين أن هذه العلاقة لاتقوم إلا على أساس حوار متبادل ، من موقع سائل ومسئول يتبادلان أدوار السؤال والجواب . فالكاتب والقارىء يصنعان معا نصّهما ، ويكوّنان معا برهانه ولغته ودلالاته ، وهو ماعناه الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر بقوله : إنه « لما كانت العملية الإبداعية لاتستطيع أن تجد اكتمالها إلا فى القراءة ، ومادام على الكاتب أن يوكل الغير بمهمة استكمال مابدأه ، وما دام لايستطيع أن يشعر بنفسه بشكل أساسى تجاه عمله إلا من خلال وعى القارىء وحده ، فإن عملية الكتابة لابد أن تتطلب عملية قراءة كمقابل لها . ويستلزم هذان الفعلان المترابطان عاملين متميزين . فذلك أن جهد المؤلف وجهد القارىء المرافق له ، هما اللذان يبرزان للوجود ذلك الأثر الفكرى المحسوس والخيالى معا . فلا وجود للنص إلا بواسطة الآخرين ومن أجلهم» (مواقف ، ص ٩٣) .

وفى الستينيات تبلور فى فرنسا اتجاه قدمته جماعة (تيل كيل) التى تحتل مكانا مرموقا فى النقد الأدبى المعاصر ، وعَدُّ أن الكاتب هو قارىء أساسا . إذ يقرأ الواقع المحيط ، ثم يحلله كقارىء ويحوله إلى مادة للكتابة يتلقاها قارىء آخر ، يحللها بدوره فيصبح قارئا وكاتبا ، متفرجا وممثلا فى الوقت نفسه .

فمن وجهة نظر أصحاب هذا الاتجاه ، أن العلاقة بين كليهما تقوم على التكامل والتناوب ، وليس على التباعد والتنافر . كما كان الظن قبلا .

فالكاتب الذي يستشف الواقع ويقرؤه ويتمثله وينقل قراءته له إلى نص مكتوب ومطبوع ، لم يتخل عن كونه قارئا فعالاً . ولأنه قارىء وكاتب تكون علاقته بقارىء آخر وهو قارىء نصّه ـ علاقة عضوية متميزة . لأن هذا القارىء بدوره يجب أن يكون فعالا ، بحيث يحوّل المادة الورقية المطبوعة بين يديه إلى أفكار ورؤى ، فيضحى بالتالي كاتباً وقارئا .

إن صورة (القارىء الضمنى) تكون حاضرة باستمرار ، فى وعى الكاتب . كذلك العكس ، حيث صورة الكاتب هي أيضا حاضرة ، فى وعى القارىء ، حتى لو كانت الصورتان مجردتين .

اللقاء السرى

ونظرا لهذه العلاقة المتميزة بين الكاتب والقارىء ، هناك نوع من اللقاء السرّى بينهما . نوع من الاجتماعات الممنوعة والتحريض المباشر ، ولهذا السبب عُد عمل الكتابة وفعل القراءة خطيرين أحيانا ، فقامت ضدهما مقصات الرقابة ، وكان الحريق هو الإجابة المفضلة فى مرات عديدة . فقد تم حرق أعمال الفيلسوف الإفريقى القديم « بروتاجوراس » في اثينا ، وقام جلاد باريس بقذف مؤلفات « فولتير » فى اللهب ، وأكره « أبيلار » ، فى القرن الثانى عشر ، على أن يقذف كتابه بيديه فى النار ، وحكم بحرق قراطيس « ابن حزم القرطبي » خلال حياته ، فخلد هذه الواقعة فى قصيدة له يقول فيها :

دعوني من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس إذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبري



وبعد وفاة « دانتى » ، أحرق أحد الكرادلة كوميدياه ، واستغرق الجدل العقيم مائة وخمسين سنة ، من أجل الاعتراف بها . وحينئذ فقط ، أمكن تطويل العنوان ، ليصبح « الكوميديا الإلهية » بدل « الكوميديا » فقط كما وضعه « دانتى » . ولقد مثّلت (لائحة الكتب المحرمة) أداة بيد الحركة المناهضة لإصلاح الكنيسة فى أوروبا الوسيطة .

وفى العصر الفكتورى ببريطانيا ، تقلّصت حرية القراءة ، وبقيت وقفا على البالغين ، طبقا للقاعدة الأخلاقية التى وضعها (بودسناب) وفحواها :

« هل يؤدي هذا الكتاب إلى تصاعد حمرة الخجل في وجنة انسان شاب ، ناهيك من شابة ؟ » ، وأصبحت هذه القاعدة بمثابة معيار قانونى كحكم نهائى على الكتاب وقد امتدت حتى طالت رواية « ديفيد هربرت لورنس » عشيق الليدى تشاترلى التى قُدِّمت مع مؤلفها إلى محكمة المجرمين المركزية بلندن .

حدث هذا ومثيله للحيلولة دون اللقاء بين الكاتب والقارىء ، أو بالأحرى لطمس العلاقة بينهما ، وتهشيمها ، وتحويلها إلى علاقة سطحية ، تتم فيها عمليتان منفصلتان : الكتابة المستقلة تماما عن القراءة ، أوما أطلق عليه نقاد تيل كيل « اللاقابلية للقراءة » .

فى أزمة الكتابة

من هنا تكتسى مسألة الكتابة عن القراءة أهميتها ، حيث أن ما يوجد منها لايتجاوز طموحها الطرح التعميمى عن اتجاهات القارىء أو تأثيرات القراءة ، على الرغم من قِدَم هذه المسألة التى يمكن أن نلمحها بدءاً من اشارات أفلاطون إلى دور الفن فى تمويه الحقيقة ، وأفكار ارسطو عن دور الشعر فى تطهير العواطف ، مرورا بكتابات الجاحظ وعبدالقاهر الجرجانى وابن جنى ، وانتهاء بعدد من المدارس الحديثة التى تركز على وجود « القارىء فى النص » ، أو التى تنشغل بجماليات التلقي .

وفى وطننا العربى ، لايكاد المتتبع يجد اهتماما بهذه المسألة ، خلا محاولة رائدة نشرت فى القاهرة عام ١٨٧٠ بشكل فصول مسلسلة على صفحات مجلة « روضة المدارس المصرية » التى تعد أول مجلة ثقافية عربية ، وكانت بعنوان « بث المعارف ، ونث العوارف » ، قدمها (ميخائيل افندى عبدالسيد) أحد أنجب تلاميذ الطهطاوى . بعد ذلك بفترة طويلة ، قام محمد حامد الأفندى بدراسة عام ١٩٥٥ ، استهدفت التعرف على ميول القراء واهتماماتهم . وقدم « السيد يس » عام ١٩٧٠ محاولة أخرى فى إطار دراسته للمشكلات النظرية والمنهجية للتحليل الاجتماعى للأدب . ويقوم حاليا الباحث التونسى د . عبدالقادر بن الشيخ بإجراء بحوث تتصل بهذا المجال .

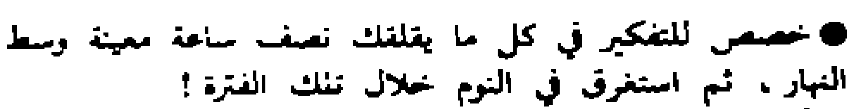
عموما يمكن القول أن أبحاث القراءة مازالت تعتريها صعوبات عديدة ، نتيجة عدم توافر الأرقام الصحيحة حول القراء واقتصارها على الدراسات ذات الطبيعة الاستطلاعية أو المسحية ، وعدم تحدد مسالكها أو أساليبها المنهجية .

وربما لهذا السبب تبذل هذه الأيام محاولات لتنمية مبحث سوسيولوجي حول القراءة ، يطلق عليه (علم اجتماع القراءة) ويتناول تحديد طابعها الاجتماعى ، ومجموعة الارتباطات والتعميمات التجريبية المتعلقة بالقضايا التى تلخص اطراد العلاقة بين ظاهرة القراءة وبين الجماعات والنظم الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعى .

على أي حال فإن كتابة واعية عن القراءة فى وطننا العربى لابد أن تبدأ بتحليل لعمليات التغير الاجتماعى والثقافى ومؤشراته ، وكشف نقاط البدء ، والتطوير ، ومعاينة لغنى استمرارية الشخصية القومية .

وهكذا كلما انطوت الصفحة الأخيرة من الكتاب تبقى القراءة محاورة حيّة متجددة ، وقصيدة عذبة . يقول « بوشكين » فى مقطعها الأخير :

مهما تكن أيها القارىء
عدوا أو صديقا ، فانى أريد منك
أن نفترق أحبّة □



من أقوالهم



● خصص للتفكير في كل ما يقلقك نصف ساعة معينة وسط النهار ، ثم استغرق في النوم خلال تلك الفترة !

● أنجح طريقة تجلب بها النوم إلى عينيك ، هي أن تفكر في أن الوقت قد حان للاستيقاظ .

● المأدبة الصاخبة الفوضوية هي المأدبة التي يقيمها أحد جيرانك ولا يدعوك إليها !

[illegible] م

أكثر من امرأة

سعر سوفي بغدادي

لم تكوني مرأة
كنت تستحم الصوت في الصحبه
ولا تقاع إ سرع في الصوصا
حول المرقص
لم تكوني جسد
كنت نما للعطف في الصحبه
ولا تستاع إ يطفو على الأسيا
فوق الناعس
لم تكوني حلما
كنت نفس الكف إ يلمس
ولعس لي ترقص في الضو
وعند العلب
إ تصحم الرعب عليه لباب
بالمرما والطفل وسلو الرقص
كنت تمشي على إيقاع قلبي
وأنا تمشي على ايقاع عسف
فإن أخطأت عرتي الريح
وإ أسرعت
أوشكت من اللهفه أن تعدو عدو سا
وأن أتلو سجعا

عندما لا تصلي
ما للبلبل تخلو الأغاني
بالسرب العصافير
ويماح السنابس
ولعو الملاسمي
حين يطلو حكمه الدنيا على معرى
وفي فوضى الأحبا بـ
و تصبح للألفاظ وجهان
كأن اللغه الأخرى التي تدعها
عبر لغات العالمين
ندأ تحمله في إنسان عسل
فيهر لها تحس
وتسـاب مع الجلد
الى بر البحر
فرعي لنعه تسعل في لعلنا
كلاما ناعصا
أكمله عنك
بالألفاظ معطا بهمس عامض
لو ناعصا للحس
عا طل مكان ما ع



مِثْلَ الشعرِ الذي يرقُصُ
والساقُ التي تأتي إلى الساقِ
فتلتفُّ عليها
ثُمّ تنفكُّ لتلتفَّ عليها
عندها تكتملُ الجملةُ
كيْ أفهمَ ما تعنيهُ حقّاً
وما لا تقصدين
لَمْ تكوني موسماً
كنتِ فصولَ العامِ
لا يختمُ الحصادُ إلّا لابتداءٍ
لَمْ تكوني رشفةً في الكأسِ
كنتِ الكأسَ
لا تفرغُ إلّا لامتلاءٍ
أنتِ مَنْ أعلنُ
والأخرى التي أضمرُ
أطلقتِ ، ولَمْ أشعرْ بسجني
كنتِ لي كُلَّ الفضاءِ
لَمْ تكوني امرأةً واحدةً لي
أنتِ لخصتِ مزاياهن
يا كُلَّ النساءِ !



فيلسوف أهمله الفلاسفة

بقلم : الدكتور أحمد أبوزيد

• يزخر تاريخ الفلسفة بعدد من الفلاسفة الذين لم ينالوا حظهم من الشهرة والذيوع، وهذا واحد منهم، قدم إسهامات رائعة في فلسفة التاريخ وعلم الجمال وعلوم اللاهوت، بينما لم يقدم تأثيرا واضحا في الفلسفة الأكاديمية، ولم ينل حقه من الدراسة والتعريف •.

تشهد الأوساط الثقافية و«الأكاديمية» في الخارج حركة نشطة، لإعادة النظر في كثير من الأعمال والحركات الفكرية، في ضوء المناهج والأساليب العلمية الحديثة من جهة، واكتشاف بعض الجوانب التي كانت مجهولة عن أصحاب هذه الأعمال، والعوامل التي تدخلت في تشكيل أفكارهم من جهة أخرى. وقد أدى ذلك النشاط الجديد إلى نتائج مثيرة وغريبة، قلبت موازين الأحكام حول كثير من المفكرين والعلماء والفلاسفة والأدباء. فقد عرف الناس مثلا : أن النتائج التي أعلن عالم النفس البريطاني الكبير سيريل بيرت، أنه توصل إليها من التجارب التي كان يقوم بها، هي نتائج مزيفة، اعتمدت على عمليات تزوير متقنة، للتدليل على أمور كان يؤمن بها مسبقا. كذلك عرف الناس أن عالمة الأنثربولوجيا الأمريكية الشهيرة مارجريت ميد، لم تعتمد في كتاباتها عن الفتاة المراهقة في جزر «ساموا» على المعلومات التي زعمت أنها جمعتها بنفسها، أثناء إقامتها الطويلة في تلك الجزر، بل إن جانبا كبيرا جداً من هذه (المعلومات) كان من صنع الخيال، ولا يمت إلى الواقع بصلة. كذلك عرف الناس كثيراً من الحقائق عن إدمان عالم النفس التحليلي زيجموند فرويد للكوكايين، كما عرفوا أن نظريته عن الجنس كانت نابعة - إلى حد ما، على الأقل - من علاقاته الجنسية الداعرة مع أخت زوجته. وهكذا! ولكن على الجانب الآخر أفلح بعض الباحثين الجادين في إلقاء كثير من الأضواء على مفكرين وكتاب وفلاسفة، طال إهمالهم، ولم يلقوا أثناء حياتهم ما يستحقون من اهتمام وتقدير، على الرغم مما تتميز به أعمالهم من عمق ينم عن اتساع الأفق وقوة التفكير



● روبين جورج كولنجوود

وجدية النظرة إلى الإنسان وإلى العالم.

وربما كان الفيلسوف البريطاني المغمور - نسبيا - روبين جورج كولنجوود (١٨٨٩ - ١٩٤٣) واحدا من أهم هؤلاء المفكرين، فقد تحالفت ضده ظروفه وشخصيته ومزاجه واتجاهاته الفلسفية ورؤيته للعالم وللحياة، وعداء زملائه من الفلاسفة، والتغيرات التي طرأت على الحركة الفكرية والاتجاهات الفلسفية، ورفضه السير في ركاب هذه التغيرات، وقد أهمل الفلاسفة «الاكاديميون» كولنجوود، وأغفلوا شأنه، بل وعاملوه بكثير من الاستخفاف. وأخيرا انتبهت إلى فلسفته بعض الهيئات العلمية، وبخاصة في أمريكا، وظهر حول فلسفته وآرائه ونظريته «الميتافيزيقية» على الأخص عدد كبير من الكتب والدراسات، بل وأصبحت كتاباته موضوعا لعدد من الرسائل الجامعية، كما أعيد نشر معظم أعماله. ولاقت هذه الأعمال كثيرا من العناية من المتخصصين في كثير من فروع الدراسات الانسانية، علاوة على الفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة، فلم تكن كتابات كولنجوود مقصورة على المسائل «الميتافيزيقية»، كما هو الشأن في كتابه «مقال في الميتافيزيقا» الذي نشره عام ١٩٤٠، وإنما تناولت هذه الكتابات موضوعات متنوعة عديدة، بدءاً من «فلسفة الفن» الى «المنهج الفلسفي»، الى «فكرة الطبيعة»، الى «مبادىء الفن»، الى «الدين والفلسفة»، فقد كان كولنجوود يرى موضوع الفلسفة واسعا سعة الحياة نفسها.

المضنون به أهله

والواقع أن تأثير كولنجوود في ما يمكن تسميته الفلسفة «الاكاديمية» ظل غاية في الضآلة، وإن كان الأمر على العكس من ذلك تماما بين غير الفلاسفة من المفكرين والمثقفين. وهو ينتمي بذلك الى تلك الفئة من الفلاسفة الذين ذاعت كتاباتهم وآراؤهم ذيوعا واسعا خارج النطاق «الأكاديمي» الضيق، وهم الذين يعد «برتراند رسل» أفضل مثال لهم في بريطانيا. ولذا فليس غريبا أن نجد أستاذا، مثل: لويس مينك الذي يعد من كبار المتخصصين في فلسفة كولنجوود، يقول: إن علماء التاريخ الذين لم يقرؤوا، منذ تخرجهم في الجامعة، كتابا واحدا في الفلسفة،

أقبلوا بنهم على قراءة كتاب كولنجوود عن (فكرة التاريخ)، وأن النقاد والمتخصصين في نظريات الفن كانوا يقبلون على كتابه عن (مبادىء الفن) بالاقبال والشغف اللذين يقرؤون بهما أي كتاب متخصص، ومتميز في علم الجمال، وأنه على الرغم من أن كولنجوود لم يكن من رجال الدين فإن مدارس اللاهوت تعرف عن كتابه (الدين والفلسفة)، وعن آرائه في الدين، أكثر مما تعرف أقسام الفلسفة في الجامعات عن ذلك الكتاب. ولذا نجد كثيرا من الكتّاب - حسب قول مينك أيضا - يصفون كولنجوود بأنه الفيلسوف المغبون الذي يهمله الفلاسفة، بدون وجه حق، بل إن هناك من يعده على هذا الأساس أشهر مفكر مغبون في عصرنا الحديث.

وجانب من المسئولية عن هذا الإهمال والإغفال يقع على كاهل كولنجوود نفسه، فقد كان شديد الاعتزاز بآرائه وبشخصيته، إلى حد العجرفة والغرور، ولم يكن يأبه كثيرا بأن يكون قريبا من زملائه، بقدر ما كان يهتم بالتدليل على صحة آرائه، وفرض هذه الآراء، وان يكون على احترام وتقدير لقدراته الخاصة. ولذا كان زملاؤه يتهمونه بالنظرة «الديالكتيكية». ولم يكن يعطي كل وقته أو جهده للفلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما كان يجمع دائما بين الفلسفة والتاريخ، ويحاول التوفيق والتقريب بينهما. وربما كان تأثير والده عليه هو السبب في اتجاهه هذا الاتجاه المتشعب، فقد كان أبوه رساما مصورا، أو من المهتمين بالبحوث والدراسات «الاركيولوجينية». وقد تلقى تعليمه في البيت حتى سن الثالثة عشرة، فأجاد اللاتينية واليونانية وهو في الثامنة من عمره، وأتيحت له فرصة هائلة للقراءة الحرة المتنوعة، كما ظل طوال حياته يمارس الرسم والتأليف، ثم التحق بجامعة اكسفورد عام ١٩٠٨، وحين تخرج تولى تدريس الفلسفة فيها، ابتداء من عام ١٩١٣، حتى تقاعده كأستاذ للميتافيزيقا عام ١٩٤١،

وقد تبدو هذه حياة عادية طبيعية مألوفة بالنسبة لأستاذ «أكاديمي»، ولكن وراء هذا المظهر الخارجي كانت تختفي أمور أخرى كثيرة، باعدت بينه وبين زملائه من الفلاسفة (الأكاديميين) الذين تعمدوا إهماله على الرغم من أستاذيته.

اهتمامات متعددة

فلقد أخذ علم الآثار «الاركيولوجيا» جانبا كبيرا من وقته في الفترة بين عام ١٩١١ - و ١٩٣٤، لدرجة أنه كان يعد حجة في العصر الروماني في بريطانيا، وله عن هذه الفترة أكثر من كتاب، مع أنه كان يشغل وظيفة تدريس الفلسفة في اكسفورد.

بل إن قصة اشتغاله بالفلسفة واهتمامه بها كانت تثير كثيرا من التحفظات إزاءه بين «الأكاديميين». وهو نفسه يعترف في (سيرته الذاتية) بأنه وجد نفسه يميل الى الفلسفة، ثم يهتم بها دون أن يفهم سبب ذلك، وأن المرة الأولى التي شعر فيها بأن الفلسفة تجذبه اليها كانت حين وقع في يده بطريق (الصدفة) كتابا بعنوان (نظرية الأخلاق عند «كانت»)، وكان عمره حينذاك ثمانية أعوام. وقد تصفح الكتاب من باب (الفضول)، فإذا به تنتابه موجة من الانفعال والأحاسيس المتلاطمة، ويسيطر عليه كثير من القلق، لأنه وجد نفسه يقرأ أشياء لا يستطيع فهمها، على الرغم من أنها مكتوبة بلغة انجليزية سليمة واضحة، لكن معاني الألفاظ كانت تثير فيه الحدة والارتباك والاضطراب، وأحس بأنه ينبغي عليه أن يفهم هذا الكلام، ومعاني هذه الألفاظ بأي شكل ومهما كان الثمن، كما أدرك أن موضوع الكتاب يجب أن يكون شغله الشاغل ومهمته الأساسية، على الرغم من أنه لم يكن يفهم محتويات الكتاب. وحين قرر أن ذلك العمل سوف يكون

بمثابة مهمة خاصة وشخصيته،وانه سوف يؤلف بذلك جزءا من ذاته في المستقبل، شعر ـ كما يقول ـ بأن غشاوة قد رفعت عنه، وأن مصيره قد تقرر نهائيا. ومنذ ذلك الحين أصبح يخضع لشعور غريب، يقول : «إنني أنوء تحت عبء ثقيل، لا أستطيع تحديد طبيعته، إلا أن أقول : إنني يجب أن افكر. أما عما يجب أن افكر فيه فهذا مالم أكن أعرفه. وحين كنت أرضخ لذلك الأمر كان يسيطر عليّ الصمت والسكون، وأذهل تماما عما يدور حولي وأنا جالس بين الناس، أو ابحث عن العزلة والوحدة حتى أستطيع التفكير. ولست أستطيع حتى الآن أن أتبين بماذا كنت افكر، إذ لم تكن هناك أسئلة محددة أسألها لنفسي، ولم تكن هناك موضوعات خاصة لوجه تفكيري نحوها، وإنما كان هناك فقط نوع من الاضطراب الذهني غير محدد وغير هادف، كما لو كنت أصارع وسط ضباب». وقد لا يرضى الفلاسفة الاكاديميون عن ذلك كل الرضى .

انتباه للمعرفة الإنسانية

وزاد ابتعاد زملائه عنه أنه دون زملائه من فلاسفة اكسفورد ، ظل حريصا على حمل لواء الفلسفة (النسقية)، بمعنى أنه كان يرى أن الفلسفة في صميمها عقلية ونسقية، وأنها محاولة لصياغة المعرفة الإنسانية في صورة نسقية. وكان فلاسفة اكسفورد قد تركوا ذلك للموقف وهذه النظرة في الفترة التي كان كولنجوود عاكفا فيها على إنجاز أعماله الرئيسية ومؤلفاته المهمة، وهي فترة تمتد الى حوالي ربع قرن، وذلك ابتداء من كتابه عن (الدين والفلسفة) الذي صدر عام ١٩١٦، حتى كتابه الأخير عن (اللوائاثان الجديد) الذي صدر عام ١٩٤٢ ، أي قبل وفاته بسنة واحدة. كانت الفلسفة تتغير بسرعة هائلة في بريطانيا، وربما كان ذلك التغيير أوضح وأعمق في اكسفورد عنه في أي مكان آخر. كانت المثالية التي ينادي بها فلاسفة من أمثال : جرين وبرادلي قد بدأت تنحسر وتتوارى امام الواقعية التي كان يعتنقها كوك ويلسون وبريتشارد. ولكن هذه لم تلبث أن حلت محلها الفلسفة التحليلية. لكن كولنجوود الذي كان يعتز بفرديته وأصالته واستقلاله الفكري لم يحاول المشاركة أو السير في تيار هذه التغيرات. وكانت النتيجة أنه وجد نفسه يقف وحيدا، بل ويكاد يكون منبوذا من زملائه «الأكاديميين». وأغلب الظن أنه لم يكن يأبه بذلك كثيرا.

والمهم هو أن كولنجوود كان كثير الاهتمام بمشكلة البحث عن العلاقة بين الفلسفة والتخصصات الأخرى، في مجال الإنسانيات، وبخاصة التاريخ، فكتابه عن الدين والفلسفة محاولة لتحليل الدين، من حيث هو شكل من أشكال المعرفة. وكتابه الأساسي المهم المعروف باسم (خريطة المعرفة) الذي صدر عام ١٩٢٤، هو نوع من المشروع عن فلسفة الثقافة ، وفيه يؤكد وحدة العقل التي تدور حول خمس صور من التجربة، وهي : الفن والدين والعلم والتاريخ والفلسفة. ومن هنا كانت أعمال كولنجوود تدور أيضا حول هذه الصور الخمس للتجربة الإنسانية، وتبعده بالتالي عن الفلاسفة البريطانيين المعاصرين له. ولكن تبقى بعد ذلك كله محاولته لدمج الفلسفة والتاريخ، فهذه المحاولة تعد أهم إسهاماته، بل واحدة من أهم الاسهامات التي قامت في القرن العشرين للتقريب بين الاثنين. ويعبر كتابه (فكرة التاريخ)الذي نشر بعد وفاته تعبيرا صادقاً قوياً عن هذه المحاولة الجديرة بالدراسة والتحليل. والطريف في الأمر هو أنه على الرغم من أن كولنجوود يكاد يكون غير معروف في وطننا العربي فإن كتاب (فكرة التاريخ) كان قد تم نقله إلى العربية منذ سنين، حين كانت هناك حركة جادة للترجمة في مصر. □



- إن رجال الأعمال الأمريكيين نظاميون جدا ، فهم يمضغون غذاءهم على الجهة اليمنى من أفواههم ، وعشاءهم على الجهة اليسرى .

إيليا اهرنبرغ

- ليس التفكير ممنوعا في أن انجلترا لم تغز منذ سنة ١٠٦٦ إلا لأن الأجانب يخشون أن يضطروا إلى قضاء يوم أحدٍ فيها .

بيير دانينوس

- الفرنسي يغني خطأ ، ويفكر تفكيرا صحيحا ، والألماني يغني بطريقة صحيحة ، ويفكر خطأ ، أما الإيطالي فلا يفكر ألبتة لكنه يغني .

هنري دو رينيه

قاموس الظرفاء

العظيم : شخص يعيش بين حاشية من الصعاليك .

الخطيب الماهر : هو ذلك الشخص الذي يستطيع قول القليل بأكثر ما يمكن من الكلمات .

الزوج : هو ذلك الرجل الذي يقف إلى جانب زوجته في الملمات التي ما كانت ستحدث لو لم يتزوجها .

من القلب

● غريق

كان أحد الانجليز يمر على ضفة نهر التايمز ، عندما سمع صوت استغاثة ، ولما نظر ناحية الصوت شاهد رجلا يحرك ذراعيه ويصيح بكل قواه طالبا النجدة ، فسأله : لماذا تصيح بهذا الشكل ؟

- ألا ترى أنني أغرق ؟

- وماذا سيفيدك الصياح ؟ هل تعتقد أنك ستعوم إذا رفعت صوتك ؟!

□□□

● دقة

غمرت الفرحة قلب « جون » عندما أنجبت زوجته قبل ربع ساعة طفلا ذكرا ، سماه « جون » على اسمه ، وفي تلك اللحظة قرع ساعي البريد الباب وقال :

رسالة مسجلة باسم السيد جون .

فسأله الأب السعيد : أي جون ، الأب أم الابن ؟

□□□

● لا يعرف

زلّت قدم عامل بناء فوقع من الطابق الخامس ، ومن حسن حظه هبط على كومة رمال فلم يُصب بسوء ، ولما تجمع الناس حوله ركض الشرطي نحوه ، وراح يبعد الناس عن المكان ، ثم اقترب من العامل وسأله :

- ماذا يحدث هنا ؟

- فرد العامل : لا أعرف ، لقد وصلت الآن .

ضحكات عربية

● النحوي والخياط

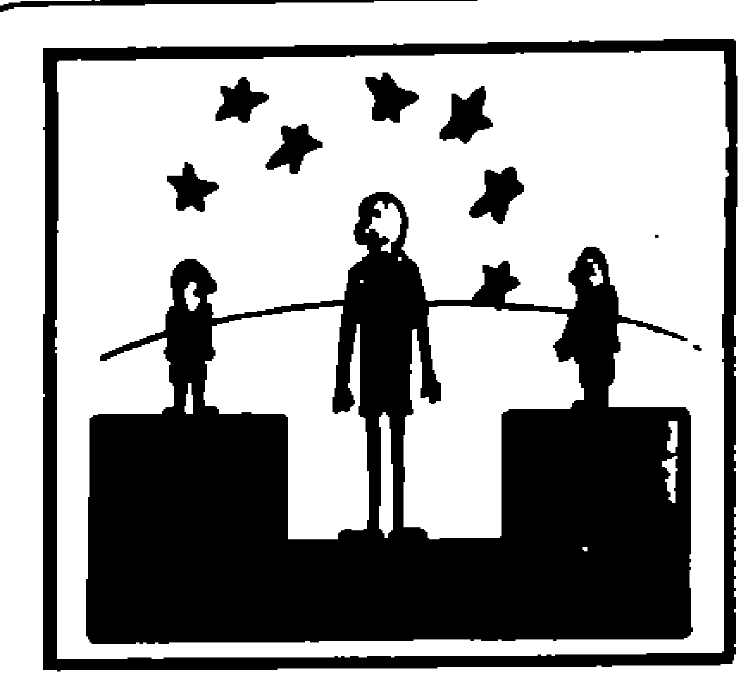
خرج نحويّ إلى مزرعة له ، وكان راكبا فرسه ، ووراءها مُهرها ، فأفلتت منه ومعها مُهرها ، فخرج يسأل عنها ، فمر بخياط فقال : ياذا النصاح وذات السم الطاعن في غير وغى لغير عِدى ، هل رأيت الخيفانة القباء ، يتبعها الحاسن المرهف كأن غرته القمر الأزهر ينير في حضره كالخلب الأجرد ؟ فقال الخياط : اطلبها في تزلخ . فقال : ويلك ، ما تقول قبحك الله ؟ فما أفهم رطانتك . فقال الخياط : لعن الله أبغضنا لفظا وأخطأنا منطقا . □□□

● نظافة

سمع سعد زغلول أحدهم يطعن في بعض الأشخاص الذين تنقلوا بين الأحزاب فقال لمن حوله : بالعكس ، فأنا أراه من أصحاب المبادىء النظيفة ، فدهش الحاضرون وسألوه : وكيف ذلك ؟

فأجاب : لأنه دائما يغيرها حتى لا تتسخ ! □□□





● صراحة

قل ما الذي يعني
إن قام زيد أو قعد
أو إن ذهبت ماشيا
أو راكباً نحو البلد
أو كان زيد مُبتدأ
أو فاعلا سدّ المسد
في النحو لا تقهرني
إلا تفاصيل العدد
والفعل التفضيل كم
قد شذ فيه وشرد
وغير هذا عُقَدْ
تبّا لهاتيك العُقَد
ترى بها قواعداً
بدون معنى أو زبد
مختومة جميعها
بـ «قس عليه ما ورد»





يرى فيها بعضهم ـ في الغرب ـ امتدادا ساكنا أخضر للجزء الأكبر والأكثر حركة من المانيا ، ذلك الجزء الذي تشغله جمهورية المانيا الاتحادية ، بكل صخب المصانع الهادرة على أرضها ، والأبخرة المتصاعدة من مداخنها ، والقوة الاقتصادية الهائلة التي تمثلها . يرى فيها هذا البعض ـ بحسن نية أو بخبث ـ الركن الهادىء الجميل الذي لم تلوثه الصناعة ! ولم يفسد أبناءه ثراء فاحش فهل هي كذلك حقا ؟

في مثل هذه الأيام ، منذ أربعين سنة خلت ، ظهرت إلى الوجود دولة جديدة في المانيا ، عرفت منذ ذلك الحين بجمهورية المانيا الديمقراطية ، تمييزا لها عن شقيقتها « اللدود » المانيا الاتحادية التي أعلن عن تأسيسها قبل ذلك بشهر واحد . ولقد أدى إلى ظهور هاتين الدولتين في الفترة القلقة التي تفصل بين صمت المدافع في الثامن من أيار « مايو » عام ١٩٤٥ ، وبين السابع من اكتوبر عام ١٩٤٩ ، صراع إرادات وأهداف استراتيجية لدول كبرى منتصرة ، كانت تتفق ـ حتى ذلك الحين ـ على أشياء كثيرة ، أبرزها تجزئة المانيا ، ففي ذلك تعزيز لأمن العالم ، كما كان الحلفاء يرون .

وحين وصلنا برلين ، في أول زيارة تقوم بها « العربي » إليها ، كان الوقت ظهرا والجو صحوا ، والشمس تتوسط سماء صافية إلا من بعض الغيوم . ولكن المطمئن إلى الصحو والشمس المشرقة في أوربا كالمطمئن إلى زوج لعوب ، كلاهما يكتشف ـ ولو بعد حين ـ أنه مخدوع ! فسرعان ما تكاثفت الغيوم ، وحجبت وجه الشمس ، وتساقط المطر ، على أن مطر الصيف ـ كسحاب الصيف ـ لا يلبث أن يزول ، متيحا بذلك فرصة للطواف في برلين ، بكل ما يجتمع لها من حسن المنظر وجمال العمارة وسعة الشوارع وفخامة المباني وروعتها ، فهي قديمة جديدة ، ولهذا القدم والجدة قصة ليست بعيدة عن ذاكرة الناس ممن يعون أحداث الثلاثينيات والأربعينيات . كانت برلين آنذاك واحدة من أعظم عواصم الدنيا وأشدها خطرا ، لا يكاد يصدر تصريح فيها حتى تجد أصداء له في أقصى بلدان العالم وأدناها . على أن برلين نفسها كانت تحمل في رحمها جنينا خبيثا ، لم تستطع التخلص منه إلا بعد حرب ضروس ، حصدت ملايين البشر ، وأتت على مدن بأكملها .

كانت برلين واحدة من تلك المدن الالمانية الكثيرة التي أصابها دمار الحرب . وليست الأربعون سنة الماضية من عمر الدولة الفتية إلا الامتداد الزمني للحركة الدائبة ، والجهد الإنساني اللذين لولاهما لما استطاعت برلين وغيرها ـ من المدن الألمانية ـ أن تبعث من جديد لتغدو مدينة سلام وأمن .

الأنقاض تملأ الطرق

قال جونتر بيرجنر ، معاون دائرة الصحافة في مجلس المدينة : « هدمت برلين تماما خلال

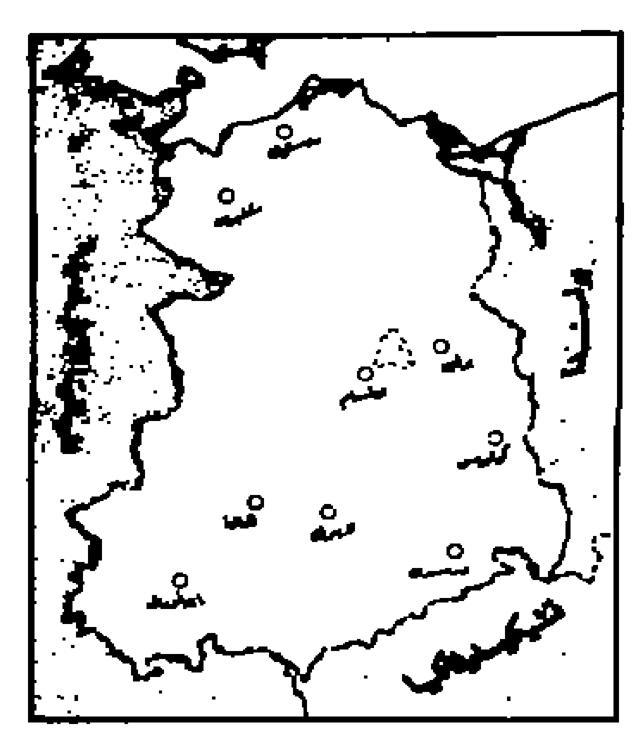
الحرب ، وتحول مركز المدينة إلى أنقاض تعوق الحركة . لم يكن فيها ماء ولا كهرباء ، وكان الناس ينامون على الأرصفة . كان التحدي الأكبر الذي واجهنا في ذلك الوقت هو إزالة الأنقاض وإعادة البناء والحياة » !

كان ينبغي للحياة أن تعود نشطة ، لمدينة ظلت تحفل بالحركة الدائبة في ميادين الإبداع الإنساني بعامة من ثقافة وفنون وعلوم وصناعة وتجارة ، على مدى تاريخ طويل . يرجع أول عهود المدينة إلى عام ١٣٠٧ ، حين اتحدت قريتا كولن وبرلين ، وتكون لهما مجلس بلدي مشترك . وفي أواسط القرن الخامس عشر عمل أمراء أسرة هوهنزولرن الأقوياء على إخضاع المدينة الصغيرة الناشئة ، وكانت تتمتع باستقلال نسبي ، بعيدا عن نفوذ النبلاء ، لكن برلين تأثرت كثيرا بحرب الثلاثين عاما الدينية ، بعد أن تورطت فيها بلدان عديدة في وسط أوربا ، وهي الحرب التي اتخذ منها الكاتب المسرحي الألماني الشهير ، برتولت بريخت ، خلفية مسرحيته المرموقة « الأم شجاعة وأولادها » .

بداية الظهور والتأثير

ظلت برلين على حالها دونما شيء يميزها عن غيرها ، إلى أن جاء أحد الأمراء من أسرة هوهنزولرن ، في أواخر القرن السابع عشر ، وأعلن نفسه ملكا على بروسيا ، واتخذها مقرا لإقامته ، وكان ذلك يؤذن ببدء جديد للمدينة .
حينئذ أخذت مظاهر التطور تأخذ سبيلها إلى العاصمة الفتية ، وتأسس الشارع العريق « اونتر دين ليندن » .

منذ عامين احتفلت برلين العاصمة بمرور ٧٥٠ سنة على تأسيسها ، وقد شهدت تغيرات كثيرة في مسيرها منذ نشأتها ، إلا أن التغيرات التي شهدتها في الأربعين سنة الماضية ، ومنذ أوائل السبعينات بخاصة ، كانت الأكثر أهمية .



● خريطة ألمانيا الديمقراطية والدول المحيطة بها .

وبفضل إعادة البناء أصبحت برلين أول مدينة صناعية في ألمانيا الديمقراطية . على أن اللافت للنظر هو حركة العمران الهائلة التي وفرت السكن اللائق لأكثر من ثمانمائة ألف مواطن . لقد تزايد عدد سكانها بسبب الهجرة من الأقاليم ، حتى بلغ الآن مليونا ومائتي ألف ساكن . ورافق هذه الزيادة إنشاء ثلاثة أحياء سكنية جديدة ، لتضاف إلى الأحياء الثمانية السابقة ، وتتوافر لكل منها مظاهر الحياة ولوازمها الكاملة ، ففي كل حي ما يخصه من رياض الأطفال والمدارس ونوادي الشباب والمسارح ودور السينما ، وكل ما تقتضيه رفاهية العيش ويسره .

سور برلين والبوابة الشهيرة

يندهش الزائر حين يرى كل أمارات القدم على الأبنية التاريخية التي هدمت في الحرب ، ثم أعيد

بناؤها مجددا ، فلا يخطر له على بال إلا أنها قديمة ، وذلك عائد إلى فن العمارة الحديث ، إذ يراعى في البناء أن يشهد على طراز العمارة القديم ، بحسب القرن الذي شيد فيه المبنى أول مرة . ثم تكتسب مولد البناء من حجارة رملية أو طابوق الألوان الداكنة التي يفترض أن توالي السنين قد تركها على الجدران القديمة ، والأمثلة كثيرة ، فالسائر في شارع اونتردين لينبدن العريق الذي يمتد شرقا ليصل إلى مركز برلين العاصمة ، ويمتد غربا مخترقا بوابة براندنبرج التي تقع اليوم في وسط سور برلين الفاصل بين شطري المدينة ، يرى المباني التاريخية المرممة . أو التي أعيد بناؤها . إن ذكر البوابة والسور يقتضي وقفة قصيرة للتحدث عنهما . لم تكن الحدود مغلقة بين الجمهوريتين الألمانيتين بعد تأسيس المانيا الديمقراطية ، بل ظلت الطرق مفتوحة والاتصالات جارية ، لكن هذه الحدود المفتوحة صارت مصدر خطر ومتاعب للدولة الناشئة ، فقد انتشرت المضاربات بالعملات وكانت هناك محاولات للتخريب والتهريب والحض على العصيان وإغراء الأيدي العاملة الاختصاصية على مغادرة البلد ، وقد ترتب على ذلك خسائر قدرت بعشرات المليارات من الماركات باتت تهدد التجربة الاقتصادية الجديدة بالفشل لذا عمدت الجهات المختصة في ألمانيا الديمقراطية الى فرض سيطرتها على هذه الحدود ، وباشرت بإقامة السور الذي يحيط ببرلين الغربية ليحكم السيطرة على حركة الدخول منها واليها .

صروح معمارية قديمة حديثة

إذا جاوزت بوابة براندنبرج ، واتجهت شرقا نحو مركز برلين العاصمة ، فسوف ترى المباني التاريخية التي تقدمت الإشارة إليها ، ومن تلك المباني جامعة همبولت العريقة التي أسسها العالم فيلهلم فون همبولت ، وتتلمذ فيها كارل ماركس ، وفريدريش انجلز ، وحاضر فيها فريدريش هيغل ، ورأسها في مطلع القرن التاسع عشر الفيلسوف فيشته ، ثم أكاديمية العلوم التي أسست في عام ١٧٠٠ ، وكان من أساتذتها المشهورين فيلهلم لايبنتس ، والعالم الفيزيائي الأكبر البرت آنشتاين ، صاحب النظرية النسبية ، وغيرهم ، وفي الجامعة لوحة تذكارية تجمع بين آنشتاين وبين عدد من الأساتذة .

يتبع جامعة همبولت مستشفى الشاريتيه المشهور الذي عمل فيه كبار الأطباء العلماء ، مثل روبرت كوخ ، مكتشف عصيات كوخ المسببة لمرض السل ، وكان هذا المستشفى قد تأسس في عام ١٧١٠ ، ثم تحول إلى مؤسسة تعليمية وتمريضية ذاعت شهرتها في أوربا والعالم .

على بعد أمتار من مبنى الجامعة يقوم مبنى دار أوبرا الدولة ذات التقاليد العريقة ، وقد تم ترميمها في عام ١٩٨٦ ، ثم المكتبة الحكومية الالمانية التي تحتفظ بالمخطوطات ، وبالطبعات الأولى لمشاهير العلماء والأدباء والفلاسفة ، وكانت قد تأسست في عام ١٦٦١ ، وتقتني من الكتب أكثر من ستة ملايين مجلد ، وفيها تحفظ مخطوطات للأمم المتحدة واليونسكو .

وبالقرب من ساحة الأكاديمية تم إعادة بناء دار التمثيل ، وهي أثر معماري عظيم أبدعه المهندس كارل شينكل ، وقد أعيد افتتاحها بعد الترميم في عام ١٩٨٤ ، لتكون دارا للحفلات الموسيقية والمقر الثابت للاوركسترا السيمفونية البرلينية . ويجتمع للسائر في شارع اونتردين لينبدن الاستمتاع بجماله وأناقته المعاصرتين ، وبالجلال الغابر الذي تنم مبانيه التاريخية عن بعض أسراره .

وفي مركز المدينة ، عند نهاية هذا الشارع ، نجد القصر الجمهوري ، ومبنى مجلس الشعب الملحق به ، وهو بناء حديث يمتاز بالأناقة وروعة

● بوابة براندنبرج التي تتوسط شارع أونتر دين ليندن ، والفاصل بين شرق برلين وغربها .



التصميم ، وهو - فضلا عن أنه المقر الرسمي لرئيس الدولة - مكان تقام في صالاته الفسيحة الرحبة حفلات ثقافية وعروض مسرحية وغنائية . وفي مركز المدينة أيضا مبنى المسرح الالماني ، وهو بناء يشبه في تصميمه دار أوبرا الدولة . وكان قد شيد في عام ١٨٨٣ ، وتم ترميمه وأعيد افتتاحه للجمهور .

معالم ثقافية

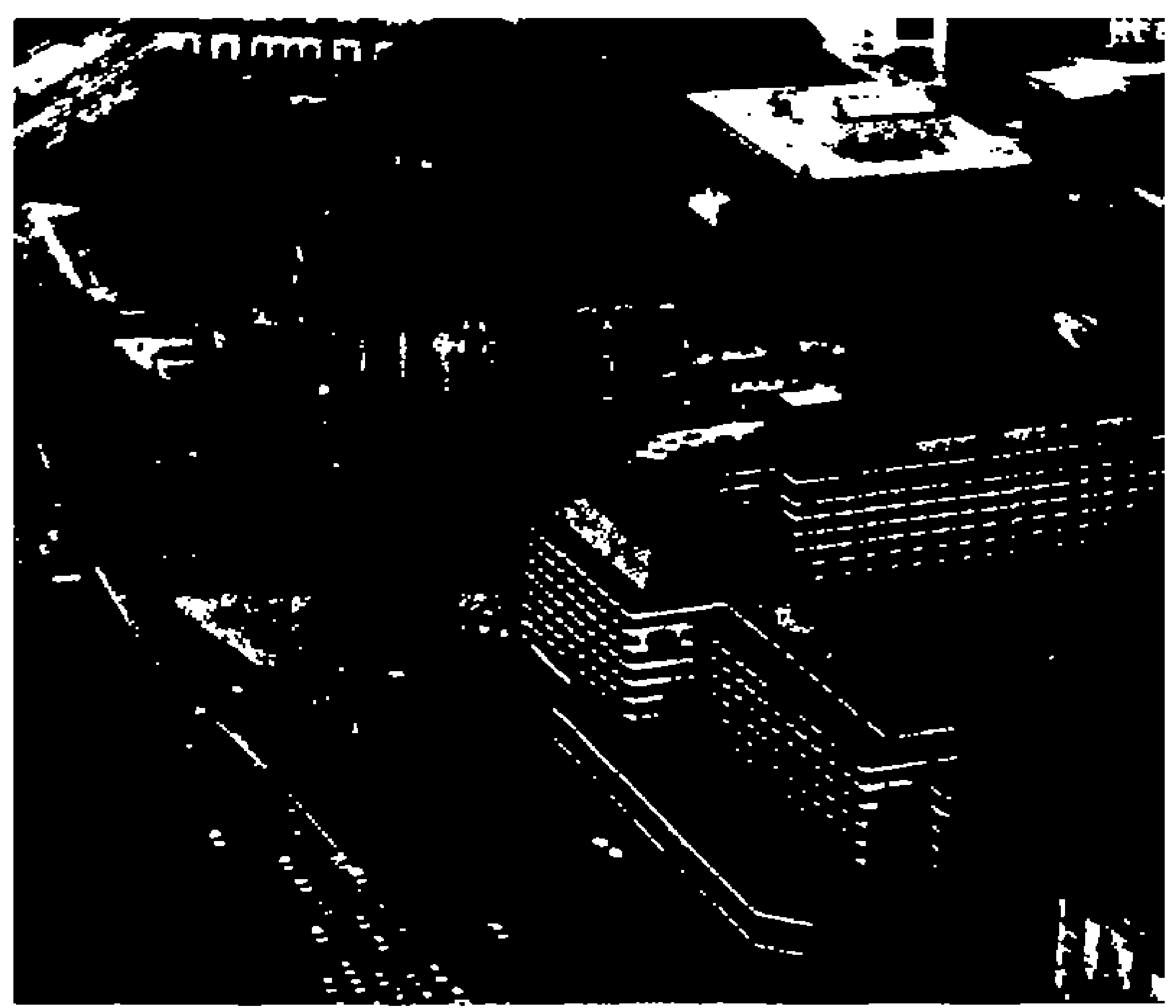
الحديث عن المسارح ودور الأوبرا والعروض الموسيقية حديث طويل ، فلكل من هذه الدور تاريخ عريق ، ولا يفوتنا أن برلين كانت ، منذ مطلع هذا القرن ، إحدى أهم العواصم الثقافية في أوربا ، حسبنا أن نشير إشارة عابرة إلى مسرح « البرلينر انسامبل » ، وهو مسرح بريخت الذي يعد مزارا يقصده رواد هذا الفن الجميل من بقاع مختلفة من العالم ، وهذا المسرح يقع في أحد الشوارع المهمة في برلين ، هو شارع « فريدريش شتراسه » الذي كان يعرف بشارع الفن في العشرينيات والثلاثينيات ، ففي مسارحه عمل كبار المخرجين العالميين : ماكس رينهارت ، وارفين بسكاتور ، وغيرهما ، وعزفت موسيقا هانز ايسلر ، وردد ألحانه الممثل والمغني المشهور ايرنست بوش ، ومثلت على مسارحه مسرحيات جيرهارت هاوبتمان ، وفرانك فيدكند ، ورواد المسرح التعبيري الذي انطلقت ثورته من ألمانيا في الربع الأول من هذا القرن . وفي هذا الشارع أيضا آخر بيت سكنه بريخت ، وقد تحول الآن إلى متحف ومركز للدراسات المسرحية . كما يقع فيه مسرح المنوعات المشهور ، وهو نموذج لما تقتنيه المسارح الحديثة من أجهزة تقنية .



● في وسط المدينة حيث يظهر برج برلين .

ومن المسارح ودور العرض إلى المتاحف التي يبلغ عددها في برلين وحدها ٢٤ متحفا . على الجهة اليمنى من شارع فريدريش شتراسه تقع جزيرة المتاحف ، وفيها متحف بوده الذي يحمل اسم العالم فيلهلم بوده ، وهو المتحف المختص بالآثار التي ترجع إلى بدايات العصر المسيحي البيزنطي ، وفيه أجنحة يكاد كل منها يكون متحفا قائما بذاته ، من ذلك مثلا المتحف المصري الذي يحتوي آثارا من مصر القديمة ، ومتحف التماثيل ، ومعرض اللوحات ، ثم هناك متحف عصر ما قبل التاريخ ، ومتحف بير جامون الذي يحوي آثار مدينة يونانية قديمة . وأكثر ما يلفت النظر هو متحف الشرق الأدنى الذي بني في عام ١٩٠٣ ، وفيه آثار عربية وإسلامية عديدة . وتعد بوابة عشتار من أهم مقتنيات هذا المتحف . تقول المسؤولة عن جناح الشرق الأدنى : « نقلت بوابة عشتار البابلية إلى ألمانيا في





● منظر برلين من البرج ، حيث يبدو شارع اونتر دين لندن ، وفي وسطه سور برلين وبوابة براندبرج الفاصلة بين شرق المدينة وغربها .

العشرينيات . وأسود بابل هذه أصلية ، وقد أحيطت ببناء حديث ، تشبه ألوانه الألوان الأصلية .

انظر إلى هذه الكتابة ، إنها كلمات نبوخذ نصر التي يقول فيها :

« أنا الملك الذي بنى هذه المدينة . . . ! »

عودة إلى المركز

مركز برلين القديمة يكاد يكون متحفا ، فهو الجزء الذي يعد النواة الأولى للمدينة ، وقد أصابه الدمار في الحرب ، وفيه مجلس المدينة ، وكنيسة نيقولاي ، ويسمى كله « حي نيقولاي » ، وقد حظيت مجموعة المباني القائمة فيه باهتمام خبراء من بلدان عديدة . على هذه البقعة القديمة تقوم مجموعة متناغمة من المباني التاريخية القديمة ، وأخرى جديدة تتناسب معها ، وفي هذا الحي يسكن حوالي ١٦٠٠ مواطن في مساكن جديدة ، وتنتشر فيه المطاعم ومقاهي الرصيف الجذابة . أما كنيسة نيقولاي - أقدم بناية في برلين - فهي تشغل وسط الحي ، وقد أعيد بناؤها في بداية الثمانينيات ، على نحو

يتفق وما كانت عليه قبل الهدم . وكان قد تم تركيب قمتي برج الكنيسة ، البالغ ارتفاع كل منها ٤٣ مترا ، على الأرض أولا ، ثم رفعتا بآلة رافعة ، وركبتا على البرج الضخم . ومن المباني القديمة الأخرى في هذا الحي قصر ايفرايم الذي يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وكذلك دار المحكمة الصغيرة التي يرجع تاريخ بنائها إلى العصور الوسطى .

برلين الحديثة

قد يتبادر إلى الذهن أن مباني برلين كلها أثرية قديمة ، وهذا نصف الحقيقة ، أما نصفها الآخر فتمثله برلين الحديثة بمصانعها ومتاجرها وشوارعها الواسعة الممتدة ، ومنها شارع كارل ماركس ، وشارع ليبكنشت ، وشارع لينين ، وشارع لايبزك ، وغيرها من الشوارع العديدة التي تنتشر على جوانبها الأحياء السكنية الجميلة ، وتلتقي في ساحات عامة متعددة ، أشهرها ساحة الاكاديمية وساحة اليكسندر ، وفيها الساعة العالمية التي تبين التوقيت في بلدان مختلفة .

وفي ركن من هذه الساحة تمثال صغير للرسام هاينرش تسيله الذي تميزت رسومه بتصوير الحياة العامة ، ووصف العلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس في برلين في مطلع هذا القرن ، تلك الرسوم التي ما زالت تحظى باهتمام الجمهور حتى الآن .

وفي برلين من الحدائق والبقع الخضراء ما يشغل مساحة من الأرض تقدر بحوالي ١٨٠٠ هكتار ، فضلا عن الغابات التي تغطي مساحة تقدر بـ ٧,٧٠٠ هكتار مربع ، ويضاف إلى كل ذلك بحيرات تبلغ مساحتها ٧٤٠ هكتارا مربعا ، وفي مقدمة تلك الحدائق حديقة حيوان برلين المترامية الأطراف ، وفي وسطها قصر فريدر يشفيلده الفخم الذي أعادته أعمال الترميم ، إلى

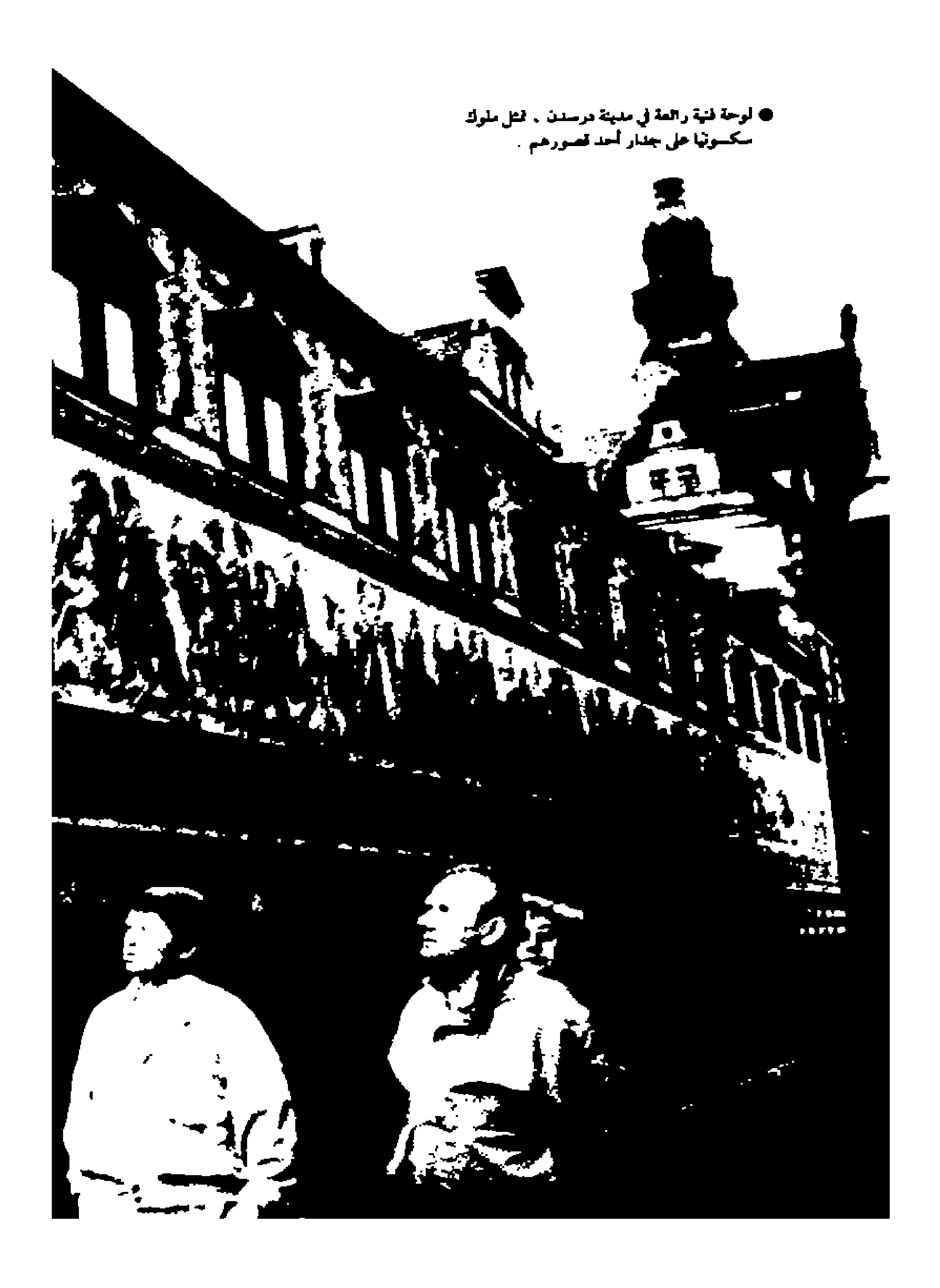


● بقايا كنيسة في درسدن ـ مدينة الثقافة والفن ـ وقد هدمت في الحرب .

ما كان عليه من روعة قبل أن تصيبه ويلات الحرب . أما الحدائق الصغيرة المتناثرة فلا يكاد يخلو منها شارع .

الطريق إلى بوتسدام

بوتسدام مركز محافظة ، يبلغ عدد سكانها حوالي مليون و١٢٠ ألف مواطن ، يعمل ٣١٪ منهم في الصناعة ، و١٦,٤ ٪ في الزراعة . يرجع تاريخ تأسيس هذه المدينة إلى القرن الرابع عشر . ولم تبلغ شأواً في التطور الحضري



● لوحة فنية رائعة في مدينة درسدن ، تمثل ملوك سكسونيا على جدار أحد قصورهم .

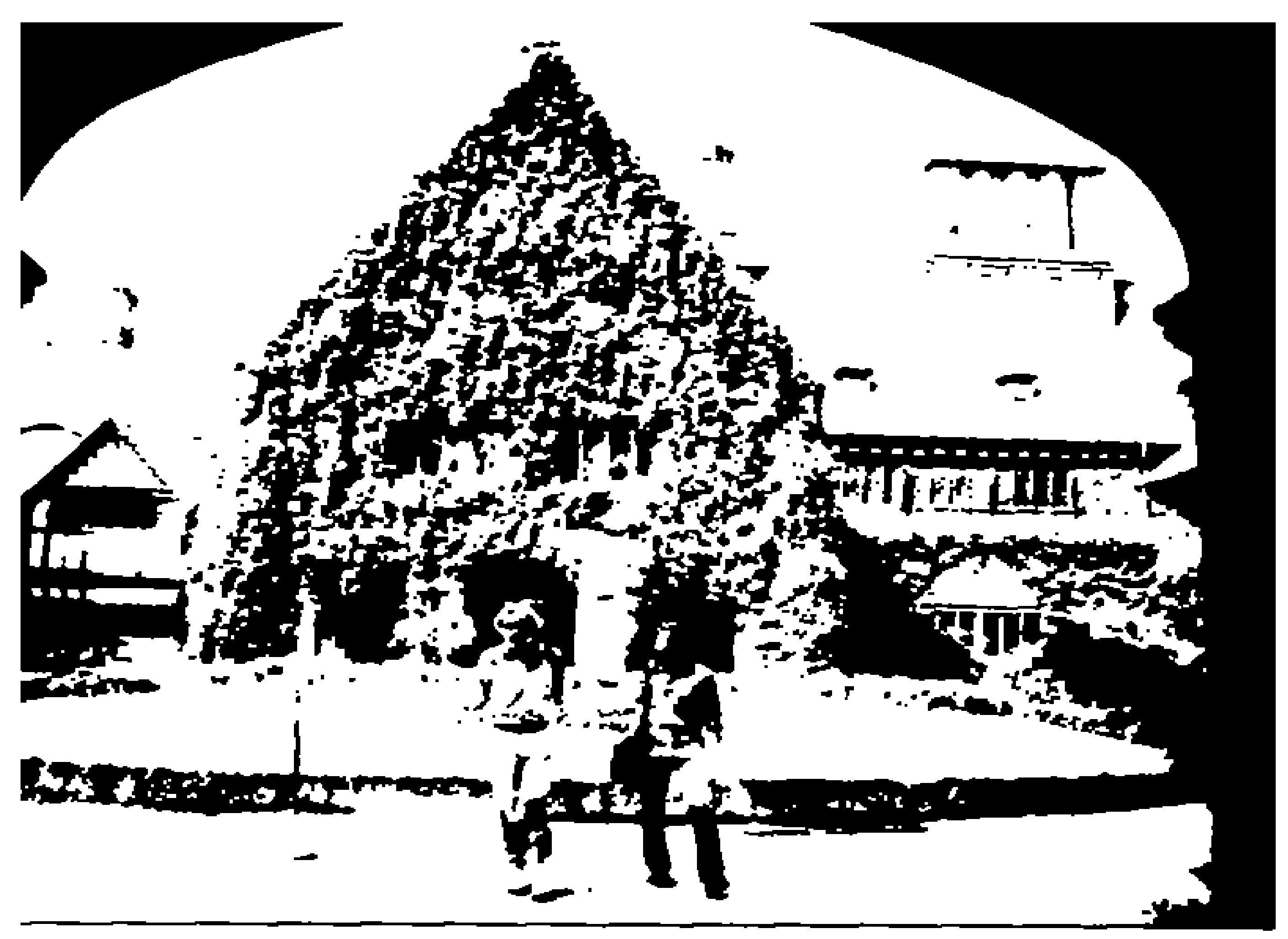
حتى القرن السابع عشر ، عندما اتخذت منها أسرة هوهنتزلورن الحاكمة المقر الثاني بعد برلين . كانت المدينة آنذاك أشبه بمعسكر ، حيث يشكل الجنود غالبية السكان . وفي القرن الثامن عشر أخذت تكتسب مظهرها الذي تبدو عليه الآن ، فشيدت قصور الملوك البروسيين ، وفي مقدمتها قصر سان سوسي وحدائقه البديعة ، وقصر نيوبلاس ، وبيت الشاي الصيني ، ثم أعقب ذلك تشييد الحمامات الرومانية والأبنية التاريخية الأخرى في الحدائق الفسيحة الواقعة غرب المدينة . ولكن الحرب لم تبق من الأبنية التاريخية الكثير .

إن الزائر ليدهشه جمال الطبيعة من أنهار صغيرة وبحيرات وحدائق بديعة ، وفي مقدمتها حديقة سان سوسي التي اشترك في تصميمها مهندسون فرنسيون وآخرون من انجلترا ، وذلك كله يوفر متعة الطواف بالقوارب في حضن الطبيعة الهادىء .

تعرف بوتسدام بشيئين يتداعيان إلى الذاكرة كلما ذكر اسم المدينة ، هما : روح بوتسدام ، ومعاهدة بوتسدام التي استسلمت المانيا الهتلرية بموجبها للحلفاء المنتصرين ، دون قيد أو شرط .

أما روح بوتسدام فهي الروح العسكرية الالمانية على النمط البروسي . وقد تطورت عبر مرحلة تاريخية ، تمت خلالها بروسيا ، لتصبح أقوى ولاية المانية ، وصارت رمزا للتسلط الذي مارسته قيادتها المكونة من الارستقراطية الالمانية وأصحاب الأملاك والعسكريين الكبار الذين تحالفوا مع الرأسمالية الحديثة . وعندما تمت الوحدة الالمانية ، بقيادة بروسيا في عام ١٨٧١ ، عملت السلطة على إشاعة تلك الروح في المانيا كلها . وقد أخذ أنصار هذا الاتجاه يكتشفون في أنفسهم ميلا للسيطرة على العالم . كانوا هم أنفسهم الذين أذكوا حماسة الروح الاستعمارية في المانيا بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى ، ثم





● قصر شلوس سيسيليا نهوف في بوتسدام الذي وقعت فيه معاهدة استسلام ألمانيا .

جاء النازيون إلى السلطة في عام ١٩٣٣ ليتمثلوا تلك الروح . أما الشيء الآخر الذي تعرف به المدينة فهو معاهدة الاستسلام . كان المتحالفون الكبار في الحرب ضد هتلر قد ناقشوا في اجتماعاتهم التي عقدوها في طهران ويالطا الشكل الذي سوف تكون عليه ألمانيا وأوربا بعد الحرب . وفي شهر تموز « يوليو » ، وآب « أغسطس » من عام ١٩٤٥ ، بعد الهزيمة الساحقة التي منى بها النازيون ، اجتمع رؤساء الدول المنتصرة الثلاث في قصر « شلوس سيسيليانهوف » في بوتسدام ووقعوا المعاهدة التي وضعت حداً لروح العداء ، وفرضت - في الوقت نفسه - شروطاً على الشعب الألماني ، كان يقصد بها تأمين الديمقراطية وتحويله إلى شعب مسالم .

بين الشمال والجنوب

إن التكامل الاقتصادي الذي كان يقوم بين غرب ألمانيا الصناعي وشرقها الزراعي قبل الحرب ، يقوم الآن بين الشمال والجنوب ، ففي الوقت الذي ترجح فيه كفة الصناعة على الزراعة في برلين ومحافظات الجنوب ، ترجح كفة الزراعة على الصناعة في محافظات الشمال . على أن الأدبيات الاقتصادية الحديثة تشير إلى جنوح قوي نحو الصناعة ، فهي تعد الآن القطاع الاقتصادي القائد في ألمانيا الديمقراطية . ويقتضي التنويه إلى أن المصانع القائمة التي يبلغ عددها حوالي ٦٢٠٠ مصنع هي ملكية شعبية ، وقد اجتمعت غالبية هذه المصانع في ١٥٦ مجمعاً

صناعيا ، تنتج حوالي ٧٠٪ من الدخل القومي . ويعمل في الحقل الصناعي أكثر من ثلاثة ملايين مواطن .

ويستكمل الانتاج الصناعي الكبير من خلال ٨٦ ألف مؤسسة تعاونية وحرفية خاصة ، بالدرجة الأولى في البناء والسلع الاستهلاكية ، وأعمال الخدمات . أما المراكز الصناعية التي تسهم إسهاما فعالا في الإنتاج الصناعي ، فهي العاصمة برلين ومدن هاله ولايبزك وكارل ماركس شتادت ودرسدن وكوتبوس . وتعلق جمهورية المانيا الديمقراطية أهمية كبيرة على علاقاتها مع الأطراف الأخرى في مجلس التعاضد الاقتصادي (المجموعة الاقتصادية للبلدان الاشتراكية) ، وترى في ذلك حافزا على التنمية الصناعية ، وتنظم هذه العلاقات اتفاقيات اقتصادية تظل سارية المفعول حتى عام ١٩٩٠ .

البداية من الصفر

قلت للدكتور هوينه : ما تقويمك للتجربة الاقتصادية والصناعية بوجه عام ؟

- إن أربعين سنة من تطور دولة هي فترة طويلة نسبيا ، ولكنها تعني تطورا مستمرا لبلدنا . كانت البداية صعبة ، فقد بدأنا من الصفر . دمرت معظم المؤسسات الاقتصادية في الحرب ، وتحولت مدننا وقرانا إلى أنقاض . كنا بحاجة إلى كل شيء ، وكان علينا تغطية احتياجات مواطنينا . أكثر ما كان يؤرقنا هو المقارنة بيننا وبين المانيا الاتحادية ، فالصناعات كلها كانت قائمة هناك ، ولم يكن لدينا منها شيء ، لذلك ركزنا جهودنا على خلق الصناعات الثقيلة وتطويرها . أما الآن فإننا ننظر إلى تجربتنا بارتياح ، فقد بلغنا مستوى ملحوظا في كل مجالات الصناعة ، وتعد المانيا الديمقراطية اليوم الدولة العاشرة بين الدول المتقدمة صناعيا في العالم .



● مطعم الجرو المشهور في مدينة درسدن وهو مطعم خاص .

لا يضيرنا أن نجلس في العربة العاشرة من القطار ما دمنا لم نتخلف عن الركب . ولا ننسى أننا بدأنا قبل أربعين عاما من نقطة الصفر !

هذه العبارة يكاد الزائر يسمعها من كل مسئول : فهو في الوقت الذي يتحدث فيه بكثير من المرارة عن أيام البداية ، يتحدث بكثير من الاعتزاز والثقة بالنفس عن الحاضر والمستقبل .

لفت انتباهي في حديث الدكتور هوينه قوله : « أكثر ماكان يؤرقنا هو المقارنة بيننا وبين المانيا الاتحادية » .

وأدركت مدى الحساسية التي تنطوي عليها هذه المقارنة ، حيث يبدو النظام الاقتصادي في الغرب هو الأكثر نجاحا ، والأوفر حظا في التفوق . ولهذا التفوق أسباب موضوعية ، ينبغي للمنصف ألا يغفل عنها ، منها أن غرب المانيا



● في مدينة بلوتسن في الجنوب حيث يحتفل الصربيون الألمان بالزفاف .

كان ـ تاريخيا ـ مركز الصناعات الألمانية ، في حين كان شرق ألمانيا ـ تاريخيا ـ مركزاً مهماً للزراعة . وليس غريباً ـ إذن ـ أن تكون ألمانيا الاتحادية دولة صناعية متطورة . ولكن التطور الصناعي الكبير الذي حققته ألمانيا الديمقراطية ـ وقد بدأت من الصفر كما مر بنا ـ يعد إنجازا مهما . ثم إن تعداد السكان في ألمانيا الاتحادية يجاوز ٣٥ مليونا ، في حين يقترب عددهم في ألمانيا الديمقراطية عن ١٧ مليون نسمة . وهناك عامل على جانب كبير من الأهمية ، وهو أن جزءا كبيرا من أموال مشروع مارشال الأمريكي الذي خصص لدعم أوربا الغربية بعد الحرب قد اتجه إلى ألمانيا الاتحادية ، فأثر في الإسراع بإعادة بناء الاقتصاد ، في الوقت الذي اعتمدت فيه ألمانيا الديمقراطية على مواردها ، وعلى دعم من الاتحاد السوفيتي .

مجمع الشاحنات

على بعد مائة كيلومتر جنوب برلين تقوم المنشآت الضخمة لمجمع الشاحنات في مدينة لودفيج شفيلده . ينتج هذا المجمع عدة أنواع وأحجام من الشاحنات والقلابات هي IFAW50, IFAL60 ، وكذلك ينتج شاحنتين أخريين ، إحداهما بحمولة ٣ أطنان والأخرى بحمولة طنين ، وينتج كذلك عربات تجر الشاحنات ، ورافعات . يقول مسئول المصنع كلاوس جوريك ، تم إنشاء هذا المجمع في عام ١٩٧٨ ، يتألف من ٢٦ مصنعا ، موزعة على تسع محافظات .

نحن ننتج سنويا حوالي ٣٠ ألف شاحنة . وهذا العدد يضعنا في مصاف أكبر المصانع



● في حديقة الطلائع للأطفال يقام في أول يونيو احتفال سنوي وعروض غنائية

الموجودة في مكان واحد في وسط أوربا . ويقول المسؤول التجاري ايكهارد ريختر : يمكن القول بأن الأقطار العربية من أهم المستوردين لمنتجاتنا ، وأعني بذلك سوريا والأردن والعراق وغيرها ، وذلك بالإضافة إلى إيران والصين ، وقد صدرنا للأخيرة ٧٠ ألف شاحنة حتى الآن .

الثورة الخضراء

ومن حديث الصناعة إلى حديث الزراعة ، فهما معا دعامتا الاقتصاد في كل بلد . طرأ على الزراعة تحول جذري بعد عام ١٩٤٥ ، فقد انتزعت الملكية من كبار مالكي الأراضي بفضل الإصلاح الزراعي ، ووزعت على من يفلحون الأرض ويزرعونها ، أي على العمال الزراعيين السابقين ، وعلى صغار الفلاحين . وسرعان ما اتضح أن إمكانية تحقيق زيادة في الإنتاج واستخدام التقنية العصرية في إطار مزارع فلاحية صغيرة أمر متعذر . لذلك لجأ الفلاحون منذ الخمسينيات إلى تشكيل تعاونيات للإنتاج الزراعي ، وعلى هذا النحو تم الانتقال التدريجي إلى الإنتاج الزراعي الكبير الذي تستخدم فيه أساليب صناعية عصرية . وفي الوقت نفسه طرأت على حياة الفلاحين أساليب جديدة للعيش ، تزيل الفروق التي تقوم عادة بين أهل الريف وسكان المدن . وتتوافر اليوم لأطفال الفلاحين فرص التحصيل العلمي نفسها وإمكانياته ، بقدر ما تتوافر لأطفال المدن .

طرأت تحولات كبيرة على حياة الفلاحين . فالفلاح التعاوني يحصل على إجازة سنوية مدفوعة الأجر . وتشيد البيوت السكنية في الريف عن طريق البناء الذاتي للمساكن ، وتقدم الدولة القروض لهذا الغرض . أصبحت دور الحضانة ورياض الأطفال منتشرة في جميع القرى ، وتسهل مرافق الخدمات العامة والأسواق الكبيرة والمطاعم والنوادي والمرافق الرياضية الحياة في الريف ، وتجعلها أكثر متعة . كما تتوافر لسكان الريف العيادات الشعبية ومراكز الممرضات القروية ، ضمانا للرعاية الصحية .

الحرف اليدوية

كانت الجولة في مجمع الشاحنات زيارة ميدانية لنوع من الصناعات الكبيرة . لكن هناك قطاع مهم آخر ، ينتمي إلى الصناعة لأكثر من سبب ، وهو الحرف اليدوية . تقول الإحصائيات الرسمية : إن هناك حوالي نصف مليون من الحرفيين وأصحاب المهن الحرة ، بين سبعة ملايين عامل في ألمانيا الديمقراطية ، وهم يحتلون مكانا راسخا في الحياة العامة ، وفي هيكلة الاقتصاد الوطني . ويقوم قطاع الحرف اليدوية



● مبنى جامعة كارل ماركس في مدينة لايبزك .

حاليا بتنفيذ أكثر من ثلثي الخدمات العامة وأعمال التصليح . ومن المقرر أن تزداد الخدمات حتى عام ١٩٩٠ بنسبة ٢٨٪ مقارنة بعام ١٩٨٥ . إن التجهيز المتنامي للمنازل بسلع استهلاكية ذات قيمة عالية ، والاحتياجات الجديدة لقضاء وقت فراغ مفيد ، وتنفيذ برنامج شامل لبناء المساكن ، مع نسبة عالية من أعمال الترميم والتحديث ، كل ذلك يؤدي إلى زيادة الطلب على خدمات الحرف اليدوية .

وهي في المانيا الديمقراطية على نوعين : فهناك مؤسسات وورش للحرف اليدوية العاملة تعاونيا أو لحسابها الخاص . ويوجد حوالي ٢٧٠٠ تعاونية إنتاجية للحرف اليدوية ، تضم ١٦٣ ألف عضو ، وهي تستفيد من الملكية التعاونية للإنتاج على أساس نظام خاص بها . ويحصل كل الأعضاء سنويا على نسبة من الربح ، إلى جانب الأجور التي يتقاضونها .

في درسدن زرنا غرفة الحرف اليدوية (على غرار غرفة التجارة) ، والتقينا مديرها الذي قال : لدينا ١١ ألف مصنع خاص (أي ملكية خاصة) ، و٢٦٦ تعاونية إنتاجية ، وقد تكونت هذه التعاونيات الإنتاجية من تجمع الحرفيين التعاونيين والحرفيين الذين يعملون لحسابهم الخاص . والتعاونية شكل من أشكال التنظيم ، يوفر للحرفيين كل ما يحتاجونه من المواد الخام .

والحرفيون يفيدون من التقدم العلمي ، فينتج المختصون منهم مكائن لطب العيون ، ومختبرات طبية ، وآلات موسيقية ، وغير ذلك كثير .

مطعم المترو (٦)

وفي المساء زرنا مطعما خاصا ، أي ملكية خاصة ، كل ما فيه طريف ، مدخله الذي يتكون من نصف عربة مترو ، ومقاعده ، وهي



● بوابة عشتار البابلية في متحف بيرجامون ببرلين

مقاعد مترو « مقاعد » ، وقبعات الجباة المعلقة على عمود معدني يجاوز عددها مائة وخمسين قبعة ، وجدرانه التي كتب عليها المشاهير من رواده عبارات للذكرى مشفوعة بالتوقيع . ثم غرفة قيادة المترو . وقد وضعت في صدر المطعم ، ويبدو أنها حجزت لنا (أنا وزميلي المصور والمرافق) لأننا ضيوف قادمون من بلد صديق بعيد !

على أن الطرافة والذكاء وسرعة البديهة وروح الدعابة الساخرة تتمثل كلها في صاحب المطعم كارل هينز بيلمان . ويبدو أن صاحب المطعم كان سائقاً « للترام » في يوم ما ، أو كان محبا للركوب فيه ، لذلك جعل مطعمه يتخذ شكل عربة « ترام » . حيثما تلتفت تجد قطعة معدنية عليها حرف (H) ، وهو بالالمانية مختصر لكلمة « ترام » . وقد ذاع صيت هذا المطعم وصيت صاحبه ، فكتبت عنه صحف في بلدان مجاورة ، لذلك ليس غريباً أن تجد فيه ضيوفاً من تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا والمانيا الاتحادية ، فضلا عن ضيوفه القادمين من مدن المانية متعددة . شعار المطعم (٦ × ٦) ، وفي السادس من الشهر السادس يحتفل بعيد إنشائه السادس ، لذلك يقوم بطلاء أجساد ٦ فتيات بدلا من إضاءة ٦ شموع .

أما حديثه فيستغرق أكثر من ساعة ، هي كلها وقت للضحك والفكاهة ، ولا يخلو الأمر من تعليقات سياسية كقوله :

هناك أناس غادروا جمهوريتنا ، في وقت ما ، إلى المانيا الاتحادية (إلى الغرب) ، وهم الآن يبكون لأنهم أدركوا أن الشمس تشرق في الشرق أبدا !

وتعد مؤسسات الحرف اليدوية الخاصة



● فتيات يحتفلن باليوم الأول من يونيو في حديقة الطلائع ببرلين .

مؤسسات صغيرة تابعة غالبا لملكية عائلية . تضم الواحدة منها عشرة من العمال ، كحد أقصى . ويوجد حاليا أكثر من ٨٠ ألف مؤسسة ، يعمل فيها حوالي ٢٦٠ ألف عامل .

أصدقاؤنا العرب

لا يسع العربي أينما ذهب إلا أن يبحث عن أشقائه العرب : أماكن وجودهم ، طبيعة الأعمال أو المهام التي أتت بهم حيث هم ، العلاقات القائمة بينهم وبين مضيفيهم من مواطني البلد الذي يوجدون فيه ، آثارهم الباقية ، وما إلى ذلك من شئون . ومن ثم من أشقائنا في جمهورية ألمانيا الديمقراطية مثل الصديق الدكتور عادل قرشولي ؟ ولكنه في لايبزك ! وماذا في ذلك ؟

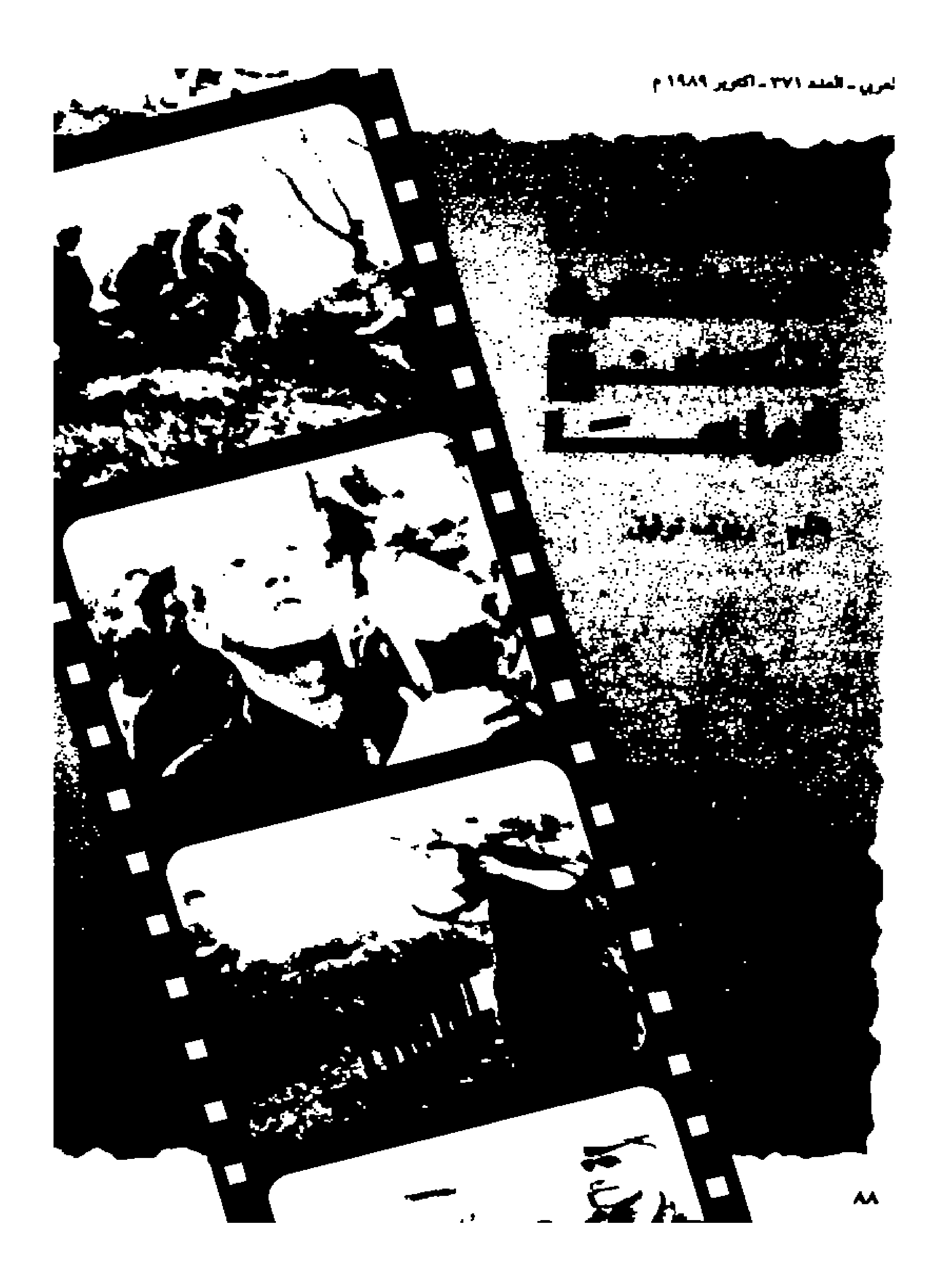
إنه عربي من سوريا ، وقد مضى على إقامته في ألمانيا الديمقراطية قرابة ربع قرن ، ويعمل أستاذا في مركز الدراسات العربية والافريقية التابع لجامعة كارل ماركس في لايبزك ، وله مؤلفات عديدة بالألمانية شعرا ونثرا . كان اللقاء في مركز الدراسات بالجامعة ، وقد شارك فيه البروفسور بريسلر ، المستعرب اللامع ، ورئيس المركز ، والدكتور شولتز . قال البروفسور بريسلر معرفا بالمركز : هو مركز للبحوث ، ولتدريس اللغة العربية وآدابها في المجال العربي ، وللبحوث المتصلة بأفريقيا غير العربية . يعمل فيه عدد من المختصين في العلوم الاجتماعية المختلفة ، منهم المؤرخون والاقتصاديون والحقوقيون ، ومختصون بالثقافة والأدب . وعددهم أكثر من مائة باحث ، منهم المستعربون ومنهم المختصون بالشؤون الافريقية والهند ومصر القديمة والصين .

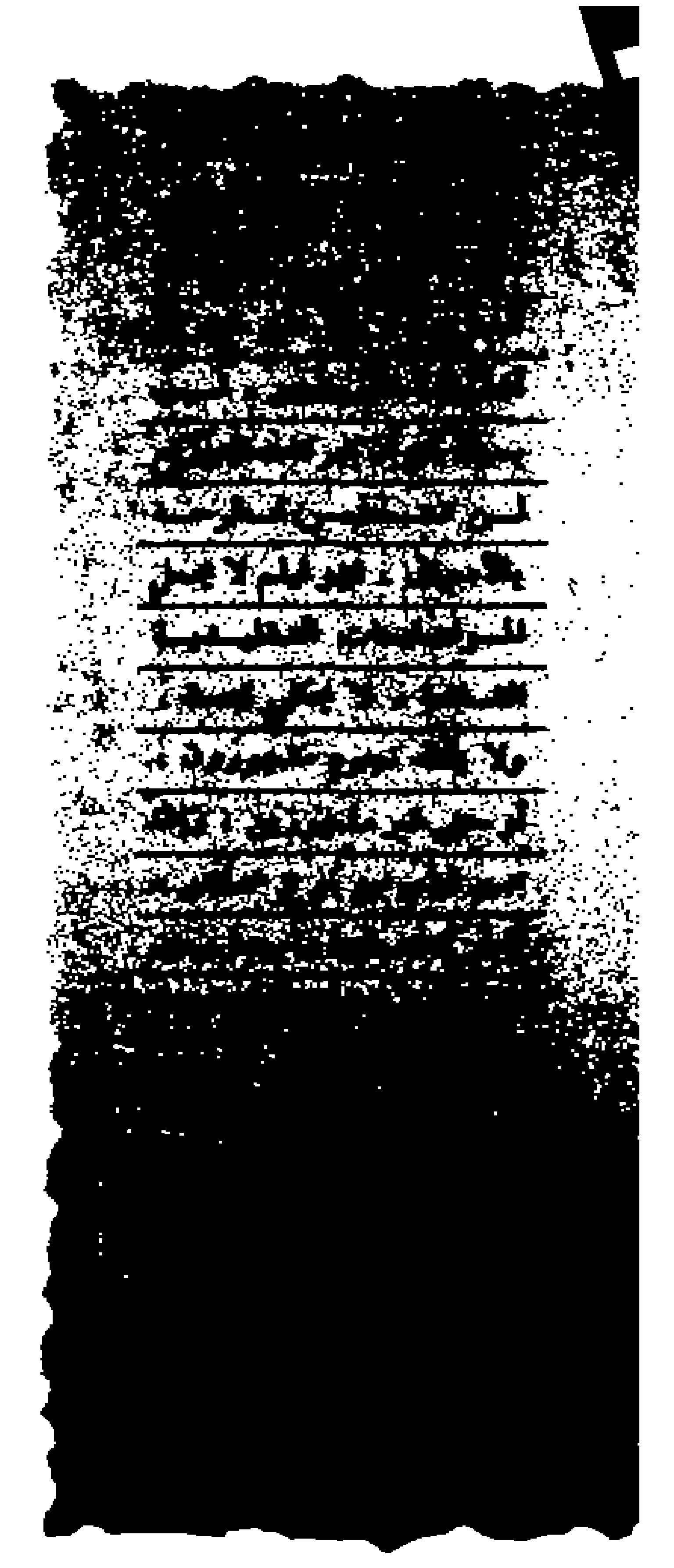
أما الدكتور قرشولي فقد قال في لقاء خاص : العرب في ألمانيا الديمقراطية جالية صغيرة ، أغلب أفرادها من الطلبة الموفدين ، وهم ملزمون بالمغادرة بعد انتهاء الدراسة . وهناك عدد قليل جدا غيرهم ممن يعملون إما أساتذة في بعض الجامعات ، أو يقيمون في ألمانيا لأنهم أزواج لسيدات ألمانيات ، ويقومون ببعض الأعمال الخاصة .

أما صورة العلاقات الرسمية التي تربط ألمانيا الديمقراطية بأقطار الوطن العربي ، فقد تحدث عنها وعن غيرها من الشؤون الألمانية الدكتور هاينتس ديتر فينتر ، نائب وزير الخارجية الذي استقبلنا في مكتبه بوزارة الخارجية في برلين ، فقال :

على الرغم من وجود علاقات دبلوماسية واقتصادية مع أكثر الأقطار العربية فإننا نتطلع دائما إلى تطويرها والوصول بها إلى مستوى أفضل . لنا علاقات وطيدة مع دولة الكويت مثلا ، فقد زار الرئيس هونيكر دولة الكويت في عام ١٩٨٢ ، وقام الشيخ صباح الأحمد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الكويتي بزيارة برلين في عام ١٩٨٦ . وهناك لجان مشتركة تبحث مسائل اقتصادية مع الكويت وسوريا والعراق ومصر . وقد وقفنا مواقف مؤيدة للقضايا العربية ، ونحن نتفهم المشكلات الناجمة عن استمرار الحرب العراقية الإيرانية ، وطالبنا بإيقافها والاحتكام إلى قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ . ولنا موقف مؤيد لحقوق الشعب الفلسطيني . وقد كان للمنظمة مكتب في برلين ، ولكننا حولنا المكتب إلى سفارة دولة فلسطين بعد إعلان الدولة ، وكنا من أوائل المعترفين بدولة فلسطين .

لقد عقد في برلين مؤتمر من أجل عالم خال من الأسلحة النووية ، حضرته وفود عربية عديدة .
قال نائب الوزير : أنا أعلم أن « العربي » تصل إلى أقطار الخليج وإلى كل الأقطار العربية ، لذلك أرجو نقل صورة وافية عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية إلى قراء « العربي » . وعدته خيرا وودعت مغادرا . . ! □





عنوان الفيلم : « عزيزي أمريكا .. خطابات شخصية من فيتنام » أنتجته إحدى محطات التلفاز الأمريكية ، وعرضته في البداية ، داخل بعض المهرجانات السينمائية الدولية ، وأحد المؤتمرات التي تندد بسياسة الحروب ، ثم عرض بعد ذلك في عدد من دور السينما ، الصغيرة الحجم ، في أمريكا وأوربا ، للسبب نفسه ، إنه فيلم لا يجذب الجمهور الكبير الذي تعود على نوعية معينة من الأفلام .

وعلى الرغم من ذلك فقد عد المحللون هذا الفيلم ، من أكثر الأفلام صدقا وواقعية عن حرب فيتنام ، وما تعرض له الجنود الأمريكيون في تلك الحرب التي وصفها المؤرخون والباحثون بأنها من أبرز العورات في تاريخنا المعاصر ، وأنها وصمة في جبين البشرية .

لماذا الخطابات الشخصية ؟

والفيلم كما يُفصح عنه عنوانه ، يعتمد على الخطابات الشخصية التي أرسلها الجنود الأمريكيون إلى الأهل والأصدقاء أثناء الحرب الفيتنامية . ومادة الفيلم مأخوذة أصلا من كتاب يحمل العنوان نفسه ، ويعد من أكثر الكتب توزيعا في أمريكا ، ومؤلفه « برنارد ايدلمان » .

جاء المخرج الامريكي « بيل كوتيري » فاختار ستين خطابا من هذه الخطابات ليجسدها بالصوت والصورة ، مستعينا بمختارات من الأفلام الوثائقية التي صُوِّرت واقعها أثناء الحرب الفيتنامية .

• كما اتصل المخرج بأصحاب تلك الخطابات التي جاء ذكرها في الكتاب ، سواء أكانوا هم على قيد الحياة ، أم أحد من عائلاتهم ، لكي يحصل منهم على الصور « الفوتوغرافية » التي كانوا يرسلونها لهم من مواقعهم العسكرية على أرض فيتنام .

ثم انتقل المخرج بآلات التصوير إلى بعض



● جنود امريكيون يلهون بجماجم ، صورة من مخلفات احد الجنود القتلى بفيتنام

تلك المنازل الامريكية التي فقدت أبناءها في هذه الحرب ، ليصور متعلقاتهم الشخصية في حجراتهم الخاصة ، عندما كانوا ينعمون بدفء الأسرة وحنان الآباء والأمهات ، قبل أن يخدعهم القرار الأمريكي بضرورة الدفاع عن « شرف أمريكا » في هذه الحرب ، فتطوعوا بها مبهورين متحمسين ، ثم اكتشفوا هناك الخديعة الكاملة ، فسجلوها في خطاباتهم بلغة بسيطة ، لكنها مليئة بالمرارة والأسف ، وعادوا من الحرب ، إما داخل صناديق معدنية في شحنات الجثث ، أو مشوهين معاقين !

ولكن بقيت تلك الخطابات شاهداً على سخونة اللحظة ، وتلقائية التعبير ، وأمانة الوصف الدقيق للمشاعر والأحاسيس ، مما يعجز عنه أبرع المؤلفين الذين يحاولون التعبير عن هذه الحرب ، سواء في أعمال روائية أو سينمائية .

بدايات الخدعة

ويبدأ فيلم « عزيزتي أمريكا » مع البدايات الأولى للحماس وسط الشباب الامريكي الذي وجد نفسه مدفوعا للتطوع في هذه الحرب ، تحت تأثير الخطب السياسية والشعارات المنطوقة والمرسومة في محطات التلفاز ، وعلى ملصقات الشوارع ووحدات استقبال المتطوعين ، وقوة الدعاية في تبرير هذه الحرب .

وأول خطاب نراه ـ بالصوت والصورة ـ لمجند أمريكي يجلس على ضفاف إحدى البحيرات في فيتنام ، بعد وصوله ، وهو يكتب خطابا لأبيه ، يصف ما يراه : « الجو جميل هنا ، والحياة تبدو هادئة ، وألمح وجوه أطفال صغار يلعبون ويبتسمون ، إنهم يبتسمون مثلنا (!!) » .

« ملحوظة إلى والدتي ، لا تنزعجي ، فأنا

بصحة جيدة » وتتوالى مشاهد شحن الجنود الامريكيين إلى فيتنام ، وتظهر على الشاشة أرقام وتواريخ : مارس ١٩٦٤ ، تم شحن مائة ألف جندي .

وخطاب آخر من جندي إلى أسرته : « أنا سعيد ، ولكنني آخذ حماما في الترع والمصارف ، فوسائل الراحة لا تتوافر هنا . وعلى الرغم من ذلك فإنني أشعر بالقوة والسعادة ، لأنني سوف أقتل هؤلاء الفيتناميين » !

وينتقل الفيلم إلى لقطات تسجيلية ، لإحدى حفلات السمر داخل المعسكرات الامريكية على أرض فيتنام ، حيث تجري عمليات تنشيط روحهم المعنوية بالموسيقا والرقص والشراب .

واللقطات تتوالى مباشرة لإحدى هجمات الجنود الامريكيين داخل مستنقع كثيف على الأرض الفيتنامية ، بحثا عن « الأعداء » ، وتسجل هذه اللقطات الواقعية ، المأخوذة من الأرشيف العسكري ، مدى الإحساس بالخطر المرسوم على وجوه الجنود الأمريكيين ، وهم يخوضون في الظلام ، وسط المياه الآسنة والأعشاب ، مذعورين ، يتوقعون الضربة المفاجئة التي قد تأتيهم من خلف كل شجرة عملاقة ، أو كتلة من الأعشاب والنباتات المتوحشة !

اكتشاف الحقيقة

وتتغير النبرة في الخطابات ، ونسمع صوت جندي يكتب لصديقته : « كانت هذه أول مرة أدرك فيها معنى مواجهة الموت ، ولولا أنني حنيت رأسي ما كنت حيا حتى الآن . هناك زميل لي تحسس وجهه ، فاكتشف أنه فقد عينيه ، وآخر بجوارنا فوجئنا أنه مات » .

ثم لقطة لمراسل أمريكي لإحدى شبكات التلفاز ، ينقل لمشاهديه من الأرض الفيتنامية إحدى المعارك ، ثم يعلق قائلا : إن عدد قوات الجيش الامريكي المرسلة إلى فيتنام وصلت إلى ٣٠٠ ألف جندي ، والتاريخ ديسمبر ١٩٦٤ .

واللقطة التالية من داخل الأراضي الأمريكية ، حيث مصانع السلاح والذخيرة ، والآلات تتدفق طوال ساعات اليوم بمختلف الانواع ، ولكن أغرب تلك اللقطات كانت من مصنع للخوذات ، وتلال الخوذات المرصوصة بعضها فوق بعض ، تشهد بعدد الرؤوس التي سترتديها .

ثم لقطات لموانىء الشحن ، والسفن الحربية التي تحمل المعدات وأسلحة القتل والدمار وتتجه إلى فيتنام .

ومن داخل فيتنام تأتي اللقطة المسجلة لإحدى عمليات الإنزال الامريكي ، وقصف قرية فيتنامية بالصواريخ والقنابل ، واحتراق المساكن والمدارس ، وألسنة النار التي تحاصر سكان القرية ، وأطفال صغار يفرون من الرعب والخوف في كل اتجاه .

وجندي امريكي يكتب خطابا لوالديه ، يقول فيه : « أعتقد أنكما الآن مريضان من شدة القلق ، ولكنني أطمئنكما بأنني لم أصب بعد ، ولكن الموت الذي رأيته الأسبوع الماضي جعلني عجوزا جدا ، أشعر بالشيخوخة ، فقد رأيت ما يكفي من الحرب والدمار ، وأصارحكما القول بأنني خائف ، ولكن ليس لدرجة الهروب أو الانسحاب ، فأنا ضابط في البحرية الامريكية ، وقائدي يشجعني دائما بأنه سيكون لي شأن في المستقبل ، صليا من أجلي » .

ويعلق الفيلم على هذا الخطاب ، بأن كاتبه قد مات بعد كتابة خطابه بعشرة أيام في إحدى الغارات الفيتنامية ! .

ثم اليأس والرغبة في الفرار

وهكذا يستمر الفيلم في نسجه مشاهد الحرب ، مع مشاهد الخطابات في تصاعد درامي ، لم يخلقه مؤلف ، وإنما فرضته وقائع

تلك السنوات العصيبة ، وحقائق الأرقام التي تظهر على الشاشة ، لترصد التورط الأمريكي في دفع مئات الألوف من الجنود الصغار السن إلى الجبهة الفيتنامية ، وأرقام وأعداد القتلى والمصابين والمفقودين في كل ستة أشهر !

وهناك عودة الوعي للمجتمع الامريكي بعد اكتشافه خدعة هذه الحرب ، وردود الفعل في مظاهرات الرفض والاستنكار ، واللافتات التي تندد بالحرب ، وارتباك الإدارة الامريكية أمام الوضع المتدهور ما بين الاعتراف بالأمر الواقع ، وبين استمرار الغرور الأحمق وعدم إنهاء الحرب .

كل هذا من خلال الوثائق المصورة ، سواء من خطب الرئاسة الأمريكية ، أو من تصريحات وزارة الدفاع ، أو من شهادات بعض أعضاء الكونجرس .

ويستخدم الفيلم تلك المادة الوثائقية داخل غلاف من الأغاني التي اشتهرت في تلك السنوات ، مثل أغنية : « الثمانية عشرة » التي تقول كلماتها :

أنا صبي ، أنا رجل
عمري ثمانية عشرة ، ولا أدري ماذا أريد ؟
ثمانية عشرة ، وأشعر بالضياع ،
ثمانية عشرة ، وأريد الإنقاذ ،
أريد الهروب من هذا المكان !

وأغنية : « ولدت في أمريكا » التي تعد من أشهر الأغاني في تلك الفترة ، وتقول كلماتها :

ولدت في أمريكا ،
في منزل جميل ، بمدينة صغيرة ،
بعضهم وضع بندقية في يدي ،
وأرسلني بعيدا ، إلى أرض غريبة ،
لأقتل الرجل الأصفر !!

ولكن تبقى المادة الأساسية لهذا الفيلم، هي شحنة المشاعر من داخل الخطابات .

أحد تلك الخطابات كتبه جندي شاب ، يقول : « أشعر بالتعاسة ، لا أستطيع النوم ، لا أستطيع الاحتمال ، أصرخ أحيانا بلا فائدة ، ذهبوا بنا إلى « سايجون » ، وملاهي النساء والخمر ، ولكن بلا فائدة ، أريد العودة للوطن » .

حروب أخرى في المستقبل

وقد استعان المخرج الامريكي « بيل كوتيري » بكل المؤثرات البصرية التي توضح الحقيقة التي أراد تأكيدها طوال هذا الفيلم ، وهي أن جميع الجنود الامريكيين الذين دُفعوا إلى حرب فيتنام كانت أعمارهم ١٨ - ٢٠ عاما ، وأن غالبيتهم كانوا في سن التاسعة عشرة ، أي أنهم كانوا ما بين سن الصبا وبداية الشباب .

وهذه الحقيقة بالتحديد عجزت أغلب الأفلام الامريكية الروائية التي تناولت حرب فيتنام عن إظهارها ، لأسباب فنية تتعلق بعدم تطابق هذه السن مع النجوم المشهورين في السينما الامريكية ، حيث إن هؤلاء النجوم تزيد أعمارهم عن الثلاثين !

وعندما سئل مخرج الفيلم « بيل كوتيري » عن الأسس التي اعتمد عليها في اختيار الخطابات ؟ قال : « خطابات الشباب الصغار السن ، وعنصر الخوف والوحدة والإحساس بالعزلة والوحشة ثم اليأس ، ومن خلاصة الستين خطابا كان هناك الإحساس بالخديعة » .

- ما هو رأي أصحاب الخطابات الذين ما زالوا على قيد الحياة ؟ وكيف استقبلوا فكرة فيلمك ؟

- اتفقوا معي في وجهة نظري عن الحرب وأسبابها ونتائجها ، بل أكدوا لي أن السياسة الامريكية لن تتورع عن القيام بحرب أخرى ، تُمارس فيها كل هذا الرعب يوما ما ، في المستقبل ، وفي أي مكان !! □

AKAI

العلامة الذهبية للانجاز

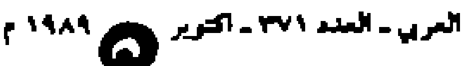


ان بلوغ العيد الستين يمنحنا سبب للتوقف أمام أكاي.
فان ستة عقود من الانجازات التكنولوجية هي بالتأكيد مما يستحق الفخر.
من ان المكافأة متمثلة في تقنية المتعة المنزلية المرئية الى كل
هؤلاء الناس لا تقل عظمة.
ان هدف أكاي، كشركة تقتصر على تصنيع الأجهزة
الصوتية وأجهزة الفيديو، كان هو دائما "
مبتكر للصوت والصورة".
بينما نحن نبلغ هدفنا مرة ومرات من جديد بسيل
متدفق من التجديدات التقنية التي مهدت
الطريق للآخرين كي يسيروا فيه، والتي تظهر للآن بوضوح ما يكون

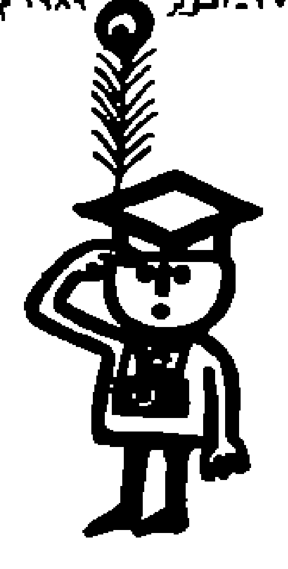
Quick Response System
CD
S-VHS

1929—1989
60TH ANNIVERSARY

Akai—Creative At Heart.







قصة الكاتب البولوني : ياجي شانيفسكي*
ترجمة : ماريا ماوْجنسكا**
(عن البولونيـــة)

قال الأستاذ توتكا : أيها السادة ، حكى لنا القاضي عن كلفة دهان النوافذ ، فتذكرت نافذة ما ، كنت أنظر إليها كل يوم فيما مضى ، وهي ما أريد أن أحكي لكم عنها ، ولا علاقة لها بالغلاء والدهان ولا بالعمال المهرة ، لكن عندما تخطر لي كلمة « نافذة » فإنها تثير لديّ ذكرى خاصة مباشرة .

كانت شقتي في أحد الطوابق ، تطل على زقاق قديم ، في مواجهة نافذة أخرى ، على بعد عشرة أمتار ، وفي كل مساء كانت المرأة السمينة تسدل الستار على النافذة وتشعل الضوء ، فأرى على خلفية الستار ظلاً كبيراً يتحرك ، يختفي ثم يظهر من جديد ، وفي أحد الأيام رأيت ظلاً آخر ، إنه ظل رجل أصغر من المرأة السمينة بمرتين ، وفجأة اقترب الظلان والتصقا ، وقبّل أحدهما الآخر ، وتكرر هذا المشهد كل مساء ، ولم يكن من طبعي الاهتمام بعلاقات الحب بين الآخرين ، فأنا لست طفلاً ، وأعرف أن الرجل والمرأة يقبّل أحدهما الآخر منذ القدم حتى الآن ، وسيظلان كذلك قروناً أخرى ، ولهذا أقول لكم : إن ذلك لم يكن ممتعاً لي ولا جديداً ، بل كان كلعبة من مسرح خيال الظل .

في غروب أحد الأيام قُرع الباب ، ودخل رجل لا أعرفه ، نحيف منهك ، عصبي المزاج ، ولاحظت من نظرتي الأولى إليه أنه يكتم غضباً حاداً ، وعندما سألته عما يمكن أن أقدم له ورجوته أن يجلس ، بادرني بالكلام :

ـ يا سيدي ، قبل أن أشرح لك هدف زيارتي ، أقول لك : إنني أعرفك منذ أن رأيتك تتصدق على فقير ، وحييته بقبعتك حينما شكرك ، فأنت إنسان طيب نبيل .

فقلت له : يمكن أن يكون قد حدث ذلك ، ولكن ما علاقة . . .

فقال ضيفي : لحظة ، سأشرح لك ، إضافة إلى ذلك أنت إنسان ، وأنا آسف جداً لما سأقول ، إن الناس يتحسسون كثيراً من هذا

---

* ياجي شانيفسكي (١٨٨٦ - ١٩٧٠) كاتب بولوني ساخر ، متعدد المواهب ، ترك آثاراً مهمة في القصة والرواية والمسرح ، من أهم اعماله : فتاة من الغابة - المرساة الذهبية - الأحداث النادرة - الحداد والنقود والنجوم - الإنسان المرح - حبيب من ورق - الحب والأشياء الهامة - للمحامي والورود .

** ماريا ماوجنسكا - مستشرقة من بولندا .



الأمر ، أنت لست إنساناً صغيراً ، ومن المؤكد أنك تفهم كثيراً .

ـ لا ، أنا لا أتحسس من كبر سني ، من المؤكد أنني عشت كثيراً ، وفهمت لماذا يقولون عادة : إن الذي يفهم يُغيِّر .

ـ أجل ، اعذرني قبل كل شيء لأنني جئت دون دعوة .

هذه النافذة المواجهة لنا هي نافذة زوجتي التي هجرتني ، وأنا متأكد أنك رأيتها أكثر من مرة .

ـ حقاً ، كنت أرى امرأة هناك أحياناً ، تذكرني بالنساء اللواتي رسمهن « روبنز » ، هل هي زوجتك ؟

ـ هل قلت « روبنز » ؟ (ونظر إلي متردداً ، كأنه يريد أن يعرف هل هذا استحسان أم سخرية !) إنني أحب هذه المرأة يا سيدي ، ولا أستطيع أن أعيش بدونها ، اسمح لي يا سيدي أن أنظر إليها من هذه النافذة ، وإذا لم أرها فإنني

سأعيش في عذاب لا يطاق .

ـ طبعاً ، آه يا سيدي ، أنظر ، ولكنني لا أظن أن هذه الطريقة الرديئة يمكن أن تريحك كثيراً ، ويمكن أن ترى شيئاً يحزنك أو يخرجك عن طورك .

ـ هل تريد أن تقول : إنني سأرى عشيق زوجتي ؟ رأيته ، أعرف أنه هنا .

ـ لكن كن هادئاً ـ كنت أتحدث إليه بلطف ـ أشرت في حديثك إلى كبر سني ، وتجربتي ، ومعرفتي للحياة ، إنني أكرر لك يا سيدي أنك اخترت الطريقة الرديئة ، إن أفضل طريقة يرى فيها الإنسان حبيبته هي أن يحبها ، لا أن يرى عشيقها أو يتلصص عليها ، لأن في ذلك تمزيقاً لجراح القلب ، وأظن أن عليك أن تمسك نفسك قليلاً ، وتبتعد عن هذا الحي ، حاول ، إذا استطعت ، أن تسافر فترة طويلة ، وإذا كان لديك في مكتبك صورة لهذه المرأة فالأفضل أن تخفيها في الأدراج كي لا تراها أبداً ، وإذا كانت هذه المرأة تخبيء أي أغراض فعليك أن تتخلص منها .

ـ إن أهم الأشياء التي لمستها تلك المرأة هي أنا نفسي ، كيف يمكن أن أتخلص من نفسي ؟ هل تنصحني أن أنتحر ؟

فأجبته : آه ، أنا لا أنصح أحداً بالانتحار ، هل تسمح لي أن أسألك : ماذا تعمل ؟

ـ أنا موظف في المؤسسة .

ـ هذا رائع ، لأنك تعمل من أجل كل الناس ، ولا أحد يستطيع أن يعدك سيئاً ، لأنك تضحي بشيء من سعادتك الشخصية ، لكن ، هل السعادة في رأيك هي المرأة فقط ؟ إنني أعرف كثيراً من الذين لا يريدون قضاء وقتهم إلى جانب امرأة ، إنهم يتناولون آلة « المندولين » .

ـ أنا لا أحب « المندولين » .

ـ هذا مجرد مثال ، بعض الناس يبحثون عن الأخطاء المطبعية في الصحف ، ويسرهم ذلك كثيراً ، كنت أعرف إنساناً تعيساً في زواجه ، وعلى الرغم من كبر سنه قرر أن يتابع الدراسة ، وأعرف شخصاً آخر تركته زوجته فبدأ بتربية زهرة « اللفكونيا » ، وحصل على نتائج باهرة ، ألا تهمك « اللفكونيا » ؟ .

ـ أجابني بلطف : أنت تعطيني أمثلة واقعية ونظرية جيدة ، لكن .

ـ آه ، في هذه الحالة اجلس هنا ، وانتظر (ورأيت أن من الأفضل ألا يزعجني لأن لدي عملاً ضرورياً) .

كان ضيفي ينظر من النافذة وأنا أنحني برأسي على مكتبي ، عيناي مسمرتان على عملي ، وحين التفت اليه كانت ملامحه قد تغيرت كثيراً ، كانت مزيجاً من الغضب والألم ـ آه ـ توقعت أنه شاهد ظل منافسه ، ونظرت إلى ورقة كانت أمامي ، وفجأة انتصبت واقفاً في مكاني ، فقد أطلق ضيفي رصاصة من مسدسه باتجاه ظل وراء الستار .

سألني أحد السادة بعد قليل : وقتل ؟

ـ لا أريد أن أحكي لكم القصة الجديدة التي تنتهي بالمسدس ، كنت أحكي عن النافذة التي ذكرني بها القاضي الذي دفع ثمناً غالياً لدهان نافذته ، أما بالنسبة إلى ضيفي فقد كان شيئاً مؤلماً ، مأساة ، والنافذة هي نفسها .

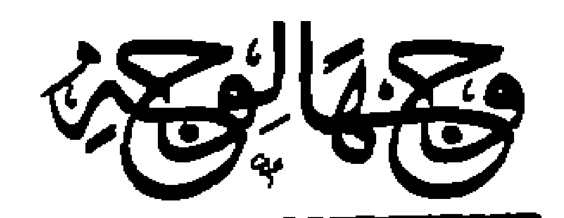
بعد فترة سكن هناك أناس آخرون ، يبدو أنهم كانوا سعيدين ، كانت الزهور تتدلى من النافذة والأطفال يلعبون وراءها ، ومرة زارني ضيف آخر فابتسم ، وقال : ما ألطف هذه النافذة !

أما بالنسبة إليّ فإن هذه النافذة التي تتدلى منها الزهور ، ويطل منها الأطفال ما زالت مسكونة دائماً بثلاثة أشخاص مضحكين من مسرح خيال الظل ، تحولوا في لحظة معينة إلى كارثة ، مأساة .

وسألني أحد السادة : رائع ، ولكن هل قتل أم لم يقتل ؟

فأجبت :

قتل في أعصابي إلى الأبد إرادة التضحية بتقديم نصيحة جديدة إلى الناس . □







أدونيس جميل حتمل

- الحداثة تختزلُ أحياناً لتصبحَ لعباً شكلياً.
- بعضُ المفكرينَ القدامى كانوا أكثرَ جُرأةً مِن مفكِّري عَصرِ النهضةِ.
- ليسَ هناكَ نتاج ثقافي عربي يُعَبّرُ عَن الهُويّةِ العربيةِ اليومَ كالشعرِ.
- أعتمدُ على مصادِرَ غربيّةٍ لتوضيحِ نظريّةِ الشِعرِ الحديثِ.
- لا يمكن لأيِّ شِعرٍ أن يكونَ خارِجَ الواقِعِ!
- يُمكِن أن تكونَ القصيدةُ سِياسِيّةً وَغيرَ سياسيّةٍ في آنٍ!

علي أحمد سعيد أو (أدونيس) الشاعر المفكر ، اسم كان يثير الجدل ، ومازال على امتداد المساحة التي تشغلها آراؤه أو أعماله الإبداعية . إنه كمن يلقي بالأسئلة ، فلا يجد إلا الأسئلة ـ أو الاتهام ـ رداً عن أسئلته . وفي هذا اللقاء لا تبتعد الأسئلة عن مدار الأسئلة ، حيث يحاول محاوره أن يتلمس نقاط التقاء في مسيرة «أدونيس» وآرائه ، هذه المسيرة التي تكاد تبلغ في مجال العطاء أكثر من أربعين عاماً ، حافلة بالشعر ، والحداثة ، والمعارك الفكرية ، والاتهامات ، والريادة ، والتساؤلات . وقد أجرى الحوار جميل حتمل .



● كنت قد تحدثت سابقاً عن الحداثة الثانية . الآن تتحدث عما بعد الحداثة . هل لأنك ترى أن الحداثة العربية كمرحلة قد أدت دورها وانتهت ، أم تحديدا لما وصلت إليه الآن ؟

حين تحدثت عن الحداثة ، لم أكن أقصد اتخاذ الحداثة كقيمة بحد ذاتها ، وإنما كنت أقصد التخلص من ثقل الفكر التقليدي المهيمن على الحياة العربية من جهة ، والتركيز على الإبداعية من جهة ثانية . وكنت أشدد باستمرار على أن الحداثة إطار ومناخ ، وأنها ليست نفياً لما سبقها . هذا ما يعنيه سؤالك لي : أين الحداثة ؟ أين الإبداعية العربية اليوم ؟ أذكر أولاً بأن عبارات : المحدث ، والإحداث ، والحداثة أخذت أساسا من الفكر الديني ، إلا أنها نقلت إلى إطار الفكر الأدبي ، وكان النقد بكامله ـ تقريباً ـ في العصر العباسي يتركز حول مشكلات الحداثة والإحداث ، لذلك أرى أن كل كلام عن الحداثة في المجتمع العربي اليوم ، يجب أن يوضع في إطاره التاريخي أولا . وإذا قارنا بين ما يكتب اليوم ، وما كان يكتبه ممثلو الحداثة الأولى : أبو نواس ، وأبو تمام ، ولنضع معهما النفري والمتصوفين . أعتقد أن معظم الكتابات الشعرية المسماة اليوم حديثة ، لا توغل في مسألة اللغة الشعرية ، وفي مسألة العلاقة بين اللغة والعالم من جهة ، والعلاقة بين اللغة والذات من جهة ثانية ، كما أوغلت لغة هؤلاء الشعراء القدامى . هنالك شعراء أفراد قلائل ، أكملوا وفتحوا آفاقا جديدة دون شك ، لكن الكتابة الغالبة في الشعر العربي الحديث أقرب إلى القدامة منها إلى الحداثة ، لذلك نجد عند هؤلاء الأفراد حركة استقصاء إبداعية عالية .

وحين أقول : ما بعد الحداثة ، أو الحداثة الثانية ، فأنا أعني أننا نواجه اليوم مشكلات غير التي كنا نواجهها مثلا في أيام مجلة «شعر» : الخروج من الأطر التقليدية ، ومن الشكل الموحد ، ومن الوزن والقافية . المشكلة اليوم يمكن أن تكون : ماذا نقول ؟ ما الأفق الذي يفتحه الشاعر العربي للقارىء العربي ؟

• لكنك تتحدث عن مرحلة ثانية، مرحلة أخرى، إذا صح التعبير، فهل هي إعلان عن انتهاء شيء سبقها؟

لنقل انتهاء مرحلة مجلة «شعر». اليوم لم يعد همّ الناقد أو الشاعر أن يتركز في تحديد الوزن وتحديد الشكل العمودي. وهل نكتب بشكل عمودي أم لا. نكتب بالقافية أم لا؟ فهذه مشكلات قد تجاوزناها. وإن قد أثرناها في إطار محدد وتاريخي. كانت الكتابة فيها بالنثر أو التفكير فيها نوعا من الإثم. أما دعوتي للحداثة الثانية، فلأن الحداثة «الأولى»، كما مورست، تحولت إلى نوع من الفراغ أو الحلقة المفرغة، وصارت أشبه بساحة تقذف فيها اعتباطا باسم الحداثة آراء ونظريات وأفكار دون وعي دقيق أو فهم دقيق.

• أفهم من كلامك أن الحداثة العربية، على المستوى الزمني، لا حاجة لها أن تثبت وجودها؟

ـ لا، بمعنى أننا نحن الذين مهّدنا، فصار أمام الشاعر وسائل متعددة، كانت وسائله محدودة: أن يكتب قصيدة عمودية. أما الآن فتعددت طرق التعبير الشعري، فيستطيع الشاعر أن يكتب قصيدة نثر، أو قصيدة موزونة، وفقا للنسق التفعيلي الذي يشاء، بل صار في إمكانه أن يمزج بين الأنواع. هكذا تعددت لديه وسائل التعبير وإمكانياته واكتسبت مشروعيتها. الآن صارت قضيته ماذا لديه؟ ما عالمه الشعري؟ وإذا تفحصت المدى الذي يتحرك فيه الشاعر الغربي، والمدى الذي يتحرك فيه الشاعر العربي، لرأيت أن مدى حركة الشاعر العربي محدود جدا. محدود بالسطح الاجتماعي وبالسطح السياسي «الإيديولوجي».

أما عالم الذات، والعالم الميتافيزيقي، والعالم الجنسي، والعالم الديني، والعالم السياسي ـ بالمعنى اليوناني للكلمة ـ والعالم المكتوب، فقلما تجد أن شاعرا عربيا يغوص في هذه العوالم، وهذا الغوص هو أبسط ما تفرضه الحداثة عليه. أقول باختصار: إن الحداثة الشعرية العربية، اليوم، تواجه عوامل كثيرة، بينها الإعلام ووسائله ـ خطر الاختزالية ـ ويتجلى على الأخص في اختزال الحداثة ـ باللعب ـ (الكتابة مثلا دون ضبط أو تواصل، أو يقدم المضمون عن الفاعل) اللعب الشكلي السطحي الذي يقدم للعين تشكيلا يختلف عن تشكيل القصيدة الموزونة. وهو خطر يتجلى في إلغاء المشكلية، بحيث تبدو الكتابة خالية من أي تساؤل حول مسألة النسيج الفكري الذي تصدر عنه قيم الكتابة (الدين، والميتافيزيقا، واللغة، والإنسان، والوجود) ويبدو تبعا لذلك حداثة قصاصات وملصقات، وكأن اللغة مجرد مفردات تجمع وتفرق، وتركب على سطح الورق، مفردات لا أرومة لها، ولا تربة، بعيدا عن الإحساس بالفاجع، وعن الإحساس كذلك باللامتناهي.

• أنا لا أنسى كونك شاعرا، ولكنك تبدو كمن يقصر حديث الحداثة على الشعر فقط، مع ذلك لدي سؤال يتعلق بالمستوى الفكري للحداثة، وكأن الأسئلة التي طرحها من يسمون «رواد النهضة العربية» لم تجد أجوبتها إلى الآن، أو أنها قلصت، وكأن من المستحيل أن يعاد طرحها الآن على الرغم من مرور سبعين أو ثمانين عاما؟

ـ كانت أسئلة رواد النهضة من طبيعة

أيديولوجية في الغالب . إنهم أعادوا أسئلة العرب في العصر اليوناني . كان العربي القديم يقول : كيف أخذ الفكر اليوناني وأظل مسلما ؟ وقال مفكر عصر النهضة ، أو مايسمى عصر النهضة : كيف أخذ الحضارة الغربية وأبقى مسلما ؟ هكذا حلت مشكلة الحضارة الغربية محل مشكلة الحضارة اليونانية . بل أذهب أبعد من ذلك ، كان مفكرو العرب القدامى - على الأخص ابن رشد - أكثر جرأة ، وأكثر تعمقا في طرح السؤال من المفكرين الذين سميناهم مفكري عصر النهضة . هنالك أشخاص ساروا في نمط ابن رشد ، ولكنهم لم يصلوا إلى ماوصل إليه ، ولم يطوروا ماانتهى إليه . وهؤلاء على أهميتهم أهملوا أيضا في حركة التغيير . إن أشخاصا مثل شبلي شميل ، ممن ساروا في التيار العلمي إجمالا أهملوا ، وأبرز أشخاص آخرون غيرهم .

بوادر جديدة

*** في عودة إلى الشعر ، تقول : إن الممارسة الشعرية العربية استنفدت نفسها . هل ينطبق هذا الحكم على تجربتك أيضا ؟**

- أين قلت ذلك ؟

*** في حوار معك ، قد نشر في إحدى المجلات العربية .**

- إذا كنت قد قلت هذا ، فبالمعنى الذي أشرت إليه سابقا ، وهو أن الإطار الذي نشأ فيه ، ماسميناه اصطلاحاً الحداثة ، والذي أعطته مجلة «شعر» سمته الرئيسة ، ماتزال الحركة الشعرية العربية الراهنة تعبر في حدوده تقريبا قليلا أو كثيرا . بهذا المعنى قلت : إن هذه الممارسة انتهت ، ويجب أن أنطلق إلى ماهو أبعد وأوسع ، هذا طبيعي ، وأنا شخصيا أعد تجربتي من ضمن هذه الممارسة ، وما أعمله اليوم إنما هو الخروج من هذه الممارسة ، وعمليا فقد بدأت هذا الخروج بتركي مجلة «شعر» عام ١٩٦٤ .

*** أنا لا أجري وراء المتناقضات . لكنك من قبل قلت : إن الشعر الحقيقي هو انتاج «المختلف» ، وإيصال الانفصال ؟ كيف ؟ .**

- من المفيد أن نتحدث عن هذه الأشياء على الرغم من صعوبتها ، حين نأخذ الشعر الجاهلي أو العباسي مثلا ، نجد أن الشعراء الذين يتبعون الخط المدرسي يسلكون طريقا افتتحه شاعر معين ، يراقبون كيف يستخدم لغته ، كيف يعبر عن الأشياء ، ماالموضوعات التي يتناولها ، ثم يدخلون في هذا العالم الذي أوجده شاعر ، ويقومون بالتنويع ، ويستفيدون منه بشكل أو بآخر . أما الشاعر الحقيقي الذي يجدد ، فهو الذي يستفيد من طريقة تعامل من سبقه مع اللغة ، من طريقة استخدامه لهذه اللغة ، حيث يستوعب هذه الطريقة ويتمثلها ، ويوجد لغة جديدة مختلفة ، وعالما جديدا مختلفا ، وقد يكون مناقضا بدلا من أن يتابع الشاعر القديم في صوره في الألفاظ والعلاقات التي أقامها بينها وبين الأشياء ، مثلما يحدث الآن . فهنالك اليوم عدد قليل من الشعراء المبدعين ، يأخذ آخرون ألفاظهم وصورهم وصياغاتهم ، ويعيدون تركيب هذا كله بشكل أو بآخر ، وهذا لايجدد ولايعطي حيوية للتراث . بهذا المعنى أقول : يجب أن يحيا الشاعر في قلب التراث ، متأثرا باللغة وعبقريتها ، لكي يقدر في الوقت نفسه أن يوجد من هذه العبقرية عالما لم يسبقه إليه أي شاعر قبله . هذا ماأقصده بإيصال الانفصال ، أي أن تنفصل عما أنتج ، لكي تتأصل في الأداة المنتجة التي هي اللغة .

الشاعر والتراث

● أنت تحكم على الثقافة العربية الحديثة بأنها قد جاءت عموما من الماضي - بمعناه الرجعي - أو من الخارج ، هل كانت القصيدة الجديدة التي مثلتها تجربتكم خارج هذا الحكم ؟

حين أقول : إن الثقافة العربية السائدة هي إما استمرار للماضي أو تنويع عليه ، أو أنها اقتباس ، أقول بالمقابل : إن الشعر مختلف ، فإنني أعني أن الشاعر حين يكتب بلغة شعرية عربية مغايرة للغات الأخرى ، ويدرك سر هذه اللغة وعبقريتها وخصوصيتها ، فإنه بحكم ذلك مرتبط جذريا بالتراث العربي ، شاء أم أبى . ومن هنا تأتي أهمية الشعر ، ومن هنا يمكن التوكيد على أنه ليس هنالك نتاج ثقافي عربي يعبر عن الهوية العربية اليوم ، كما يعبر الشعر ، على الرغم من مشكلاته والمآخذ التي قد تؤخذ عليه .

● تشير أيضا إلى أن كل مرحلة فكرية جديدة تجيء تعبيرا عن متغيرات محيطة . بم ترتبط الحداثة الشعرية العربية على هذا الأساس ؟

- أولا استفدنا من التجربة الغربية ، خصوصا في بعض التنظيرات . فكما أخذنا من الصناعة والعلوم أخذنا من النقد والتنظيرات الغربية ، لكن الثقافة الغربية - وهنا وجه المفارقة - فصلتنا عن تراثنا ، فصلتنا عن عمقه الإبداعي ، وربطتنا بسطحه الظاهري . وسآخذ - هنا - نفسي مثلا ، فأنا تعرفت على التصوف من خلال السريالية ، واكتشفت أهمية أبي نواس وأبي تمام من خلال اكتشافي بودلير ومالارميه . فهذا لم أتعلمه مع الأسف - لا في الجامعة ولا في المدرسة ، وأعتقد أن هذا شأن الأجيال العربية كلها ، فلو كنا نظرنا إلى التصوف مثلا نظرة حديثة ، لكانت نظرتنا إلى السريالية مختلفة . هكذا تعرفت على أعمق مافي التراث العربي عبر قراءاتي لبعض الغربيين . اكتشفت سر مايسمونه الشرق بالمعنى الحضاري من رامبو . ولئن كان هناك شعر عظيم في أوربا ، فهو أولا الشعر الذي ثار على «أوربية» أوربا ، والذي ارتبط بهذا العالم المشرقي ، والذي انفصلنا عنه بعامل الاستعمار الثقافي الغربي ، ومؤسساتنا وأنظمتنا - مع الأسف - سارت مع هذا الاتجاه ومازال براعجنا ومؤسساتنا وكل جامعاتنا تسير في هذا الاتجاه .

حضارتنا والثقافة الغربية

● كأنك هنا تقول : إن الغرب كان مفتاحا لفهم أنفسنا ؟

- أنا هنا أتحدث عن نفسي ، لكن هذا المفتاح كان سلبيا ، بمعنى أن الثقافة الغربية لم ترد الانفتاح على حضارتنا ، بل بالعكس ، كانت تعلمنا مايحجبنا عن البعد الحضاري ، ولكنني أتحدث عن مسألة شخصية بحتة . إن قراءاتي لبعض الشعراء الخلاقين نبهتني إلى أهمية شعرنا العربي ، وإلى أهمية الإبداعات العربية .

● في جواب سابق لك ، قلت : إن الفكر العربي «النهضوي» ارتبط بالغرب (الفكرة الماركسية أو الفكرة القومية) . ألا تعتقد أن الحداثة الشعرية العربية ارتبطت بالغرب أيضا ، أعني مفاهيم الحداثة هذه ؟

- المفاهيم نعم ، لقد أفدنا من التنظيرات جدا ، لكن هذه التنظيرات لو عدت إليها لوجدتها موجودة في تراثنا في شكل إشارات وآراء مقتضبة ولمعات نقدية . فكل ما يقال عن الشعر مثلا من أنه كشف وحدس وتخط وتجاوز ، تراه مبثوثا في تراثنا ، كما حدث في اليونان مثلا ، فبذور الأفكار اليونانية لو

معظمها كانت موجودة في الحضارات البابلية والمصرية والسومرية . لكن يأتي فضل اليونان وأهميتهم من أنهم وضعوا هذه الأشياء المشتركة في نظريات وفي أنساق فكرية . وتابع الغربيون هذا ، بينما بقينا نحن أسرى الانطباعات [illegible] عن مستوى النسق والنظرية [illegible] العرب . لكن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مختلف من قراءة العرب [illegible]

* هل يمكنك بمثل هذا الكلام أن ترد على من يتهمك بأن كثيرا مما قلته في نظرية الشعر أخذته عن نقاد غربيين وبشكل مطابق ؟

ـ أنا أشرت مرتين في بداية مجلة «شعر» ، في دراستين قدمتهما ، واحدة اسمها (محاولة لتعريف الشعر الحديث) ، والأخرى (في قصيدة النثر) ، أشرت إلى أنني أعتمد على مصادر غربية ، لتوضيح نظرية الشعر الحديث . وقلت هذا في المقالة الثانية ، (في قصيدة النثر) ، حيث ذكرت أنني اعتمدت على تنظيرات في هذا الموضوع ، وبخاصة على كتاب مشهور ، وهو اطروحة دكتوراة (لسوزان برنار) . لقد كررت وأكرر : إننا في بداية أعمالنا ونشاطاتنا كانت معرفتنا بالثقافة الأجنبية وباللغة محدودة ، فاجتهدنا لننقل إلى القارىء العربي مناخا آخر مختلفا لكي يفكر فيه . ولدينا أخطاء ومآخذ كثيرة ، وهذا من طبيعة الأعمال الأولية ، أضف إلى ذلك أن القضايا التي كنا نجابهها ، كانت جديدة ، وليس في موروثنا النقدي مايفيدنا في بحثها وتحليلها . وهذا ما اضطرنا إلى الإفادة من النقد الأوربي وتحليلاته . لكننا وضعنا هذه الإفادة ، أي ما اقتبسناه ، في سياق جديد مختلف ، وهذا هو المهم .

* أنت تؤكد على الربط بين الثقافة والسياسة ، ومن ضمنها الشعر ، لكنك ترى أن القصيدة تقع خارج الايديولوجيا . كيف تحل ذلك ؟

ـ كلمة سياسة أصبحت فارغة ، مثل كلمة حداثة ، حين يتضمن أي شيء ، فهذا يعني أنه لا يتضمن شيئا . السياسة لها مستويات هنالك السياسة اليومية ، والسياسة [illegible] [illegible] [illegible] الجديدة [illegible] الإنسان [illegible] كل شيء سياسة حتى الحب . إذن في هذا المستوى : الشعر والثقافة وكل شيء سياسة . لكن يجب أن نفصل هنا بين التعبير الشعري والتعبير السياسي ، لا يجوز أن يكون الشعر تابعا للسياسة السياسية ، أي السياسة كمهنة أو السياسة كمؤسسة ، أو للسياسة حتى كأيديولوجيا ، ومن هنا تكون القصيدة سياسية وغير سياسية في الوقت نفسه .

معنى الواقع

* في أحد تعريفاتك للشعر ، تقول ، إنه ما يناقض الواقع ؟

ـ الواقع له مستويات عديدة : هنالك واقع اللحظة التي نعيش فيها ، وهناك واقع الأشياء المادية ، وواقع الأشياء السياسية ، والواقع المرئي ، وهنالك واقع وراء هذا الواقع المرئي ، حين أقول : إن الشعر نقيض الواقع ، أعني بذلك لا نقيض الواقع بالإطلاق ، لأن هذا مستحيل ، فنحن جزء من الواقع ، لكنني أعني ضد الواقع المؤسس ، المجمد ، المباشر ، المبتذل ، المكرر الذي لا يساعد في الكشف عن حقيقة العالم ، أو عن أسرار الحياة الإنسانية . بهذا المعنى يكون الشعر ضد هذا الواقع ، لكن لا يمكن أن يكون الشعر هذا الواقع بالإطلاق ، لأن الشعر تحديدا هو الواقع بأسمى تجلياته . لهذا عندما نحلل مثل هذه الأمور ، يجب

أولا أن نتساءل عن المعنى المقصود بالكلام أو بالمصطلحات في سياقها الخاص . وأعتقد أن عدم تدقيقنا في المصطلحات ، أو التساؤل حولها ، هو الذي يوقع النقد العربي والحوار العربي الدائر بين المثقفين في سوء تفاهم حين [illegible] ولم تفهم حول تحديد مصطلحاتهم . لكن سوء التفاهم [illegible] كتبه ، لا يمكن لأي شعر حتى الرديء أو اللاواقعي منه أن يخرج خارج الواقع . فهذا مستحيل . ولكني أفهم الواقع بشكل مختلف .

● عن الشعر تقول : إن القارىء لا يمكن أن يغير نظرته له ، حتى يتغير منظوره الثقافي بكامله ، وإلى أن يحدث ذلك : هل يظل الشعر معزولا ؟ وهل تشعر أنت بمثل هذه العزلة ؟

ـ أنا لست معزولا ، خذ الأشياء الواقعية : أولا شعري يقرأ في كل الأقطار العربية . ثانيا : إذا كان هنالك شعر أثر في اللغة العربية ، فأنا أعتقد أنني الأكثر تأثيرا بين الشعراء في اللغة الشعرية العربية اليوم . أنا لا أشعر بعزلة أو بأي أزمة على هذا المستوى . أشعر بأزمة على صعيد التطور العام في المجتمع العربي ، فنحن في نهايات القرن العشرين ، وما زلنا نمارس الرقابة ، ما زلنا نخاف من قصيدة ، نخاف من كتاب ، وهذا هو الذي يولد فيّ الشعور بالعزلة . لكنني شاعر أمارس لغة شعرية خاصة ، وأوجدت عالما شعريا متميزا . فأنا على العكس سعيد جدا ، لأن شعري مؤثر ومقروء في كل الأقطار العربية ، وآرائي منتشرة ، أحيانا في السر . وأحيانا في العلن . يعني على هذا المستوى لا أشكو على الإطلاق من أي أزمة ، وأزمتي هي أزمة عامة ، أزمة المجتمع العربي بعامة .

المثقف الرقيب

● في إحدى حواراتك الأخيرة ، تقول : إن المثقف هو القامع الأول . ومن قبل كنت ترى مصدر القمع في السلطة ، فكيف تفسر هذه النقلة بين فهمين يبدوان متناقضين ؟

ـ السلطة هي الشرطة بوصفها صاحبة القرار ، هي مؤسسة التي تقرر وتنفذ . والمثقف هو الذي يعني المراقب . من الذي كان يمنع مجلة «شعر» ، ويمنع الدواوين الآن ؟ ليس الشرطة مباشرة ، بل المثقفون الرقباء الذين يرفعون التقارير إلى الشرطة . أنا أعرف مثقفين يمارسون الرقابة وقراءة الكتب ، ويرفعون التقارير للسلطات لكي تمارس السلطات القرار . لأن القرار ليس بيد المثقفين ، إذن فالقامع الأول بالمعنى الثقافي العميق ، هو المثقف المرتبط بالسلطة .

تصور لو اتفق جميع المثقفين أن لا يكتبوا يوما واحدا ، ليضربوا يوما واحدا عن الكتابة انتصارا للحرية ، عندئذ ماذا تفعل السلطة ؟ تضعهم في السجن مثلا ؟ حسنا لينامو ليلة هنالك من أجل الحرية ، وعوضا عن أن يفعلوا ذلك ، انظر اليوم إلى صفحات المجلات والجرائد فسترى في معظمها دماء المثقفين تسيل عليها من كل جهة ، أي أنك لن تجد فيها سوى الأهاجي ، والشتائم والنقد الجارح والتشويه بمختلف أنواعه . من يقوم بهذا ؟ إنهم الكتاب المثقفون . اليوم لا تستطيع مثلا أن توقع بيانا من مثقفين مختلفين في وجهات النظر . بيان بحد أدنى مشترك ، هو منع مؤسسات الرقابة في الأقطار العربية ، لا تستطيع أن توقع ذلك ، وهنا أرجو أن لا يفهم نقدي للمثقفين على أنه مدح للشرطة ، كما قد يسارع إلى ذلك المثقفون أولئك ، شرطة آخرون ، وإذا كنت ضده هنا

فذلك لأني أساسا ضد الشرطة العقلية والثقافية .

*** ما دمنا في صدد الشأن الشخصي ، سأسألك عن الجائزة الدولية للشعر التي حصلت عليها منذ فترة : هل ترى أن وجودك الحالي في أوربا ـ أقصد الوجود الجغرافي ـ قد ساهم في تكريس هذا الموقف الاعتباري المطلوب لتجربة شعرية تمثلها ؟**

ـ السبب الجغرافي يساعد ، أعني انه يسهل الاتصال والانتقال ، ويسهل العلاقات دون شك . كنا في وسط يصعب فيه التنقل والاتصال وهذا كان حاجزا ، لكن في النهاية يبقى كل هذا لاقيمة له إذا لم يكن للعمل الأدبي بحد ذاته قيمة ، فإذا كان للعمل الأدبي مثل هذه القيمة ، فإنه يفرض نفسه طال الزمن أو قصر ، لكن مثل هذه العوامل تساعد هذا العمل الأدبي على أن يفرض نفسه بسرعة أكبر .

*** ألا ترى أن الغرب لا يتعامل معنا بمثل هذه الموضوعية ، بمعنى أنه يقبلنا بمقدار ما نخضع له ؟**

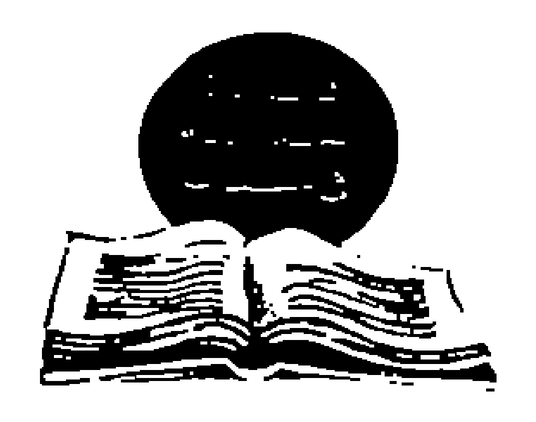
ـ أعتقد أن هذه النظرة مبالغ فيها ، وهي تأتي منا في الدرجة الأولى أكثر مما تأتي منه ، نحن لدينا عقدة نقص تجاه الغربي ، ولا نصدق أن أيا منا قادر على أن يؤثر ، أو يوجد له بعدا شخصيا في الغرب ، لذلك فأي واحد من العرب يصل إلى مرتبة ما ، بدلا أن يقال عنه : إنه قادر ولديه عطاء كبير ، وأن الشعراء الغربيين ليسوا أفضل منه ، بدلا من هذا القول ، وهو قول صحيح ، يقال العكس : إن له علاقات وتابع ، هكذا . هذا مرض عند بعض المثقفين العرب ، أو عند معظمهم ، وهو مرض القصور ، أو من مركبات النقص التي تجعلنا لا ننظر إلى أنفسنا إلا بمنظار التبعية . الشعر العربي اليوم قادر على أن يؤثر في الشعر الفرنسي والغربي ، لكن لا أحد منا يرى ذلك ، والفرنسيون يرون ذلك . وصحيح أن مسألة الترجمات تخضع دون شك إلى اعتبارات كثيرة ، لكن ضمن هذه الاعتبارات هنالك أشياء تترجم ، لأنها تمثل قيمة ، أي : ماذا يعني دار (فايار) ، وهي دار كبيرة ، أن ترحب بكتاب مثلا لأبي العلاء المعري ، إذا لم يكن هذا الكتاب بحد ذاته قيّما ؟

قد لايكون لأحدنا علاقات في فرنسا ، لكن ماالذي يدعو ناشرا في السويد وناشرا في اسبانيا وناشرا في النرويج وفي تركيا واليابان والصين ، أن ينشروا له إذا لم يكن لأثره قيمة بحد ذاته ؟

*** أخيرا هل تحلم ؟ وما أجمل أحلامك ؟ ومامداها ؟**

ـ أن تكون العروبة فنا لتجاوز الكلام إلى الحياة ، أن تعرف كيف تكون جوابا عن تحديات العصر ، أن تجد حيويتها في السؤال لا في الجواب ، وفي المجهول لا المعلوم ، وفي اللامنتهي لافي المنتهى ، أن تحب الفكر الذي يرج ويقلق ، أن تحب الأدب الذي يدفع اللغة إلى حدود مالايعبر عنه ، وأن تحب اللغة التي لاتنطق بقدر ما تحفر . وتهبط ، وتغوص ، وتزلزل ، أن يقدر العربي فيها ، وباسمها ، أن يمارس السياسة حتى إن لم يكن من ورثة السلطة أو عضوا في حزب حاكم أو قائدا ، وأن يمارسها بوصفه مواطنا وفقا لحريته وأفكاره وقناعاته ، وأن يتمكن العربي فيها ، وباسمها ، من الذهاب إلى أي قطر عربي ، وأن يتنقل حيث يشاء في أي قطر عربي ، كما يتنقل في بيته ساعة يشاء وكما يشاء .

دون أحلام كهذه أخشى أن تصبح العروبة وطن أوهام ، وطنا للحكايات والخرافات ، وطنا يسكنه أشخاص غير مرئيين ، وطن أصداء وظلال ، وطن «أبالسة» «وعفاريت» و «جن» و «حوريات» . □



رواية من تأليف : خيري الذهبي

بقلم : غالب هلسا

رواية « حسيبة » لخيري الذهبي حدث متميز في الرواية السورية والعربية ، متميزة لتجنبها الكثير من مآزق الرواية العربية ، وبسبب اقتحامها لميادين جديدة في التجربة الروائية .

الرواية تدور في دمشق القديمة ، ابتداء من عشرينيات هذا القرن حتى خمسينياته . وعالم دمشق عالم مغلق ، لم يجرؤ إلا القلائل جدا على الكتابة عنه ، وكان ماكتبوه مزيجا من « الميلودراما » والمذكرات الشخصية . وهذا أحد أسباب تفردها .

سبب آخر لتفردها هو الروح الواقعية التي كتبت بها الرواية . شعرت في كثير من الأحيان وأنا أقرأ هذه الرواية أن هنالك مواقف كثيرة ، سوف تنتهي إلى « ميلودراما » نموذجية ، لكن قدرة الكاتب ونفاذه كانا يخرجان بالرواية من هذا المأزق ، ليقدما لنا عالما مأساويا بطوليا شديد الإقناع ، إن لقاء الشاب الباريسي (العربي الأصل) الثائر مع الفتاة الجميلة في البيت الذي يختفي فيه لقاء البطولة المتشققة مع البراءة معطى مثالي « لميلودراما » تنتهي بالزواج السعيد ، والخروج من كابوس المطاردة . ولكن قدرة الكاتب ونفاذه تجاوزا الميلودرامي إلى المأساوي البطولي .

والرواية مكتوبة بتقنية جديدة مهما كان تقييمنا لها ، تظل مغامرة جسورة ، تفتح طريقا جديدا للكتابة . أعني بذلك المزج بين أسلوب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وإيقاع المسرح اليوناني . إن اللحظة الحاضرة تحتوي الأزمنة

كلها : الماضي كخلفية ، كقدر لمجتمع متخلف ، لا يستطيع التملص منه ، والمستقبل كنذير ، وبهذا يتحقق شرط مفهوم القدر في المسرح اليوناني .

ولكن هذا القدر قدر بشري ، وإن تقنع بأقنعة غيبية .

وأخيراً ـ وهذا الأهم ـ استطاعت هذه الرواية أن تخلق البطل « التراجيدي » ـ نعني به حسيبة ـ الذي يخوض صراعا مع قدره ، لاينتهي إلا بالدمار الذاتي .

هذا عن تفرد هذه الرواية ، أما سلبيتها الرئيسية فهي تحكم فكرة مسبقة متناقضة وغير مقنعة . لنبدأ بجانبها السلبي :

١ ـ الفكرة والرواية

يقدم لنا المؤلف نظرية طريفة عن المدينة الواحة ، الواقعة على طريق القوافل التجارية ، ومن خلال ذلك ـ وربما دون أن يقصد ـ يقدم لنا مفهوما للزمن وللتاريخ . إن الذين استقروا في تلك الواحات ـ المدن الناس « سيتهم الأحلام القديمة ، أحلام الغزاة الكبار ، والمغامرين الكبار ، والعاشقين الكبار ، والتجار الكبار . أولئك الذين قذفتهم يوما فيافي الصحراء العربية إنهم أحفاد أولئك الذين طردهم جفاف اليمن بعد إخفاق مغامرتهم الكبرى في التغلب على حموضة الصحراء المهاجمة ، فتفرقوا ، واجتازوا الصحارى ، تحملهم جماجم المتعبة ، حتى رأوا واحة مسكينة ، فرأوا فيها الجنة المنتظرة ، وقالوا : سنرتاح قليلا حتى المحطة القادمة ، تلك المحطة التي لن يصلوها فيما بعد أبدا ، لأن الكسل والملل والانتظار مالبث أن سكن دماءهم الفائرة وحاصرتهم الصحراء ،" وقالوا : نوفر قليلا ، نوفر في الفرح ، نوفر في الحزن ، نوفر في التوق ، نوفر في المغامرة » .

وهكذا استسلموا لركود مديد ظاهري ، وازدادت هذه الواحات ركودا عندما تحولت عنها طريق القوافل التجارية ، « وفي فترات الانتظار الطويلة ، فترات تغير طرق التجارة الكبرى « يتولد تصميم قديم ، « يلح : لاداعي للتسرع ، سترجع القافلة وطرق القوافل والأرباح والغنى قريبا » ، لكن الحلم السبئي القديم يستثار عند « هؤلاء الأحفاد الصغار لأولئك المغامرين ، والمحاربين ، والحالمين والتجار الكبار ، « فكانوا » يفاجأون حين يسمعون أن واحدا من أبناء جلدتهم قد قرر كسر قيود الواحة والخروج إلى كبد المغامرة ، لذلك حين سمع « أبومنير » و « أبوسعيد » و « الشيخ يوسف » نبأ عودة صباح المسدي إليهم ، حلوه كل شوقهم القديم إلى تلك المغامرات ، والرحلات والأحلام التي كانت خبز أجدادهم اليومي ، قبل أن يرتاحوا قليلا في تلك الواحة ، فرأوا فيه تحقيق الحلم وإنجاز التوق » .

هذه هي النظرية التي يقدمها المؤلف ، وهي تأتي في سياق عودة صباح المسدي وابنته حسيبة من اختفائهما في الجبل ، بعد أن شاركا في الثورة السورية ضد الفرنسيين ، إثر انتهاء الحلم الفيصلي بالاستقلال والوحدة ، عند نيسكنا في بيت قريبهما ، حمدان الخوقدار ، بعد أن انتهت الثورة ، وعندما لم يجدا مكانا يؤويهما . إن حمدان يرحب بقدومهما لأنهما أثارا عنده ، وعند أبناء الواحة الراكدة ، الحلم السبئي القديم .

ومن هنا تصبح الثورة السورية ـ في وجه من وجوهها ـ تمردا على الركود الروحي لأهل هذه الواحة المسماة دمشق .

المؤلف نفسه ، ومنذ البداية ، غير مقتنع بهذا التفسير ، فصباح انضم للثورة لأنه لم « يستطع العمل مُشْبَب « فابريقات » فرنسة وانكلترة كانت قد استولت على العالم الذي سحب منه صباح إلى السفربرلك .

« وحين انضم صياح المسدى إلى حارس حارات الشام ، حسن الخراط ، في هوجته في الغوطة ، كان يظن أنه سيستعيد عالمه القديم الهادئ » ، حيث يخلو إلى عدته البسيطة ، ويسدي الحرير في تلك الدورة النسيجية الطويلة في صناعة الصايات والالاجات والديما » .

وهذا يعني أن الدافع الرئيسي للثورة كان تغيير الهياكل الاقتصادية الاجتماعية ، هذا التغيير الذي أدى إلى بطالة العديد من أصحاب الحرف اليدوية ، وإلى تغيير موقعهم الاجتماعي .

أليس هذا سببا مقنعا للثورة ؟

إن هذه النظرية تطرح إشكاليات عديدة ، سواء على مستوى النص الروائي ، أو على مستوى علم الاجتماع . تطرح على المستوى الروائي انحياز الكاتب إلى القدر الذي لاراد له ، وخذلان حسيبة التي واجهت ذلك القدر وتغلبت عليه . يبدو لنا أنه حين يرى المؤلف أن الحاضر يطيع الماضي ، وأن الأموات يحكمون الأحياء ،فإن مأساة حسيبة هي أنها لم تخضع لقدرها ، بل لقد لبست ملابس الرجال ، وعاشت حياتهم حين شاركت في الثورة .

يعني أيضا أنه كان على خالدية خاتم أن ترضى بقدرها ، أن تكون زوجة لرجل تزوج عليها وهي في سن الثامنة عشرة . وهذا معناه أن تفقد الرواية كل شيء ، كل شيء مميز وجميل فيها . وهذه النظرية غير قادرة على سلب ماهو مميز وجميل فيها ، لأن تعاطفنا مع حسيبة وخالدية أقوى من كل التنظيرات . إن للماضي ، بكل تجلياته كقدر ، ينفيه الفعل الدرامي داخل هذه الرواية .

وعلى مستوى علم الاجتماع فإننا نعلم أن المعطيات الاجتماعية والوعي قادران على تبديل الماضي كقدر . قد يبدو للماضي طاغيا ، ولكنه ، عند تأمله بدقة سيتكشف عن قناع للحاضر .

عندما تقرر حسيبة مثلا أن تقيم مصنعا للجوارب فإن مجموعة قيم الماضي تصبح مجرد لغة تعبر عن واقع محدد : إنها مهددة بالمجاعة الحقيقية هي وابنتها وحفيدها ، وماقامت به ليس استجابة لأرواح الأجداد ، بل لخصوصية روحها وجسارتها

٢ - التقنية الروائية

قلنا : إن هذه الرواية مكتوبة بتقنية جديدة على الرواية ، هي مزيج من أسلوب الجاحظ في « البيان والتبيين » وإيقاع المسرح اليوناني ، أو تلك النبرة الخطابية للمسرح اليوناني فماذا نعني بذلك ؟

في هذه الرواية لانجد البنية الروائية المتعارف عليها ، نعني بذلك تلك البنية العضوية المنسجمة ، حيث تصبح الأجزاء ذات وظيفة محددة : أن تشكل الوحدة الروائية ، بهذا لانستطيع أن نضيف جزءا آخر إلى الرواية ، أو أن نحذف منها جزءا ، والرواية بذلك تشبه عضوية الكائن ، حيث إن بتر عضو وإضافة عضو تؤدي إلى تشوه دائم .

في هذه الرواية نجد خروجا على مبدأ الوحدة العضوية ، فبمجرد أن يفتح حمدان الجوقدار الباب ، ليستقبل صياح وابنته حسيبة ، نرى المؤلف قد انتقل إلى شرح نظريته عن - الواحة - المدينة ، وعلاقتها بالقوافل القديمة . وهذا يتكرر كثيرا في الرواية ، فمن خلال مريم - وهي شخصية هامشية في الرواية - يحكي لنا المؤلف تاريخ حياة زوجها ، دون أن يكون لذلك أدنى علاقة بالخط الأساسي للرواية .

إنها تقنية الكتابة العربية كما في « البيان والتبيين » للجاحظ و « الكامل » للمبرد ، و « الأغاني » لأبي الفرج . إن الانتقال في هذه الكتابة من حدث إلى آخر لايتم عبر تسلسل تاريخي ، ولا عبر رباط عضوي بين الأحداث ،

ولكنه يتم عبر التداعي .

هذا يعني أن هذه التقنية محكومة بالشكل الروائي ، فالخروج عن التسلسل الروائي أضفى أبعادا جديدة على ذلك التسلسل ، وأدخلنا في عالم الرجال الذين لم يكن لهم دور كبير في البنية الروائية . من خلال هذا الخروج على التسلسل عرفنا خالدية وأزواجها ، فأصبحت حسيبة بالنسبة لنا أكثر وضوحا ، لقد أسهم كل هؤلاء الرجال في بناء شخصية حسيبة التي كانت تبني نفسها ضد الرجال الغائبين ، بما فيهم الأجداد والأسياد ، أي الأرواح المتقمصة .

روح المسرح اليوناني

تحدثنا عن اقتران هذه التقنية بإيقاع المسرح اليوناني وروحه ، وأعني بذلك شيئين :

الأول : تجسيد الظرف الاجتماعي بأرواح غيبية ، لها سمات مفهوم القدر في المسرح اليوناني وملامحه . وهذا ماسوف نفصله بعد قليل ، في الحديث عن بناء شخصية حسيبة .

الثاني : دمج وحدات الزمن الثلاث بعضها ببعض ، وهذا ماسنتحدث عنه ببعض التفصيل هنا ، وسوف أقدم بعض الأمثلة على ذلك .

حين دخل صباح المسدي وابنته إلى بيت حمدان ، بعد أن انتهت الثورة ، قدم صباح ابنته :

« هذه حسيبة ابنتي .

واتسعت عينا حمدان دهشة : حسيبة ابنتك ؟

ـ نعم ، كانت معي في الجبل .

بعد سنوات ، وفي جلسة صفاء ، وكانا جالسين في مقصف قصر شمعايا ، يلعبان الطاولة ، قال حمدان لحسيبة :

ـ كانت مفاجأة ، مفاجأة صعبة على التصديق أن أراك مكشوفة الوجه ، تمشين إلى جانبه في الحارات .

مثال آخر على ذلك هو عرض نظرية المؤلف عن المدن ـ الواحات ـ ، لتفسير الاستقبال الجماهيري لصباح وحسيبة ، بعد عودتهما من الجبل . والأمثلة كثيرة ، فلا داعي لزحم هذه الدراسة بها . فإلى أي شيء يشير استدعاء الأزمنة الثلاثة إلى اللحظة الحاضرة ؟ وكيف يخدم الموضوع الأساسي في الرواية ، ونعني به صراع الإنسان ضد القدر ؟

القدر هو أحد احتمالات الحاضر التي يخبؤها المستقبل . عندما نغرس هذا الاحتمال في اللحظة المعاشة ، فإننا نضفي على تلك اللحظة كثافة مأساوية ، وبكلمة أدق : جلالا تراجيديا . إن اللحظة الحاضرة تصبح ممرا يعبر به البطل نحو مصيره المأساوي . إن عظمة « ماكبث » هو أن مصيره ـ قدره ـ كان بالغ الوضوح بالنسبة له . إن ماتقوله هذه الحيلة الروائية هو أن المأساة ليست ذلك النتاج « الميلودرامي » لسخرية الأقدار ، بل نتاج اختيارنا على الأخص ، البطولة تختار المأساة ، لا الميلودراما .

٣ ـ المأساوي البطولي

تنبثق بطولة حسيبة ومأساويتها من كونها أرادت أن تتجاوز قدر المرأة ، أن تصوغ حياتها بيديها ، وليس بالخضوع للمواصفات الاجتماعية التي صاغها عالم الرجال ، أن تكون قيمها نابعة من ذاتها ، وليس من عالم الرجال والأسطورة والأجداد . إنها مأساة الفرد الموجه من الداخل ، في عالم موجه بالتقاليد ، حسب تحديد الأنماط التاريخية الذي يطرحه « ديفيد رايزمان » إنها مأساوية الفلاسفة والعلماء والشعراء ، أولئك الذين يسميهم « فوكو » المجانين الذين لم يستطيعوا أن يموهوا صوتهم بصوت المؤسسات القائمة .

حسيبة تعيش في ظل لعنة ، وجوهر بطولتها المأساوية أنها تتحدى تلك اللعنة . صامت سبعة أيام واعتكفت ثلاثة ، متوقعة أن يأتيها النور من الداخل ، وسوف يجعلها منسجمة مع كل المؤسسات ، ولكن الضوء لم يحل عينيها . لقد غدت قدرها وعليها أن تدفع الثمن

خرجت حسيبة إلى الحي ، ولبست ملابس الرجال ، وحملت أسلحتهم ، وحاربت إلى جوارهم . إن حمدان الذي تزوجها فيما بعد يقول لها :

« ألم تكوني تخجلين من المشي حاسرة الوجه ، تاركة كل هذا الحسن نهبا لتلك العيون النهمة الوقحة الجائعة » .

فقالت لترضيه :

« كنا فلاحين على قد حالنا ، نعيش في الجبل ، ونقاتل الفرنساوي ، ولم نكن نفكر في أن الوجه عورة ، (وتنهدت قليلا) ، إنه الجهل عمى » .

وعندما (أصبحت) أنثى وزوجة كان عليها أن تصير تلميذة لخالدية خانم ، تتعلم على يديها مهنة الأنوثة وقدرها . وأنوثة مثل تلك التي يطالب بها مجتمعها لاتصاغ بالتعاليم والنصائح ، بل تصاغ عبر الخضوع الذي يلازمها منذ الولادة . لهذا أصبحت تعيش أنوثتها بوعي خارج عنها ، وهي الفرد الذي كسر التقاليد والمحرمات ، وخرج من أطر المؤسسة الاجتماعية . إنها تعلن فرديتها لخالدية عندما نصحتها بأن تزيل حاجبيها العريضين ، وقالت لها : حاجباك حاجبا رجل . فردت : « جئت إلى الحياة هكذا وسأبقى هكذا » .

أصبحت هي التي تتخذ القرار : فلتتزوج خالدية صباح ، وليصبح صباح شريكا في الدكان . وهي التي أقنعت زوجهابتخزين المواد التموينية ، لأن الحرب قادمة . أضفت على زوجها ـ الدكنجي الصغير ـ سمات الفرد المتميز المغامر ، صاحب المشاريع الكبيرة . تردد ولكنه وافق تحت إلحاحها .

وهكذا فحسيبة هي الفرد الذي لم يكتف بالخروج على تقاليد المؤسسة ، بل تريد أن تخضعها لإرادته

لقد كانت خالدية هي التجربة الناضجة الأولى للتمرد ، التمرد الأول على الفرد . فعندما اقترن زوجها بزوجة أخرى ، وهي ماتزال في الثامنة عشرة من عمرها ، أصرت على الطلاق . وحين حاول إعادتها رفضت بتحقيق شرطها . وهو أن يطلق الأخرى . زوجها الثاني كان بخيلا فظا ، فطلبت الطلاق منه . أما الثالث فقد أحبته . كانت إمكانية فنانة وعاشقة عظيمة ، وبهذا المزاج بنت أسطورته في داخلها ، والتزمت بها .

إن هذا التكوين الروحي لخالدية الفنانة المقموعة العاشقة المعطاءة هو الذي خلق تميزها عن المرأة العادية الراضية بقدرها ، وهو الذي جعلها بعد أن تخلى عنها زوجها الثالث ، وسلب



● غلاف الكتاب

منها كل ماتملك . تنصرف إلى إقامة عالم من العطور الناعمة والورود :

بدأت بتربية نباتات الزينة . فجلبت الأصص ، وأخذت تشتري . وتستعير . وتستهدي ، ليتجمع عندها في أقل من سنتين أكبر مجموعة من نباتات الزينة في الحارة . بل ربما في المدينة . فأقامت جنة أرضية . تعبر عن روحها الحساسة وتوقها للحياة . ولكن فرديتها التي تجلت في الإبداع ، وفي التطريز وإقامة جنة الورود والعطور ، كانت سلبية تجاه الرجل ، تكتفي بالرفض والانتظار ، وفي هذا نكتشف الفارق الأساسي بينها وبين حسيبة .

حسيبة « كانت المرأة الأولى التي استطاعت ترويض حمدان ، بل وربما كانت المرأة الأولى التي روضت رجلا في الحارة كلها » .

ولكن القدر الاجتماعي كان لحسيبة بالمرصاد ، فهنالك مرض غامض قد فتك بكل أبنائها الذكور ، ولم يترك إلا الفتاة الجميلة ، الرقيقة رقة تمنعها من مواجهة الحياة ، ولكنها ترفض قدرها . تقول خالدية :

« خالدية خاتم يجب أن أعطيه صبيا لن أستسلم أمام إرادة أولئك القساة » .

وكانت تلك هي البداية ، إذ توالت معارك حسيبة مع قدرها ، ولم تنته إلا بنهايتها ، معركتها مع أبيها صياح الذي رفض وصايتها ، ومع فياض الشيزري لتحويله إلى « دكنجي » ، ومعركتها مع قوانين السوق حين اشترت « الماكينات » اليدوية ، لصنع الجوارب ، وسيطرت على سوقها ، ثم هزيمتها أمام تطور تقنيات السوق حين دخلت المكائن التي تدار بالكهرباء .

إلا أن أقسى معارك حسيبة كانت مع ذاتها ، حين أحبت فياض الشيزري كانت معركة مع رغبات الجسد الجامح ، ومع خصوبتها التي تبحث عن مقذ ، عن طفل ، ومع مجتمعها الذي يرفض زواج المرأة بمن هو أصغر منها سنا ، ومعركة مع ابنتها . ومع الرجل الذي تحبه ، والذي حاولت قسره على حبها .

من هنا نكتشف الفارق بينها وبين خالدية وقد غزت جسدها من سيطرة القيم التي تقمعه . وتحررت طاقاتها الفنية . أطاعت جسدها . واكتفت بذلك . جسدها الذي لا يرتوي كان ممنوحا ، ولم تكن تريد أكثر من ذلك . أما حسيبة فقد كانت تريد أن تمسك العالم بيديها وتعيد صياغته . على العالم أن يطيعها ، فلم تكن ترضى بأقل من ذلك . ولأن ظرفها الاجتماعي ، قدرها لم يكن يتيح لها ذلك ، دمرت نفسها ومن حولها .

سمات حسيبة هي السمات العميقة للثوري ، نقيض لنمط باني الحضارة الاوربية وامتداده في الوقت نفسه . حين يضع الثوري مشروعا لتغيير العالم فإن على العالم أن يطيع .

٤ ـ أقنعة القدر الاجتماعي

إن أهم مافي هذه الرواية أن الصراع بين الشخصيات ومعطياتها الاجتماعية لم يتم عبر وعي مضاف إليها ، بل تم برموز ومعطيات ذلك العصر .

إن هذه الأبنية التي أقيمت ، لتقمع كل تمرد ضد الواقع التقليدي ، لابد أن يكون أثرها عميقا للصراع ، وهذا ماقدمته الرواية بامتياز ، وهو مايجعلها تقف كواحدة من الروايات العربية المهمة .

هذه رواية مهمة في سياق الرواية السورية والعربية ، فهي قد قدمت أعمق طرح لقضية المرأة ، ومن خلال ذلك طرحت قضية الإنسان في العالم الثالث . □



قصة بقلم : ليلى العثمان

في غفلة وجدت نفسي داخل المقهى المزدحم بأخلاط البشر ، هاربون من الحياة ، ومن أنفسهم ، مواطنون وغرباء ، لوحت الشمس بشرتهم ، أصحاب عاهات يتكئون على العصي ، وبضعة مخنثين يثيرون ضجة خافتة ويتضاحكون ، عشاق صغار هاربون من عيون الأهل ، باحثون عن زحام يضيع وجوههم التي تتألق بفرح خائف .

وجدت لنفسي بين هذا الحشد مكانا . قدم الكرسي القديم تهتز تحتي . أثبت نفسي عليه وأنتظر مرور النادل الذي يتوزع بين الجالسين بنشاط عجيب .

جو المقهى يعبق بدخان السجائر ، والسيجار ، وروائح العرق ، والقهوة ، والشاي ، والمشروبات الأخرى التي ألمح ألوانها ولا أعرف أسماءها . الأصوات متداخلة ، حينا تكون كالهمس ، وحينا كالصراخ ، بعضها يدب إلى الأذن فتلتقط جزيئات منه ، وبعضها يتبعثر في المكان الواسع ، ويضيع مع الضجيج القادم من باب المقهى الذي يفتح ويُغلق دون فرصة للراحة ، لكنها فرصة لرئتي لاستجلاب هواء جديد .

انشغلت أتسلّى بالنظر إلى أقدام الجالسين ، ذات الأحجام والأطوال المختلفة . هواية تلازمني دائما ، وأتصور أن أناقة الرجل تبدأ من قدميه . هاتان قدمان لرجل محظوظ لا شك أن زوجته تصحو باكرا من أجل تلميع حذائه ، وهو السيد الذي لا يعبر لسانه عن كلمة شكر .

هناك امرأة تحسب نقودها ، حذاؤها متآكل ، يشير إلى أنها عاملة ، لا تملك وقتا للاهتمام به . بعض جلود زرقاء تتوزع في ساقيها وأصابعها التي تطل من رأس الحذاء تحمل طلاءها القديم المتقشر .

في الزاوية يجلس رجل كمشت التجاعيد وجهه ، حتى خيل إلي أن التجاعيد وصلت أطراف أصابعه . بدت قدماه داخل الحذاء معوجتين . يرتشف شايا أخضر ، ويهش بكفه الكسل بضع ذبابات تتطاير ، بينما الجالس إلى طاولته يغرق وجهه في الجريدة ، لكن عينيه سارحتان في اللاشيء . يرتدي حذاء ذا كعب عال ، لزوم قامته التي تبدو قصيرة .

تلك قدمان لمّا تلامسهما الأرض القاسية بعد ، تعرتا إلا من براعمها وطراوتها . طفل يرتاح في حضن أمه ، ويعبث بأزرة فستانها الكبيرة . انحدرت عيناي إلى حذائها ذي اللون الأحمر الفاقع المزين بشريط أسود ينتهي بعقدة على شكل وردة ، والكعب رفيع جدا ،

استغربت كيف سيحمل وزنها الثقيل حين تقف، وهلع قلبي حين تصور أنها ربما تلد ويقع الطفل ويتلوث بتراب الأرصفة وأوساخها.

شعرت بشيء يزعجني، يختض معه رأسي الذي يبحث عن لحظة ما. انتبهت إلى أن الجالس عن يميني يهز قدمه اليمنى الممطوطة أمامه بشكل يدعو للقناعة بأنه يعاني من مرض عصبي، خاصة أن عينيه المهمومتين تتراقصان دون أي تعبير. حين تابعت الاهتزاز تذكرت زميلا قديما، شاركني ذات يوم نشاطا ما، في إحدى المؤسسات، وكنت أضغط على ركبته لتتوقف فيضحك شامتا بانزعاجي. لم أعد أراه، فقد تزوج امرأة مومسا وتحول إلى أجوالها.

غيرت وضع جلوسي، بحيث أعطيه ظهري الذي بلا عيون، خشية أن ينتقل توتر أعصابه إليّ، فإذا بعيني تصطدم بوجه الذي يجلس أمامي، وقد داهمته شرقة حادة، احتقنت لها حدقتاه، وتطاير نثار الشاي من فمه، وفتحتي أنفه، ونال وجهي بعض الرذاذ الساخن. في المقهى المكتظ بزبائنه يكثر المتسولون، يدخلون ويخرجون مارين بالطاولات، نساء منحنيات للزمن المر، متلفعات بألوان من الشوادر والعباءات، رجال عجائز فقدوا أسنانهم وشعر رؤوسهم وضوء عيونهم. صبيات جميلات، تقفز شهوات بعضهم إليهن وتنقذهن بكاراتهن. وأطفال زفرتهم الأمهات إلى الشوارع المخادعة، حفاة، ممزقو الأقدام، متسخو الوجوه، خشنو الأكف كأن الطفولة غادرتها. تراقب عيني الأيدي الكثيرة التي تمتد إلى الرواد. ترتد خائبة أو ظافرة، والشفاه شاكرة أو لاعنة، تتناثر كلماتها كالغبار، وقد يعج صوت الرجال فيها.

أحد الجالسين يحدث صديقه، فتلتقط أذناي المشنفتان صوته:

- لا أدري متى بالضبط بدأ هذا الشقاء يزحف! كيف يتكاثرون؟

قال رفيقه بحزن:

- النساء البائسات كثيرات، لا هم لهن سوى تفريخ هذا الشقاء. لا يملكن ثمن حبة تمنع الحمل.

- البعض يأكل ويبصق، والآخرون يلحسون البصاق، لا عدالة، ولا رحمة.

صوت الآخر بحدة يؤكد لصاحبه:

- يوما بعد يوم ستجد أسماء هؤلاء تقرض الحجارة.

ضحك بجزء حزين:

- نحتاج حتما لعمر بن الخطاب جديد.

بألم شديد يضغط على أسنانه ويكوم قبضته:

- والله حرام، قلة تلتهم موائد الخير، وكثيرون جياع.

قال صاحبه وهو يمسك بخنصر سيجارته:

- انظر، كل شيء صار كهذه السيجارة، انظر كيف تلتهم الورق، تحوله إلى رماد. هكذا يفعل الطغاة بهؤلاء البشر.

فاجأني إحساس بالغثيان وأنا أتصور الموائد العامرة في مدينتي، حيث يذهب أغلبها هدايا لصناديق القمامة، فتسمن الفئران، وتفر القطط من طريقها جائعة البطون.

بطون النساء تختلف عن بطون الرجال، تتكور مشدودة تحت ضغط الرجيم أو التنانير الضيقة. يبدو شكل امرأة حامل جميلا، لكنها بالتأكيد لا تفكر بشيء بعد الولادة إلا بكيفية استرجاع رشاقتها. فإذا كانت اناقة الرجل تبدأ من قدميه فإن اناقة المرأة تبدأ من مساحة بطنها وصدرها. صوت أحدهم يصرخ بالنادل، فيرتجف، ويسقط كوب الماء الفارغ، ويتناثر الزجاج، ويبتعد أحد الأطفال الحفاة، بينما تدوس قدم رجل سمين على بعضه، ويصدر صوت أزيز، تحتك له الأسنان نافرة. يحمل النادل عصبيته، ويطرق فنجان الشاي الجديد

أمامي ، وينصرف بعد أن يلقي ورقة الحساب القابلة المبللة ، فأكتم الغضب في صدري وعيناي تستقران على صدور الناس الجالسين . أكثرها متعب ، مثقل بالهموم . بعضها يبدو وقد مات منذ زمن طويل . قليل منها مشرع للهواء وللحياة ، كأن أصحابها يتحدون بالأمل كل يأس طارىء . ما الذي تحمله صدور الناس هذه من أحاسيس ، وحكايات ، ومتاعب ، وأسرار ، وأحقاد ، ومشاعر حلوة نادرة ؟! شيء يثير الفضول ، وعالم الصدور غالبا ما ينعكس على الوجوه . يفور بركان فضول العين إلى الوجوه العديدة المختلفة . كل متناقضات الحياة موزعة عليها . وجوه بائسة تجعدت أحلامها ، وأخرى هدّل التعب جلدها ، وأخرى موشاة بحزن عتيق ، شق له قنوات في تضاريسها . وجوه تطفح بالمرح أو بسعادة واحدة ، وجوه متفائلة ، وأخرى يفوح شؤمها ، عالم من الصور تحمله وجوه جميلة سبحان الله صانعها ، ووجوه مدعوكة لا تميز العين سرها . وجوه تدعوك المتأمل تفرك وتغلق أمامك باب النظر . وجوه تبتق فجأة ، تحس أنك تعرفها ، بالتأكيد تعرفها ، وأخرى تتساءل لماذا هي موجودة في الأصل ؟

صوت سعال خفيف يتسرب إلى أذني . ألتفت ناحية الصوت يستوقفني الوجه . تفرست فيه . أكدت لنفسي .

ـ أنا أعرف هذا الوجه ، أعرفه جيدا .

أمسكت رأسي أشد عليه . أعصر ذاكرتي وكأنها برتقالة لما تستو بعد ، ألح عليها أن تذكرني بصاحب هذا الوجه : أين رأيته ؟ متى التقيته أول مرة ؟ هذه الخطوط العميقة في جبينه خطت لنفسها عمقا داخل وجداني ، فكيف أنساه ؟

كان النادل قد وضع فنجان القهوة أمامي حسب طلبي ، رشفت منه ثم عدت أتفرس في الوجه الذي أيقظ ذهني من تأملاته في الأقدام والبطون والوجوه . يجلس هادئا ، يقلب مجلة أجنبية ، وبين شفتيه سيجارة تكاد تنطفيء ويتناثر رمادها على بدلته الداكنة . لعله شعر بنظراتي المصوبة نحوه . التفت ، رفع حاجبيه بالسؤال الصامت : هل تريدين شيئا ؟ خفضت بصري والهمس بداخلي : لا أريد شيئا ، ولكن من أنت ؟ منذ شهور وذاكرتي تخونني وتحرجني . قبل سفري راجعت طبيبا بناء على إلحاح إخواتي . حتى هذه اللحظة لم أتذكر اسمها على الرغم من الأسماء المتلاحقة حولي من رواد المقهى . يومئذ كنت أزور أحد المعارض الفنية . حين رأتني هللت لقدومي ، فتحت ذراعين طويلين وحضنت جسدي النحيل :

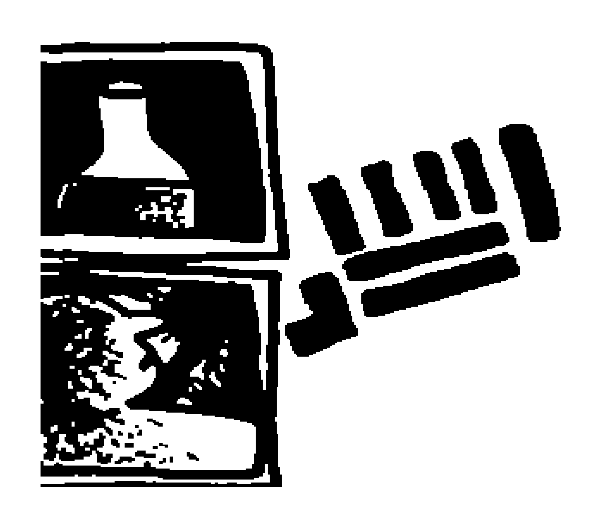
ـ أهلا زينة ، يا للساعة المباركة ! أخيرا أراك بعد كل تلك السنوات .

تشممت روحي دهشة باستقبالها الحميم ، رددت ببلاهة :

ـ أهلا :

وانهالت سؤالاتها كالمطر :

ـ هاي ما عندك ! ما أخبارك ؟ أحوالك ؟ ما أخبار هشام وحنان ؟ وماذا بعد أن تركت المدرسة ؟ سامح الله والدك . ما أخباره ذاك الذي لم يكن يسمح لك حتى بالنظر من فتحة الشباك ؟ هه . . . ما أخبار خالتك التي كانت تشكو من مرض السكر ؟ لقد أصاب والدتي المرض نفسه ، وكانت تعالج عند الدكتور نايف .



آه ، فتحت ذراعيها وعانقت الهواء إلى صدرها ، كمن تحضن رجلا تولعت بذكر اسمه . ثرثرتها تواصلت ، وأنا كالبلهاء أتصيد الكلمات لأربطها وأرد عليها ، لكنها تواصل دون توقف .

ـ الدكتور نايف ألا تذكرينه ، أم تصطنعين الغباء ؟ أحاول في هذه اللحظة أن أتذكر هذا الدكتور نايف الذي حاولت لعلمها أن أتذكره فلم أفلح . من هو ؟ ولماذا تحدثت عنه بتلك الصورة المليئة بالغضب وبالشوق ؟

يومذاك غرست كفها في بطني لتمازحني وتستفزني :

ـ الدكتور نايف ، ألا تذكرينه ؟ لقد تقابلت أمي وخالتك في عيادته ، تذكري كيف قرص خدك هكذا .

وشدت أصابعها على كتلة من لحم خدي ، توجعت ، ضحكت :

ـ هه ، تذكرت الآن ؟

لا أتذكر شيئا . أصرت في ذلك اليوم أنه جاء ليخطبني ، وأنني كنت ميالة إليه . تحدثت عني وكأنها تعرفني أكثر من نفسي ، وأنا أزوغ بذاكرتي مرتدة للسنوات التي تعنيها ، لكن حبالي بليت ، حتى اسمها لم أتذكره ، فجاء صوتها جادا منبها :

ـ اسمعي يا زينة ، أنت بحاجة إلى طبيب يغسل كسل ذاكرتك .

تلاقت عيناي بعيني النادل . هز رأسه ، قال بلهجته السريعة :

ـ حاضر ، فنجان قهوة ؟ سكر خفيف ؟ إنه الخامس .

هززت رأسي مبتسمة ، فرح بابتسامتي . مسكين ربما لم تبتسم له امرأة منذ أسبوع ، تلفت في المقهى ، الوجوه تغيرت ، الروائح جديدة . خلف الزجاج يتفرس وجه طفل يدق بكفه الضئيلة على الزجاج ، حين أنتبه إليه بكلي يمد لسانه ، ويقوم بحركة مخزية من يده ، ويفر بسرعة ، متصورا أنني سأشق الزجاج لأعاقبه .

أستدير إلى وجه صاحبي ، ما يزال في



مكانه . هو الذي يراقبني الآن . وأنا أتساءل : هل عرفني ؟ لماذا لا يبتسم إذن ؟ لماذا لا يتكرم ويقترب ويصافحني ويحلق باسمي ويعرفني باسمه لأتذكره وأرتاح ، وأتأكد أن ما قاله لي الطبيب صحيح :

- نسيانك اسم إحدى صديقاتك لا يعني حاجتك إلى علاج ، إن ذاكرتنا كثيرا ما تركن للراحة ، تماما كالجسد ، قد تنسى في لحظة ما اختزنته سنوات ، لكنها تظل مثل صفحة السماء مهما حاصرتها الغيوم فإنها تصفو .

ربما أقنعتني كلمات الطبيب في حينها ، لكنني في اللحظة هذه أشك في أقواله ، فهذا الوجه الذي يفرض وجوده علي ليس غريبا . لماذا لا يبادر ؟ هل يخجل ؟ هل يخشى أن يسبب لي إحراجا ؟ ليس معي رجل ما ! من يدري ربما هو مثلي يعاني من مرض الذاكرة .

يا إلهي !! الإلحاح الشديد بحد ذاته مرض هو الآخر . أين قابلته ؟ في أي بلد ؟ أي سماء ؟ ربما في إحدى رحلاتي الجوية الكثيرة . قد يكون أسعفني من خوفي حين اهتزت الطائرة وصرخت .. أو .. ربما في إحدى البواخر الكبيرة حين فاجأني دوار كدت معه أفقد توازني وأنزلق إلى القاع ، فسارعت ذراعاه وأنقذتا عمري ، والتقت عيوننا في لحظة ميلاد ، جعلت وجهه يلتصق بلحم ذاكرتي كل هذه السنوات .

جسدي متراخ ، أشعر بأنني أستفيق من غفوة طارئة ، نقاط تتراقص أمام عيني وزخارف ملونة ، طعم القهوة تغير في فمي ، جفاف خشن تمدد على لساني ، خدر لذيذ يوقظني منه النادل :

- طلب آخر ؟

هدوء المقهى جعلني أدير رأسي متجولة . إنه شبه خال . الطاولات كثيرها نظيف لامع ، تتوسطه منفضة السجائر وأوراقه الاستعمالية . وقليلها لمّا تمتد له بعد يد النادل الآخر الذي يتوزع بين الطاولات والزبائن لتنظيفها ، ما تزال خاضعة لأعمال الذين تركوها ، علب سجائر فارغة ومبعوجة . زجاجات المشروبات وكؤوس الماء وفناجين شاي وقهوة ورماد متناثر وأوراق ممزقة ، لو كنت في وضع جيد لفتحتها وقرأت أسرارها . الكراسي بعضها مصفوف مرتاح ، وأخرى ما تزال متباعدة ومتقاربة تئن من وطأة تعبها وعرق الذين هجروها .

الأرض متسخة معفرة ببقايا البشر وبصمات المتسولين . لا أثر لكل الأقدام السليمة والمشوهة ، ولا للصدور التي زفرت طاقتها . ولا للوجوه التي نسيت نفسها في قنوات رأسي .

تمتد عنقي بكل الفضول إلى كل الاتجاهات ، أبحث عن الوجه الأليف المنسي في صندوق الذاكرة ، لكن الفراغ والصمت يواجهان جولة عيني حتى تقعا على الطاولة الأخيرة في الزاوية . يرتعش قلبي للمنظر ، رجل وامرأة ، عاشقان . الرأسان متحدان ، الكفان متشابكتان ، والشفتان لا أدري إن كانتا صامتتين أو هامستين . ضوء الظهيرة الحاد يسقط عليهما ، ويفترش تحت أقدامهما المسترخية بشكل مثلث غير منتظم الأضلاع .

وهمسة النادل :

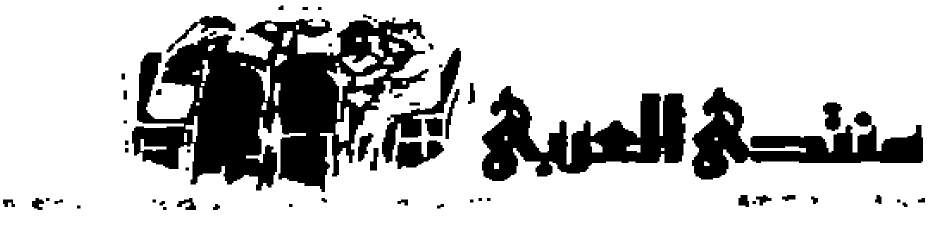
- شيء آخر ؟ الساعة الآن الثالثة والنصف .

عيناه ترتدان إلى لوحة العاشقين المنزويين ، كأنه اعتاد وجودهما ، ثم إلي بشبه رجله :

- شربت قهوة كثيرة .. الحساب .

رفعت قامتي بكسل ، فتحت حقيبتي ، سحبت كمّا من الأوراق النقدية ، وضعتها على الطاولة ، وخطوت نحو الباب المغلق . قبل أن أخرج نظرت إلى النادل الذي كان ينظر إلى النقود باندهاش واضح لا يخلو من فرح .

فتحت الباب ، كان خلفي وجه يطاردني ، يخترقني ، وينتصب في رأسي مصرا أن أتذكره . أمامي كان الشارع موحشا ، وفي قلبي إحساس بلوحة أخرى لعاشقين في مقهى آخر .□



قضية

الفكر الاجتماعي وقضية التنمية

بقلم : الدكتور ناول عبد الهادي*

« لم يزل بعض الناس ينظر إلى قضية التنمية من منظور اقتصادي فقط ، يدلل على أهميتها أو يقيس نتائجها وفق مؤشرات اقتصادية ، كمعدل الدخل ومستوى المعيشة ، وفي الحقيقة أن التنمية قضية شاملة ، تحتوي على البعد الاقتصادي داخلها ، وهي تمس المجتمع بكل أنساقه ومستوياته » .

من التغيرات التي ذاعت في الفكر العربي في العقدين الأخيرين مفهوم التنمية ، ونجد الكلمة تستخدم في الوثائق الرسمية ، والخطط الحكومية ، وفي أبحاث الأكاديميين ودراساتهم وهم يتحدثون عن التنمية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية ، الى غير ذلك من المجالات ، وبقدر ما اتسع استخدام التعبير وذاع بين الناس ، بقدر ما استخدم في مجالات تخرج عن معناه ومقصده ، فبعضهم يستخدم مفهوم التنمية بمعنى التقدم ، وبعضهم الآخر يستخدمه بمعنى التحديث ، والاتجاه إلى أشكال عصرية من التنظيم الاجتماعي ، وبعض منهم يستخدمه كمرادف لتعبير التغير ، وهذه الاستخدامات على الرغم من أنها غير دقيقة فإنها تشير إلى معان ودلالات ارتبطت - في فترة تاريخية أو أخرى - بمفهوم التنمية .

بدايات تاريخية

إن مشكلة التنمية لم تطرق أبواب العلم الاجتماعي إلا في نهاية الحرب العالمية الثانية ، فمنذ القرن السادس عشر على الأقل والمفكرون الاجتماعيون يعالجون موضوع التغير والتطور في المجتمع ، ويكفي في هذا المجال أن نستعرض ،

* كاتب من القطر العربي للغرب .

بسرعة ، أهم معالم هذه المعالجة ، فكل من فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٣٦) ورينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) قد تصور أن الإنسان يستطيع أن يحقق تقدما لا حدود له ، بفضل جهوده الإرادية الواعية . وقد وضع فونتنيل (١٦٥٧ - ١٧٥٧) نظرية للتقدم الاجتماعي ، تقوم على أساس أن تراكم المعرفة العلمية هو أفضل سبيل لتحقيق التقدم .

وقدم أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) نظريته المشهورة عن المراحل الثلاث التي تعكس عملية التقدم في التاريخ . وحتى بداية القرن العشرين اختلطت فكرتا التغيير والتقدم لدى عالم الاجتماع الانجليزي هربرت سبنسر (١٨٣٠ - ١٩٠٣) الذي رأى أن التقدم الاجتماعي يسير في وفاق مع التقدم الكوني و « البيولوجي » ، وأن التطور الاجتماعي جزء من عملية طبيعية شاملة تحدث في الكون .

والفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر يقدم لنا أيضا بداية التمييز بين أنماط متعددة من المجتمعات ، فالسير هنري مين في كتابه (القانون القديم) (١٨٦١) يميز بين مجتمعات قائمة على المكانة الاجتماعية ، وأخرى على التعاقد ، وأن جوهر التطور هو الانتقال بالمجتمع من وضع المكانة الاجتماعية الى وضع التعاقد . كما ميز تونير (١٨٨٧) بين الجماعة والمجتمع ، حيث يسود الأولى طابع المحلية والعلاقات التلقائية الطبيعية ، أو مايسميه الإرادة الطبيعية التي تجد أساسها في العائلة أو القبيلة ، وفيه تعد الجماعة بمثابة تنظيم طبيعي ، يرتبط به الإنسان من الميلاد الى الممات ، ويشعر بالانتماء إليه ، وتسود الوحدة العضوية والقيم المشتركة والتناسق الداخلي ، أما المجتمع فيعرف الإرادة العاقلة أو الرشيدة ، حيث تسود قيم التعاقد والعمومية والانتماء إلى جماعات غير طبيعية كالنقابة أو الحزب . كذلك يفرق اميل دوركهايم (١٨٩٣) بين مجتمعات بسيطة وأخرى مركبة ، الأولى



● فرنسيس بيكون

يسودها التضامن الآلي الذي يقوم على التشابه في الأبنية والقيم السائدة والأفكار ، والثانية تقوم على التضامن العضوي الذي يعتمد على التباين الذي يؤدي الى التكامل ، حيث يكون البناء الاجتماعي تنظيما للعناصر المتباينة .

هذه النماذج الثلاثة : (مين وتونير ودوركهايم) ليست سوى أمثلة لعديد من الثنائيات التي قدمها الفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ومنها التمييز بين التقليدي والحديث ، والحضري والريفي ، والزراعي والصناعي ، لكن كل هذه المحاولات لم تخرج عن إقامة ثنائية بين نوعين من المجتمعات ، دون أن توضح لنا كيفية الانتقال من إحدهما الى الآخر ، والقوى التي تحكم هذا الانتقال . وتنتقد هذه الثنائية على أكثر من أساس ، فهي : أولا : تخلط بين مفاهيم التغير والتطور والنمو والتقدم . ثانيا : أن لها طابعا سكونيا جامدا ، وتفترض أن كل المجتمعات لابد أن تنضوي تحت أي من النمطين . ثالثا : تتضمن في ثناياها انحيازا للنموذج الغربي في التنمية ، وافتراض أن نموذج المجتمع الغربي هو غاية عملية التنمية ونهايتها .

من التنميــة الاقتصـــاديـــة إلى التنميـــة المجتمعية :

ذكرنا أن موضوع التنمية فرض نفسه على دراسات العلوم الاجتماعية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وعلى الأخص على استقلال دول آسيا وأفريقيا ، ومرة أخرى كانت سرعة التطور التاريخي أكبر من التراكم العلمي « الأكاديمي » . فقد وضح مدى تخلف الدراسات العلمية عن استيعاب الحقائق الجديدة ، ومعالجة المشاكل المستحدثة التي طرحتها هذه البلدان . وكان علم الاقتصاد أسرع العلوم الاجتماعية استيعابا للموضوع . وبرزت التنمية الاقتصادية كأحد اهتمامات العلم الرئيسة ، وربما كان سبق علم الاقتصاد في هذا المضمار مرجعه أربعة أسباب :

أولها : أن الحكومات شجعت ذلك من حيث تركيزها على مشكلات التخلف الاقتصادي .

ثانيها : أن الآثار الاقتصادية الناجمة عن التخلف ، من بطالة وفقر وغيرها ، لها طابع العجلة .

ثالثها : أن علم الاقتصاد أكثر قدرة على *التعبير الرقمي عن متغيراته .*

رابعها : أن موضوع التنمية السياسية والاجتماعية قد يثير حساسيات وخلافات لاتوجد رغبة في إثارتها .

وتطرق بعضهم في التركيز على البعد الاقتصادي إلى حد اعتباره العنصر الوحيد لعملية التنمية ، ووصلوا إلى نوع من الحتمية الاقتصادية أو التقنية ، مؤداها أن كل المتغيرات التي تطرأ على المجتمع يمكن إرجاعها في نهاية الأمر إلى عوامل اقتصادية أو تقنية . يترتب على ذلك أن تصبح المدخلات الاقتصادية أو التقنية هي *السبيل الوحيد لإحداث التغيير الاجتماعي .*

ولاشك أن في ذلك تبسيطا شديدا لمفهوم التخلف ، لتداخل مختلف ظواهر الحياة الاجتماعية جدليا ، وتفاعلها وظيفيا . وبتقدم الدراسة في الموضوع اتضح شمول ظاهرة التنمية ، وأن التنمية الاقتصادية ماهي إلا أحد متغيرات الظاهرة التي تشمل متغيرات اجتماعية وسياسية أخرى مثل طبيعة البناء الاجتماعي والعدالة في توزيع الدخل والتكوين الفكري وبناء القيم في المجتمع ونظم المؤسسات والمؤسسات القائمة . ثم اتضحت العلاقة الوطيدة بين مختلف جوانب عملية التنمية . فالتنمية الاقتصادية ترتبط بعديد من الجوانب الاجتماعية ، من حيث شروطها ونتائجها ، فنجاحها يتطلب وجود مؤسسات اجتماعية معينة ، وقيم وتنظيم تعليمي وخبرات فنية وتقنية ، فالقيم الاجتماعية التي تضبط السلوك الاجتماعي وتوجهه تمارس تأثيرا على عملية التنمية من حيث آثارها المباشرة على الحوافز وأنماط الاستهلاك وحجم المدخرات وحجم الأسرة . ويدخل في ذلك أيضا دور المعتقدات والتقاليد والعادات والأوضاع والالتزامات العائلية والقبلية . كما تتطلب التنمية الاقتصادية اعتبار التعليم ، وما يتصل به كالتدريب المهني والبحث ، نوعا من الاستثمار ، وتوجيه سياسته وفقا لاحتياجات التنمية . ومن حيث الآثار والنتائج فإن التنمية الاقتصادية تطرح آثارا على أشكال المجتمع وأبنيته ، سواء فيما يتعلق بوضع الأسرة أو بدرجة العمران (التحضر السكني في المدن) أو بنسق القيم السائدة والعلاقات الاجتماعية والعلاقة بين الأجيال . كما أنها تستهدف في التحليل الأخير هدفا اجتماعيا ، هو توفير حد أدنى من الإشباع الاقتصادي اللازم لتحقيق رفاهية الإنسان . التنمية الاجتماعية من الناحية الأخرى تستهدف إقامة بناء اجتماعي ، يضمن استثمار إمكانات المجتمع البشرية والمادية أفضل استثمار ممكن ، ويضمن توزيع عائد التنمية الاقتصادية توزيعا عادلا . فالتنمية

الاجتماعية تستهدف إحداث تغييرات اجتماعية في أبنية المجتمع ووظائفه ، ويتضمن ذلك البناء الطبقي ، والمؤسسات الاجتماعية ، ونسق القيم والمعايير السائدة . وهناك علاقة وطيدة بين البناء الاقتصادي لمجتمع ما ، والشكل السياسي له ، والقوى الفاعلة فيه .

ومن ناحية أخرى فإن التنمية الاقتصادية تتطلب درجة من الاستقرار السياسي الذي يدفع الى ازدياد معدلات الادخار ، ويخلق إطارا نفسيا ملائما للعمل المشترك ، كما تتطلب جهازا إداريا على درجة عالية من الكفاءة . نتج ذلك على المستوى « الأكاديمي » حركة مزدوجة من ناحية ازدياد اهتمام الاقتصاديين بالعوامل غير الاقتصادية في عملية التنمية ، ولعل دراسات روستو وهاجن وميردال أفضل أمثلة في هذا المجال . ومن ناحية أخرى تطور الاهتمام بموضوع التنمية في مجال الدراسات الاجتماعية الأخرى ، كعلم الإنسان (جيرتز) ، وعلم النفس (ماكليلاند) ، وعلم الاجتماع (مورولينرنر) ، وعلم السياسة (للموند وفيربا) ، و (باي وكولمان وابتر) .

وعلى المستوى الحكومي اهتم المخططون بدور العوامل الاجتماعية في عملية التنمية ، مثل الاعتراف بدور القيم أو النظام الإداري في تعويق عملية التنمية أو الإسراع بها . وقد أشار العديد من برامج التخطيط في البلدان النامية إلى هذه الحقيقة . وكانت نتيجة هذه الحركة أن أصبحت التنمية الاقتصادية جزءا من كل ، وازداد الإدراك بأن تنمية الاقتصاد لا يمكن فصلها عن تنمية للمجتمع ككل وإطلاق قواه الكامنة .

إنها عملية شاملة ، متعددة الأبعاد والجوانب ، بمعنى أنها تشمل المجتمع بأسره ، بكل ما يتضمنه من أنماط سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية . فمن المسلم به لدى أغلب الباحثين أن المجتمع يمثل وحدة عضوية كلية مترابطة ، يتأثر كل جزء منها بالتغيير الذي يطرأ على باقي الأجزاء .

ما التنمية ؟

قضية التنمية إذن هي قضية تغير حضاري شامل ، يتناول كل أبنية المجتمع وأدواره ، ويشمل الجوانب المادية والإنسانية فيه . يترتب على ذلك أن أي نظرية في التنمية الاقتصادية أو السياسية مثلا لابد أن تنبثق عنها ، وترتبط بنظرية عامة في تطور المجتمع ، وأن تأخذ في اعتبارها جوانب المجتمع المختلفة التي تتعرض لعملية التنمية ، لذلك لابد من الأخذ بمنهج ينظر إلى الظاهرة التنموية في تكاملها ويسمح بالنظرة الشاملة للبناء الاجتماعي ككل .

وهكذا نخلص إلى أن التنمية ليست مجرد زيادة مستوى الدخل ، ولا مجرد تحقيق أهداف اقتصادية ، وليست مجرد استعارة الأنماط التقنية المتقدمة من الدول المتقدمة ، فالتنمية كقضية حضارية جوهرها تحقق الغايات الجماعية للأفراد في إطار المجتمع ، والسياسة التنموية هي تلك التي تسمح للأفراد وتنظيماتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بمواجهة العقبات التي تحول دون ذلك ، وتمكنهم من إطلاق قواهم الكامنة ، لتحقيق هذه الأهداف ، بحيث يملك المجتمع قواه الدافعة من داخله ، ويصبح قادرا على تحقيق استقراره وتوازنه على طريق الغايات الجماعية للمجتمع . □



× العاجز من عجز عن سياسة نفسه .
× العاقل من اعتبر يومه بأمسه .
× ربما بات المرء مسرورا ضاحكا ، والموت على باب داره واقفا .



احتضار البحار !

بقلم : الدكتور سمير رضوان

بحار الأرض ومحيطاتها مريضة . والأحياء البحرية يغتالها التلوث . لذلك فحياة الانسان الذي يعتمد في جزء من غذائه على هذه الأحياء أصبحت مهددة . ويرفع التلوث من حرارة الجو فتتمدد المياه في البحار ويرتفع منسوبها باستمرار . وقد تفضي هذه التغيرات البيئية يوما إلى طوفان يغمر اليابسة ويغرقها .

تلوثت بحار الأرض ومحيطاتها بما ألقى فيها الانسان من مخلفات صناعية وزراعية . وقد أصبح الكثير منها في حالة احتضار الآن . ومن ناحية أخرى يزداد متوسط حرارة الغلاف الجوي باطراد ، وذلك بسبب ما تنفثه الصناعة والسيارات من غاز ثاني اكسيد الكربون . ويفضي ذلك إلى تمدد حجم المياه مما يرفع من منسوبها فتغمر الشواطىء مع الزمن . ولقد بدأ الانسان المعاصر يشعر بوطأة هذه التغيرات البيئية العميقة ، ولكنه على الإجمال مازال لاهيا عن أخطارها المستقبلية ، ومازالت صرخات المختصين التحذيرية يطغى عليها

صخب الجشع الاستهلاكي الذي احتوى البشرية في العقود الأخيرة ، والذي زينته الدول الصناعية للإنسان في كل مكان .

تلوث البيئة البحرية :

نشأت الحياة الأولى منذ ٣ آلاف مليون سنة في أعماق المحيطات على هيئة خلايا مفردة بدائية . فقد كانت الحرارة على اليابسة حينئذ أعلى من أن تتحملها الأحياء . كما لم يكن غلاف الأوزون الذي يحمي الحياة من الأشعة فوق البنفسجية القاتلة قد نشأ بعد ، ومن ثم فلابد أن أوائل الأحياء قد نشأت في أعماق المحيط حيث لا تنفذ إليها هذه الإشعاعات القصيرة الموجة .

وتحتل المحيطات والبحار من مساحة الأرض أكثر مما تحتله اليابسة . والبيئة البحرية بيئة مميزة تعيش فيها حيوانات ونباتات وميكروبات خاصة في اتزان عددي دقيق ، حيث يعتمد بعضها على البعض الآخر . والطحالب الدقيقة والضخمة هي نباتات البيئة البحرية التي تصنع المواد العضوية من ثاني اكسيد الكربون فتوفر بذلك لجميع الأحياء الاخرى من حيوانات وميكروبات غذاءها ، وتمثل الأسماك والحيتان وغيرها من الحيوانات كالفقمة أرقى الحيوانات في البحر . كما توجد أعداد غفيرة من الحيوانات وحيدة الخلية ومن البكتيريا . والميزان العددي القائم بين هذه الأحياء مستقر منذ أحقاب طويلة لا يختل إلا في حدود ضيقة ، وهو في الواقع محكوم بالظروف البيئية السوية . فإذا اختلت هذه الظروف اختل التوازن ونشأت الكوارث . هذا هو في الواقع ما طرأ على البيئة البحرية في الزمن الحديث بسبب التلوث .

وها نحن نسمع كل يوم عن نفوق حيوانات بحرية راقية بأعداد تدعو إلى القلق . والحيوانات الراقية - كما هو معروف - تقع في ختام سلسلة الغذاء . وقد سمم التلوث هذه



● الفقمة - حيوان بحري وديع قتل التلوث منه الآلاف في بحر الشمال حتى أصبح مهددا بالانقراض .

السلسلة بكاملها ، وتتركز الآثار السامة في آخر السلسلة . ولسنا بحاجة إلى أن ننبه إلى الخطر الذي أصبح بذلك يهدد حياة البشر الذين يعتمدون على حيوانات البحر في جانب من غذائهم . ويتسبب النشاط الصناعي والزراعي في معظم التلوث الذى يحدث بأسلوب غير مباشر كما يقع بأسلوب مباشر . أما التلوث غير المباشر فيتعلق معظمه بما تحمله الأنهار التي تصب في البحار من ملوثات . وتشمل هذه نفايات المصانع القائمة على شواطىء الأنهار وهي غاية في الكثرة والتنوع ، فلكل صناعة نفايات خاصة بها . ومن أمثلة هذه النفايات حمض الكبريتيك المخفف الذي تتخلص منه مصانع الأصباغ ومواد الدهان . وتدل الاحصائيات على أن أنهار ألمانيا الغربية وحدها تستقبل كل يوم نحو ١٢٠٠ طن من هذا الحمض كنفاية صناعية . وتؤدي زيادة الحموضة في البحر إلى الإخلال بالميزان العددي السائد بين الأحياء البحرية . والأدهى من ذلك هو أن هذا الحمض غالبا ما يحتوي على كميات كبيرة من المعادن الثقيلة الذائبة فيه كالزئبق والكدميوم والرصاص وغيرها ، وكلها ضارة بالحياة .

تموت مختنقة

كذلك تستقبل البحار مع مياه الأنهار نفايات غنية بالهيدروكربونات ومشتقاتها الكلورية والفلورية . وهذه المواد تأتي من المصانع التي تنتج مضادات الأعشاب والحشرات ومن الأراضي الزراعية التي تُرش فيها المواد فتغسلها الأمطار ومياه الري وتحملها إلى الأنهار . ولقد أصبح معروفا أن هذه النفايات أيضا ضارة بالحياة وتفضي إلى أمراض الحساسية والسرطان . أما ماء التبريد التي تستخدمها المفاعلات النووية فتلوث بمقادير ضئيلة من الاشعاع يترك ... الزمن في البحار . أضف إلى ذلك أن الأنهار تحمل إلى البحار مخلفات المجاري وكميات من الأسمدة الزراعية الذائبة ، وتحتوي المجاري على كميات كبيرة من أملاح الفوسفات الناتجة من مساحيق الغسيل ، كما تحتوي هي والأسمدة الزراعية على املاح النترات . هذه المواد بالذات تؤدي إلى زيادة طفرية في معدل تكاثر الطحالب مما يخل بالموازين العددية بين الأحياء . وما أن تموت هذه الطحالب حتى تترسب في القاع حيث تحللها البكتيريا فتتكاثر بسرعة مذهلة وتستهلك أثناء ذلك معظم الأوكسجين الذائب في الماء فتموت الأسماك والحيوانات الراقية مختنقة .

أما التلوث المباشر فيتعلق بالتخلص من النفايات مباشرة في البحار . وقد كان الاعتقاد سائدا في الدول الصناعية أن ميكروبات البحار كفيلة بتحليل كل ما يلقى في الماء من نفايات . لذلك فقد ألقيت كميات وأنواع من الكيماويات - لا يعلمها إلا الله - في أجواف المحيطات . ولكن البحوث أثبتت أن معدل تحلل مثل هذه النفايات في جوف المحيط بطيء أو معدوم ، نتيجة للظروف البيئية الصعبة هناك . فمتوسط درجة الحرارة يقترب من الدرجة الواحدة المئوية فقط وعندها توشك انشطة الميكروبات أن تتوقف . أضف إلى ذلك أن الأحياء في الأعماق السحيقة لا يتحمل أغلبها الضغط المرتفع الناشيء عن عمود الماء فوقها فالنفايات اذن محفوظة في ثلاجات طبيعية بمعزل عن معظم الميكروبات مما يحفظها من التحلل ، فهي بذلك اخطار تتربص بالأجيال القادمة . وتحرم قوانين بعض الدول الصناعية على المصانع القائمة على الأنهار أن تتخلص من النفايات في مياهها ، فأصبحت هذه المصانع تشحن النفايات في سفن وتنقلها لتلقى بها في عرض البحر . هكذا يتم التخلص مثلا من النفايات المحتوية على حمض الكبريتيك المخفف ، ومن المخلفات الصلبة الناتجة عن معالجة المجاري في

كثير من الدول الأوربية ، بل كثيرا ما تحرق النفايات شديدة السمية على السفن في عرض البحر ، وذلك بعد أن حرم حرقها على اليابسة . وهناك منظمات لمقاومة هذه الأنشطة غير المشروعة مثل حركة السلام الأخضر في أوربا ، أما الدول المطلة على البحار فكثيرا ما تتخلص مصانعها من نفايات مباشرة في البحر كما يحدث في الدانمارك مثلا . وقد يتلوث البحر نتيجة لكوارث طبيعية مثال ذلك ما حدث في الصيف الماضي في بحر الشمال من انفجار منصة «بايبر ألفا» للتنقيب عن النفط ، وانسياب ملايين الأطنان من النفط الخام على مدى ثلاثة اسابيع قبل التمكن من السيطرة على الحريق . ونشير هنا إلى أن بحر الشمال أصبح اليوم يحتوي على ما يزيد عن ١٤٠ منصة من هذا النوع لا يندر أن تتعرض لكوارث مشابهة . وقد حسب العلماء أن هذا البحر يستقبل سنويا ما يربو عن ١,٦ «مليون طن» من النفايات المختلفة مما جعله في عداد البحار المحتضرة ، بل مات الكثير من أجزائه .

احتضار البحار ظاهرة عالمية

وحتى لا يترسخ الانطباع لدى القارىء بأن بحر الشمال - الذي أشرنا إليه كمجرد مثال - هو البحر الوحيد الذي يحتضر ، يحسن أن نشير إلى أمثلة أخرى غيره . يصف المختصون البحر الابيض المتوسط بأنه «بالوعة مجاري» ، مما تصبه المدن الكبرى من مخلفات مثل مرسيليا وبرشلونة وجنوة والاسكندرية وبيروت . وتدل الدراسات على أن هذا البحر قد مات - أي ماتت أحياؤه - عند شواطىء برشلونة . كما يرى المسافر بالطائرة رأى العين مخلفات المجاري بلونها الرمادي الكئيب ممتدة في زرقة البحر حول مرسيليا لمئات الأمتار . وتدل دراسات أخرى على أن مائة ألف كيلومتر مربع على الأقل من بحر البلطيق ميتة ، وتحللت حيواناتها وتعفنت ، وانبعثت منها الروائح الكريهة . وإذا قفزنا إلى شواطىء القارة الاسيوية في الشرق أو إلى شواطىء العالم الجديد في الغرب وجدنا أن الصورة أقبح وأدهى - إلى الهلع والخوف . لقد تحدث العالم في الصيف الماضي عن فضيحة نفايات المستشفيات في نيويورك ومدن ساحلية مختلفة في ولاية كاليفورنيا ، حيث اكتظت مزابل أمريكا بالنفايات وأصبحت تستقبل فوق ما تتحمله طاقتها بمراحل . وكان من نتيجة ذلك أن سعى المسئولون إلى التخلص من حوالى ١٠ ملايين طن من نفايات المستشفيات في المحيط . واكتشفت هذه الفضيحة بعد أن حملت الأمواج بعض هذه النفايات إلى الشاطىء الذي تلوث بالدماء والحقن البلاستيكية والأدوية التي انتهت فترة صلاحيتها واكتظ بالأسماك النافقة .

الفيروسات والطحالب القاتلة

توضح المشاهدات اليومية كما تثبت نتائج البحوث البيئية أن للملوثات تفتك بالأحياء البحرية . وقد استطاع الباحثون تتبع بعض آثارها ووصفوها بدقة ، لكن معظمها مازال تحت الدراسة . ومن الحقائق التي عرفت أن النفايات تنهك أجهزة المناعة لدى الحيوانات البحرية وتضعفها ، مما يجعل هذه الأحياء غير قادرة على الدفاع عن نفسها ، إذا ما تعرضت لأوهى الغزوات من الميكروبات المعدية . فالملوثات مواد غريبة تصل إلى دماء الحيوانات إما مباشرة أو خلال ما تأكله هذه الحيوانات من مخلفات أو أحياء أخرى ملوثة ، فتشغل خطوط الدفاع الطبيعية في أجسام الحيوانات بهذا الخطر الذي يتكثف ويزداد يوما بعد يوم ، وربما سمع القارىء بموت الآلوف من حيوانات الفقمة الوديعة على شواطىء بحر الشمال في الصيف



● صورة «بالميكروسكوب الالكتروني» لطحلب اسمه العلمي كريزوكر وميولينا بوليليس تسبب التلوث في تكاثره بالملايين وهو طحلب سام يقتل الأسماك التي تتغذى عليه في البحار .

الماضي ، وكانت تبدو على الحيوانات النافقة أعراض متشابهة ، فقد كان الحيوان يصاب بالتهاب رئوي حاد كما كان جهازه التنفسي يغزوه فيروس معين ـ عُزل ودُرس . ولولا ضعف أجهزة المناعة في الفقمة لما تسبب هذا الفيروس في نفوقها بحال . من ناحية أخرى دلت الدراسات البيئية على أن التلوث يفضي إلى خلل في الموازين السائدة بين الأحياء ، كما ذكرنا ، ومن نتائج هذا الخلل أن سادت في بعض المناطق البحرية أنواع وأجناس من الطحالب ، لم تكن موجودة من قبل إلا بأعداد قليلة . لكنها أصبحت اليوم تتفجر في نموها في مواسم معينة ـ في الربيع وبداية الصيف على وجه الخصوص ـ وعندما تموت هذه الكميات الهائلة من الطحالب تخلف في المياه بروتينات ومواد سكرية ترجُّها الأمواج بعنف فتنشأ كميات هائلة من الزبد (الرغوة) قد تغطي شواطىء بكاملها ، فتثير مخاوف المصطافين . غير أن أخطر مافي هذا الأمر هو أن خلل الميزان العددي بين الأحياء كثيرا ما يسمح بتكاثر أنواع نادرة من الطحالب السامة وهي ـ عادة ـ عمره اللون أو بنية . والمعروف أن الأسماك تتغذى على الطحالب ، وأن الحيوانات الأضخم في البحر تتغذى على الأسماك . ويفضي التلوث كما ذكرنا إلى زيادة غير عادية في بعض الطحالب السامة التي تتسبب في تسمم الأحياء الأخرى ونفوقها . وأثبتت الدراسات أن هذه الطحالب السامة تزدهر يوما بعد يوم بفعل التلوث حتى أصبحت في العقود الأخيرة شائعة في بحار العالم بعد أن كانت نادرة أو معدومة تماما . ولقد غزت هذه الطحالب في السنوات الأخيرة الشواطىء الشرقية لأمريكا الشمالية فقتلت الأسماك



● كل التلوث الأسماك ، فأحاطت بها الطحالب من كل جانب .

والحيتان التي أكلت تلك الأسماك وأوشكت الحيتان أن تنقرض تماما في هذه الشواطىء . وأصبحت الطحالب السامة اليوم خطرا مرعبا يتهدد مزارع الأسماك على شواطىء العالم . ولدولة النرويج كمثال أكثر من ٣٠٠ مزرعة أسماك ضخمة إذا هلكت أسماكها كانت هذه كارثة اقتصادية لا تحتمل . وفي الصيف الماضي رصد الباحثون هذه الطحالب بالقرب من الشواطىء اليوغسلافية والايطالية من البحر الادرياتيكي . فهرب المصطافون خوفا ، فضربت الطحالب بذلك الموسم السياحي في هذين البلدين .

البحر يبتلع اليابسة

قد يتبادر إلى فهم القارىء أن التلوث جعل من البحر وحشا كاسرا يلتهم حتى الشواطىء . والواقع هو عكس ذلك . إذ أن التلوث أوهن البحر وأنهكه ، وظاهرة غمر اليابسة بمياه البحار سببها التلوث أيضا ، ولكن ليس تلوث البحر ، إنما تلوث الغلاف الجوى الذى ترتفع حرارته باطراد فتتمدد مياه البحر بفعل هذه الحرارة ، وترتفع مستوياته إلى حدود تغمر معها الشواطىء والجزر . وارتفاع متوسط حرارة الجو باستمرار - سببه كما وجد الباحثون - هو ارتفاع تركيز ثاني اكسيد الكربون في الجو من جراء حرق الوقود في المصانع والسيارات . ولكنني أود أن أذكر هنا ازدياد تركيز ثاني اكسيد الكربون في الغلاف الجوي الذي يحول دون تشتت الأشعة تحت الحمراء التي ترفع من حرارة الأرض في الفضاء الخارجي . وتدل الحسابات على أن الكرة الأرضية اصبحت تطلق ٢٠ مليار طن من غاز ثاني اكسيد الكربون في الجو سنويا . ويتوقع العلماء أن ترتفع حرارة الجو بمقدار يتراوح بين ٣ - ٥ درجات مئوية خلال السنوات الخمسين القادمة . ذلك مالم يعمل الإنسان على تقليل اطلاق ثاني اكسيد الكربون في الجو . وتدل الحسابات على أن مستوى سطح البحر قد ارتفع منذ بداية القرن الحالي ٢٠ سم بسبب تمدد الماء . كذلك تدل الحسابات على أن كل سنتيمتر واحد زيادة في ارتفاع مستوى الماء في البحر يؤدي إلى إغراق متر كامل من شواطىء الجزر والقارات . وغرق الجزر أصبح مشكلة خطيرة في بعض مناطق العالم . وعلى سبيل المثال تبذل ألمانيا الغربية المجهودات والأموال في سبيل المحافظة على جزرها السياحية في بحر الشمال من الغرق . على أن أخطر ما في الأمر هو الخوف من كارثة حقيقية لا تُبقي ولا تذر إذا ظل ارتفاع الحرارة الجوية يجري بهذا المعدل ، فالخوف كل الخوف أن يصل الجو إلى درجة من الدفء تذوب معها الثلوج في القطبين بعد أن كانت دائمة التجمد . عندئذ سوف يأتي الطوفان الحقيقي .

إنها مفارقة عجيبة حقا . لقد نشأت الحياة في البحار ، فهل تراها تنتهي فيها ؟ □



إعداد : يوسف زعبلاوي

.. نشرت مجلة نيوانجلند الطبية في أوائل شهر مايو ١٩٨٩ بحثاً عن البوتاسيوم ، وفعليته ، في الحد من ارتفاع ضغط الدم . ذلك أن هذا الملح المعدني يساعد الجسم على إفراز الملح (ملح الطعام نفسه) ، وبالتالي على الحيلولة دون ارتفاع ضغط الدم . من هنا أكد البحث على المقولة بأن الإقلال من تناول البوتاسيوم يؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم .

من هنا كان التشجيع على تناول الفاكهة والخضراوات ، نظراً لغناها بالبوتاسيوم . ويذكر البحث أن للموز والفراولة والبطاطس والبرتقال وعصير « جريب فروت » تأتي في الطليعة من حيث مقدار ما تحتويه من البوتاسيوم .

□□□

امبدو (٣) يشفي الجروح في ٢٤ ساعة

ابتكر العلماء السوفييت جهازا جديدا ، يسمى « ابدو ٣ » الذي ينتج مادةخاصة مؤكسدة ذات خصائص علاجية فريدة ، تلتئم بواسطتها الجروح أو البثور التي تظهر على الجلد خلال ٢٤ ساعة .

كما تمكن العلماء خلال يوم واحد من شفاء التهاب اللوزتين الحاد ، وكان هذا في حالة عجزت فيها المضادات الحيوية نفسها عن إزالة الالتهاب . والمادة الجديدة توقف تنامي الأورام الخبيثة ، وتحفز وظيفة الأكسدة في الكبد في جسم الإنسان .

وقال أحد صانعي الجهاز : إن في جسم الإنسان ثلاثة أنظمة لتعطيل فعل المواد الغريبة المسممة للجسم ، وهي نظام المناعة ونظاما الإفراز والأكسدة في الكبد فالمؤكسدات الاصطناعية للنظامين الأولين ابتكرت منذ زمن بعيد . أما الآن فأنشأنا مؤكسداً يفعل ما تفعله الكبد نفسها في هذا المجال .

طريقة العلاج الجديد تتم بإزالة السموم من الجسم عبر استخدام جهاز « ابدو ٣ » ، ويتكون الجهاز من خلية كهربائية كيميائية ومن وحدة الكترونية ، وبواسطته تحصل خلال عملية تفاعل من محلول ملح الطعام العادي على مستحضر ، إذا ما أدخل في الدم يؤكسد المواد السامة في الجسم ويجعلها غير ضارة .

□□□

زراعة الأعضاء والبدائل

● جراحة زراعة الأعضاء كالقلب والكلى وقرنية العين والكبد جراحة حديثة نسبيا ، إذ لم يمض على عملية زرع القلب الأولى التي أجراها جراح جنوب أفريقيا ، الدكتور برنارد ، سوى عشرين عاما أو أكثر قليلا ، لكنها جراحة ناشطة ، وقد أحرزت من التقدم في المدة الأخيرة ما لم يكن في الحسبان ، إلا أنها جديرة بتحقيق المزيد من التقدم ، لا لأنه قريب المنال فحسب ، ولكن لأنه كفيل بإنقاذ الملايين الذين يموتون يوميا ، لقلة ما يتوافر من الأعضاء الموهوبة بالمقارنة مع الأعضاء المطلوبة .

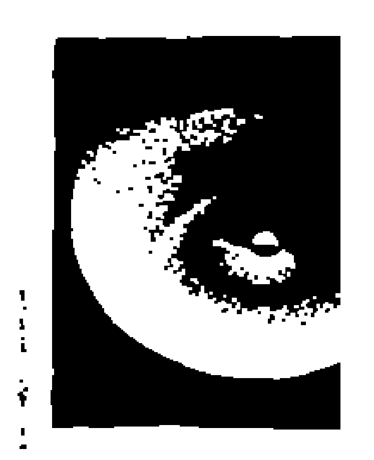
ويتجلى التقدم الذي أحرزته هذه الجراحة أكثر في عدد ما أجرته من عمليات ابتداء من مطلع الثمانينيات ، وفي نسبة ما حققته من نجاح ، ففي سنة ١٩٨١ بلغ عدد القلوب المزروعة ٦٢ قلبا ، وقفز العدد فتضاعف ٢٢ ضعفا في سنة ١٩٨٧ ، وقل مثل ذلك في زراعة الكلى ، وقد بلغ ما زرع منها عام ١٩٨١ ٤,٩٠٠ كلية ، ثم بلغ ٩٠٠٠ كلية سنة ١٩٨٧ . أما عمليات زرع قرنية العين فقد تضاعفت آلافا في الثمانينيات ، حتى وصلت إلى (٣٥٠٠٠) قرنية مزروعة سنة ١٩٨٧ . وما كان هذا التقدم في الكم ليكون ذا قيمة كبيرة لو لم يقترن بتقدم في الكيف ، في النجاح الذي أحرزته تلك العمليات . وقد بلغت نسبة النجاح ٩٥٪ في عمليات القرنية والكلى ، و ٨٢٪ في عمليات زرع القلوب ، ويصدق هذا كثيراً أو قليلاً على عمليات زرع الكبد ، (والحديث هنا مقتصر على ما يجري في الولايات المتحدة فحسب ، إذ لا تتوافر الإحصاءات المطلوبة في أي بلد آخر بقدر ما تتوافر في الولايات المتحدة) .

أجريت عملية زرع الكبد الأولى قبل نحو ٢٥ عاما ، وتمكن أربعة أجريت لهم عملية زرع الكبد عقب تلك العملية الرائدة من مغادرة غرفة العمليات معافين ، لكنهم لم يتمكنوا من مغادرة المستشفى وهم أحياء . ومضى الجراحون يحرزون المزيد من النجاح حتى وصلوا إلى نسبة نجاح مقدارها ٦٦٪ ، لكن حياة من أجريت لهم العمليات لم تمتد إلا سنة أو أكثر قليلا . وقفز عدد عمليات زرع الكبد في الولايات المتحدة من ٢٦ عملية سنة ١٩٨١ إلى ١٢٠٠ عملية في سنة ١٩٨٧ ، مسجلة بذلك زيادة كبيرة جدا ، بلغت نحو ٥٠ ضعفا .



وتجدر الإشارة هنا إلى المشاكل الأخرى التي تعاني منها جراحة زراعة الأعضاء بصورة عامة ، كمشكلة التأخير أو الوقت الذي يمضي على الأعضاء المراد زرعها ، فهذه الأعضاء لا تنتظر ، ولا سبيل إلى زرع الكلى بعد مضي ٤٨ ساعة على انتزاعها . أما الكبد فلا فائدة ترجى منها بعد مضي ١٠ ساعات ، وتقصر هذه المدة في حالة زرع القلوب ، حتى تبلغ (٣ - ٥) ساعات فقط .

وهناك مشكلة التبرع بالأعضاء ، ولعلها هي المشكلة الكبرى التي تعترض سبيل جراحة زراعة الأعضاء ، فالطلب كثير كثير ، والعرض قليل



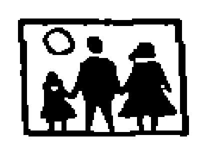
قليل ، هذا على الرغم من أن المتبرع لا يخسر شيئا ، إذ أن تبرعه لا يوضع موضع التنفيذ إلا بعد موته ، ولو ذكرنا الآلاف اللذين يموتون بسبب حاجتهم إلى كل سليمة ، تحل محل كلاهم التالفة ، وذكرنا الملايين من الكل السليمة التي تواري التراب مع أصحابها الموتى لتفنى مع جثثهم الفانية ، لعجبنا لإحجام الكثيرين عن التبرع بأعضائهم بعد موتهم

ونذكر أيضا الأجسام المضادة التي نجحوا في هندستها « بيولوجيا » وتصنيعها ، لكي تهاجم الخلايا التي تسبب رفض الجسم للأعضاء المزروعة ، وقد جربوا هذه الخلايا المخلقة على حيوانات المختبر ، فعاشت ستين عقب تلقيها الأعضاء المزروعة ، دون أن ترفض أجسامها تلك الأعضاء ، دون أدوية مانعة لمقاومة أجسامها للأعضاء المزروعة .

ونذكر كذلك النجاح الذي حقق بالاكتفاء بزرع خلايا متنوعة من الأعضاء ، بدلا من زرع تلك الأعضاء بكاملها ، كزرع بعض خلايا البنكرياس ، وبالتحديد تلك الخلايا التي تفرز الأنسولين ، عوضا عن زرع البنكرياس بكامله ، على أن هذا الأسلوب الذي ما زال قيد التجارب ، ليبشر مرضى السكري بقرب الفرج ، حين سيصبح في إمكانهم التخلص نهائيا من هذا المرض بعملية أو حقنة بسيطة ، يتلقون بها مستحضر الخلايا المطلوبة ، فلا تكاد تمضي ساعة بل دقائق يحصلون فيها على تلك الخلايا حتى يشفوا من مرض السكري الذي كان وما زال مستعصيا .

ونأتي أخيرا إلى ذكر المؤتمر الدولي الثاني عشر الذي عقدته جمعية زراعة الأعضاء في سيدني في استراليا ، في شهر أغسطس عام ١٩٨٨ م ، فقد تركزت الأبحاث في المؤتمر المذكور على زراعة (الأعضاء الحيوانية) في جسم الانسان ، وقد أكد أحد كبار العلماء (رعتسيا) أن الحل الوحيد لإنقاذ الملايين من موت محقق إنما هو بالاعتماد على زراعة أعضاء الحيوان في جسم الإنسان ، فأعضاء الإنسان المتاحة للزرع قليلة جداً ، والناس لا يقبلون على التبرع بها ، وإن هم أقبلوا كانت العقبة في تلف تلك الأعضاء ما لم توزع في غضون ساعات من انتزاعها ، (٤٨ ساعة للكلى) و (٣ ـ ٥ ساعات للقلوب) و (١٠ ساعات للكبد) .

وحسبنا الرجوع إلى بعض الأرقام لندرك مدى خطورة مشكلة العرض والطلب ، في ما يتصل بزراعة الأعضاء البشرية ، فالأعضاء المطلوبة تبلغ في السنة الواحدة ١٣٠٠٠ كلية ، و ٩٠٠ قلب ، و ٥٠٠ كبد ، و ٢٠٠ بنكرياس ، و ٢٠٠ رئة . ولا يزيد عدد الموتى المتبرعين بأعضائهم عن ٥٠٠٠ نسمة في السنة الواحدة . ولهذا دعا العالم السالف الذكر إلى تعميم الاعتماد على زراعة أعضاء الحيوان في جسم الإنسان ، وأعضاء الخنازير على وجه التحديد لأنها مقبولة في جسم الإنسان أكثر من أعضاء سائر الحيوان ، بما في ذلك القرود . وقد لقيت دعوته تأييدا شاملا في الأوساط الطبية في العالم كله ، ولا يقف في طريقها إلا جمعيات الرفق بالحيوان . □



سلامة البشرية في سلامة البيئة

افتتح في مدينة ديزني بولاية فلوريدا الامريكية في اكتوبر الماضي معرض ، أطلق عليه اسم « الأرض » . ويعد المعرض الذي يمثل أحد أجنحة مركز العلوم في المدينة معملا للتقنية الحيوية .

وقد لا تضاهي معروضات هذا الجناح غيرها من حيث الدقة والإبهار والاحترافات الخيالية ، إلا أنه من المنظور في المستقبل أن تشكل أهمية كبرى للبشرية .

ويستمتع زوار المعرض الجديد بمشاهدة النباتات التي تمكن العلماء من استنباتها من خلية واحدة ، باستخدام قانون الهندسة الوراثية .

وقد أصبح معروفا علميا في الوقت الحاضر أنه كل يوم يصبح خمسة أنواع من النباتات أو ستة في عداد الأنواع النادرة ، وذلك بسبب الأمطار الاستوائية التي تدمر خمسين هكتاراً من الغابات في كل دقيقة ، وهذا يعني أنه خلال خمسة عشر عاما مقبلة ، سوف يتم القضاء على نصف النباتات والفصائل النادرة في العالم .

وباستخدام هذه الطريقة يمكن المحافظة على الأنواع النادرة من النباتات .
ويقول مدير الأبحاث الخاصة بالمعرض : إن استخدام هذه الطريقة للحصول على نباتات معينة سوف ينتشر بمرور الأيام ، ويزداد الإقبال عليه ، خاصة أن هذه الطريقة جربت بنجاح على بعض أنواع الخضراوات والفواكه والنباتات الغذائية عموما ، مثل الفراولة والأناناس والفول السوداني .

ويذكر أن استخدام التقنية الحيوية يمكنه المساهمة في مجالات أخرى من مجالات الحياة اليومية ، مثل تجبين اللبن في أقل من الوقت الذي يتتج فيه الجبن في الوقت الراهن .

□□□

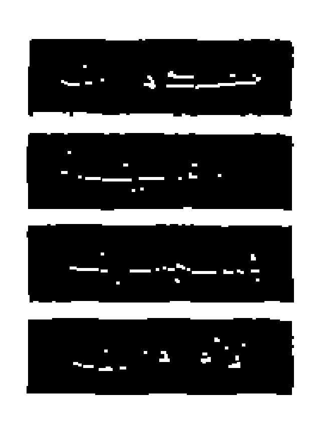


حذر العلماء وخبراء الأمراض المعدية ، في المؤتمر الذي عقدوه في مطلع شهر مايو ١٩٨٩ ، في العاصمة الامريكية واشنطن من وباء جديد ، سيظهر في مستقبل غير بعيد ، ولا يقل خطورة عن مرض الايدز نفسه ، وقد يكون هذا الوباء المنتظر من الامراض القديمة التي اقتصر انتشارها على مناطق أو جماعات محدودة حتى الآن .

ذلك أن فيروس حمى الضنك (dengue) قد بدأ يهدد أمريكا علنا ،

كما يقول الدكتور ستيفن مور ، البروفسور في جامعة روكفلر ، فالحمى المذكورة قد انتشرت في بلدان البحر الكاريبي عندما انتشر فيروسها بواسطة البعوض ، ووصلت هذه الحمى إلى تكساس (مدينة هيوستون) قبل نحو ستين ، وانتشرت في ١٧ ولاية

□□□



● تؤكد الدراسة التي أجرتها وكالة البيئة الأمريكية أن الأوزون ، من حيث هو غاز ملوث ، قد ضرب المواسم الزراعية ، وأدى إلى إتلاف ما بلغت قيمته بين ألفين وخمسمائة مليون دولار وبين ثلاثة آلاف مليون دولار سنوياً في المدة الأخيرة ، وفي هذا ضرر بالغ ، فهو يعادل أضعاف الضرر الذي يسببه نقص غاز الأوزون . وقد تم تقدير الضرر بنسبة ١٢٪ . ومما يذكر أن الدراسة الأخيرة ـ استكملت في أواخر السنة الماضية ١٩٨٨ ـ تضمنت أبحاثاً ميدانية عن حقول القمح في نيويورك ، وهي حقول تجارب خاصة قائمة قرب « إثاكا » ، فتبين أن التلف الذي لحقها في صيف عام ١٩٨٨ قد بلغ نحو ٣٠٪ ، من هنا كانت القيود الشديدة التي وضعتها وكالة البيئة في الولايات المتحدة على مستويات التلوث بغاز الأوزون .

صدر تقرير عن إحدى مديريات الشرطة في بريطانيا دعا الضباط التابعين لهذه الدائرة وهي في منطقة (ميدلند) إلى القيام بواجبهم لحماية البيئة محليا وعلى نطاق عالمي أيضا ، ودعاهم إلى الإمتناع عن استعمال مستحضرات الايروزول التي تحتوي على الفلوروكربونات التي تسبب تلف الأوزون . وأعلن التقرير أن الاجراءات اتخذت لضمان نظافة البنزين الذي تستعمله سيارات الشرطة ، ولضمان خلوه من الرصاص ، فهو ملوث خطير سام ، وذلك قبل حلول سنة ١٩٩١ .

□□□

عـودة سـمك السـالمون

● كان يوم ١١ ابريل ١٩٨٩ يوم بهجة وفرح بالنسبة لأهل لندن ، فقد بدأ سمك « السالمون » يعود إلى موطنه في نهر « التيمز » بعد تغيب طال أمده نحو قرنين . لا عجب إذن . إن أقاموا احتفالاً مهيب في هذه المناسبة ، أقاموه في قاعة (وندسور جلدهول) ودعوا اليه دوق وندسور ليكون ضيف الشرف فيه ، كما دعوا اليه رجال الصناعة والتجارة العاملين في منطقة التيمز .

ومما يذكر أن نهر لندن كان غنيا بسمك السالمون قبل ٢٠٠ سنة ، ولكن التلوث الذي أصاب النهر كما أصاب أكثر الأنهار في العالم ، ما لبث أن فتك بالسمك ، فاختفى السمك من النهر تماما ، حتى سنة ١٩٧٤ حين ظهرت سمكة من سمك السالمون لأول مرة بعد مضي ١٤٠ عاماً . وأعقب ذلك ظهور المزيد من هذا السمك حتى اذا كانت السنة الماضية (١٩٨٨) أمكن تسجيل عودة ٣٢٢ من سمك السالمون العائد من البحر ، وهو سمك كبير ويسمى جرلز (Grilse) .



حضارة الطين
تصارع الزمن



على الرغم من أن لقاءنا الأول بالمكان كان مثيرا للضيق ، أمطار ورياح مترية ، وحرارة مرتفعة ، مصحوبة برطوبة عالية ، جعلتنا نسبح في العرق المتدفق من مسام جلودنا ـ خاصة في منطقة الساحل ـ إلا أن ابتسامة المواطنين الآسرة ، وكلماتهم الودودة البسيطة كحياتهم ، وواقعهم ، قد دفعتنا للتكيف السريع مع الجو المحيط . وسرعان ما استغرقنا غنى المكان والإنسان ، بالحيوية والخصوبة ، والإبداع . وتحت شمس حزيران (يونيو) اللاهبة انطلقوا بنا في سراديب وحارات قلوبهم ، ومدنهم ، وقراهم ، يكشفون لنا بصراحة مدهشة تفاصيل حياتهم ، وطموحاتهم الممزوجة بلمحات من تاريخ واديهم الطويل بحضارة الطين المنتصبة شواهدها في ربوعه .

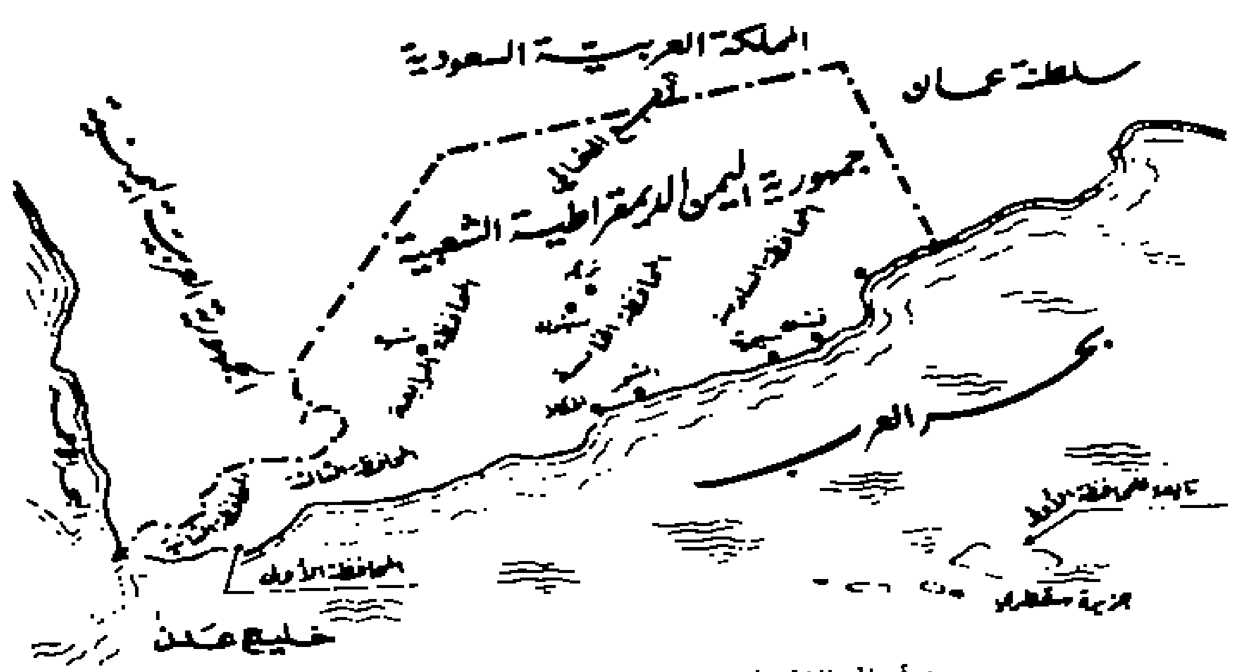
وفي كل مكان ذهبنا إليه ذكرنا أهله باستطلاعات « العربي » لمدن واديهم : المكلا وشبام وسيئون وتريم التي نشرت على صفحاتها منذ ربع قرن من الزمان .

قبل أن نصل إلى مدخل مدينة « شبام » ، أقدم مدن وادي حضرموت ، طلبنا من مرافقنا أن نترجل من السيارة حتى نلم بتفاصيل المعالم المحيطة بالمدينة ذات الشهرة العالمية ، بنمط عمارتها الفريد .

احتل زميلي المصور سطح إحدى البنايات في الضاحية الجديدة للمدينة ، تحت سفح الجبل المقابل لها ، وهي مجال الامتداد العمراني « لشبام » ، بعدما ضاقت هذه بأهلها . ورحنا نجول في المكان بأبصارنا ، رأينا بيوتا منهارة في الضاحية الجديدة بفعل الأمطار والسيول الناجمة عنها التي لم يعاصر مثلها أحد من أبناء المنطقة الأحياء ، كما قال لنا شيخ تجاوز عمره الثمانين . وامتد البصر إلى عمق الوادي غربا ، فصدته رياح عنيفة مفاجئة ، وهي تتلاعب بذرات الطين الناعمة التي خلفتها مياه السيول على سطح مجرى الوادي الجاف ، والتي تصنع منها ستائر كثيفة حجبت أشعة الشمس التي كانت تبهر أضواؤها العيون .

وقبل أن تقترب منا الرياح المترية ، كانت أنظارنا قد حطت على المدينة ، ولم تحد عنها . فقد شدنا تداخل اللون الأبيض الناصع الذي طليت به بنايات بكاملها ، وجميع أسطح البنايات بطوابقها العلوية ، مع اللون الطيني الذي يسود معظم اللوحة المعمارية المجسمة بالبيوت ، بتكوينها المتناغم كقطعة موسيقية متكاملة الإيقاع والنغمات .

وعبرت استفساراتنا المتابعة عن دهشتنا



موقع المحافظة الخامسة ، حضرموت ، في اليمن الجنوبي

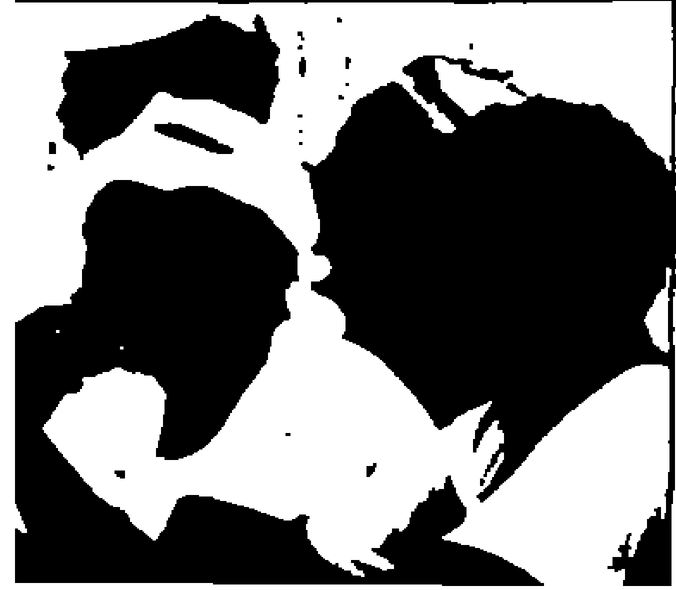
لوجود هذا الفن المعماري الرفيع الذوق ، في هذا المكان بظروفه المناخية والمعيشية الصعبة .

والتقط مرافقنا دهشتنا بالذكاء اليمني المعروف حين قال : « لا تعجبوا فهذا وجه من وجوه الملحمة التي يخوضها اليمني منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، إن صراعنا مع الزمن والطبيعة متعدد الأبعاد والاتجاهات . ستتركم تكتشفون ذلك بملامستكم لواقعنا . ثم نناقشكم فيما توصلتم إليه » .

وقبل ان ينهي حديثه ، لفتنا عاصفة ترابية ، فحجبت عنا المدينة ، وتعذر علينا استكمال تصويرها ، فقررنا التأجيل ليوم تال . وعند استعدادنا للعودة الى مدينة « سيئون » جذب انتباه مرافقينا اليمنيين سحابة شديدة السواد ، قادمة من ناحية الشرق بسرعة ، فبدا الانزعاج على الوجوه ، وندّت عن أحدهم غمغمة مشحونة بالضيق ، فهمنا منها أنه يعني بأن هذه السحب هي سحب أمطار غزيرة . رد عليه آخر : « كفانا أمطارا ، وسيولا ، وخسائر ، فلقد حصلنا على كفايتنا لخمس سنوات كاملة قادمة » . ثم استدرك : « عجيب أمر الطبيعة معنا . إما جفاف يهلك الزرع والضرع

تقع محافظة حضرموت في المنطقة الشرقية ، ومساحتها الكلية ١٥٥٣٧٦ كيلومترا مربعا . ويبلغ عدد سكانها ٦٨٥،٩٠٩ نسمة ، وفقا للتقديرات السكانية لعام ١٩٨٦ . يتوزعون إلى ٢٤٠،٢٣٤ حضريا ، ٣٥٥،٢٢٩ ريفيا ، ٩٠،٤٤٦ بدويا . وعاصمتها الإدارية هي المكلا . يا تنقسم الى ثماني مديريات ، هي : المكلا ، الشحر ، سيئون ، القطن ، دوعن ، العبر ، ثمود ، حجر .

وبها مطاران يربطانها بعدن العاصمة ، وبعواصم المحافظات الأخرى ، وبالعالم ، وهما مطار الريان شرقي « المكلا » ، ومطار « الغرف » القريب من سيئون . وفيها يقع أكبر أودية اليمن الصالحة للزراعة ، وهو غني بالنخيل والسكان .



● مدينة المكلا ، وتبدو أحياؤها القديمة بنمطها المعماري المميز ، وألوانها الزاهية التي يسودها اللون الأبيض المتعانق بتموجة مع ألوان النوافذ المبهجة ، وارتفاعاتها المتدرجة من ساحل البحر إلى مدرجات الجبل .

العليا يسار : فلاح يمني يجني ثمار شجرة (البابايا) .
(تحت) : صيادون في لحظة راحة ، وآخر سعيد بصيده من سمك التونة الذي يمثل ٦٠٪ من جملة إنتاج الأسماك .






سنوات ، أو أمطار ننتظرها بلهفة ثم تأتي بكميات تفوق المعدلات الطبيعية ، وتحدث خسائر كبيرة » . في أثناء ذلك فاجأتنا الأمطار الغزيرة ، فعدونا تجاه السيارة نحتمي بها ، ثم غادرنا المكان الذي حط عليه الحذر والخوف من تكرار ما حدث في نهاية آذار (مارس) ، وأوائل نيسان (ابريل) الماضيين ، عندما استمر هطول الأمطار مدة ثماني عشرة ساعة متواصلة في بعض الأيام .

لم تكن أمطارا ، بل صنابير مفتوحة من السماء ، كما صورها لنا أحد المواطنين .

وقد لخصت هذه اللحظات المكثفة طبيعة الحياة في حضرموت بوجوهها المختلفة ، حيث يتفاعل التاريخ بحضوره الآسر ، مع الطموح الإنساني المشروع في حياة أفضل ، ودور ملائم ، المحكوم بمحدودية الموارد . ومن هنا بدأت رحلة « بعثة العربي » في المحافظة الخامسة « حضرموت » .

ملامح أولية

كان من الطبيعي ونحن في البداية أن نستجيب لإلحاح الذاكرة علينا باستحضارها لصور الحياة المختلفة منذ ربع قرن مضى ، كما جسدتها عيون « العربي » في استطلاعاتها للوادي في ذلك الحين . وعلى أي حال فالمقارنة ضرورية ، وموحية عند التعرف على الحاضر ، هكذا بادرنا أحمد عوض باوزير ، الصحفي القديم ، مشرف قسم التراث والتحقيق بالمركز اليمني للأبحاث الثقافية ، فرع « المكلا » :

« في ذلك الزمان ، كانت حضرموت موزعة بين سلطنتين - القعيطية والكثيرية - تفصل بينهما جمارك وبوابات ، ويحكم العلاقة بينهما قتال ، وصراعات واتفاقات ، يفصل فيها مستشار انجليزي . وكان لهذا الواقع انعكاساته السلبية على حياة الإنسان الحضرمي ، حيث لم يكن أمامه إلا أحد خيارين ، إما الهجرة أو قبول الحياة على مضض ، مما يدفعه إلى التمرد والثورة » .

أما اليوم - كما تقول حقائق الواقع - فقد أصبحت حضرموت ، منذ اكتوبر ١٩٦٧ ، خامسة المحافظات الست التي تتكون منها جمهورية اليمن الديمقراطية ، بعد أن توحدت جميع مشيخات الجنوب وسلطناته مع عدن بقيادة الجبهة القومية ، مكونة الشطر الجنوبي من اليمن في العام نفسه .

وتنقسم المحافظة إلى الساحل وحضرموت الداخل ، الساحل يطل على بحر العرب جنوبا ، ويقع في نطاقه مدينة « المكلا » ، « والشحر » - ميناء حضرموت القديم - « وغيل باوزير » المشهورة بزراعة « التمباك » والحناء . أما حضرموت الداخل فتشمل الجزء الأكبر من الوادي ومدنه المهمة .

وقد حكم هذا التقسيم بالإضافة إلى تكويناتها « الجيولوجية » - النشاط الاقتصادي للسكان الذي يكاد ينحصر في مجالات ثلاثة - عدا قطاع الخدمات - وهي صيد الأسماك في الساحل ، والزراعة في الوادي ، ثم تحويلات المغتربين لذويهم ، بالإضافة إلى دور هامشي غير محسوس تلعبه الصناعة ، فهناك عدد من المصانع الصغيرة ، أهمها مصنع تعليب الأسماك وتجفيفها في « المكلا » وآخر لتعليب التمور في مديرية « سيئون » ، وبعض الصناعات الحرفية التي انكمش سوقها ، كصناعة الخوص والفضة التي شكا أصحابها في الشحر عند لقائنا بهم من تحول أذواق المشترين - خاصة النساء - من الفضة إلى الذهب ، فاقتصر نشاطهم على ترويج إنتاجهم على السياح في عدن والمطارات والفنادق ، وتلبية الطلبات الرسمية من هذه السلعة .

وعلى الرغم من أن المحافظة تملك إمكانات للصناعة السياحية ، بمناخ دافيء شتاء ، وشواهد أثرية متنوعة كمدينة « شبام » ، وقبر النبي هود ، وغيرها ، بالإضافة إلى شواطيء رائعة ،

وآبار مياه معدنية ، ثبت طبيا أنها تعالج عددا من الأمراض كالسكري ، والروماتيزم ، والأمراض الجلدية المستعصية ، إلا أن الحركة السياحية غير متطورة التأثير ، لعدم توافر أساسيات صناعة السياحة كالفنادق ، والاستراحات ، والدعاية وغيرها .

وعندما استفسرنا من السيد : أحمد المجيدي ، سكرتير الحزب بالمحافظة ، عن أسباب عدم استغلال هذه الامكانات قال : « إن صناعة السياحة تحتاج إلى استثمارات ضخمة ، والانفاق من الميزانية يحكمه ـ كما تعرف ـ أولوية الوفاء بالاحتياجات الأساسية والضرورية للناس في القطاعات الاستهلاكية والخدمية والاستثمار . ونحن مع ذلك نسعى لتنشيط السياحة . ولكن أين التمويل ؟ » قلت : لماذا لاتفتحون المجال أمام المغتربين من أبناء المحافظة الذين يملكون إمكانات الاستثمار في هذا القطاع ؟ قال : « لقد دعوناهم ، وأعطيت تسهيلات مشجعة منذ فترة . ومازلنا ننتظرهم . »

وهناك حركة نشطة في البحث عن المعادن . ولقد قرأنا في مجلة « نداء الوطن » اليمنية الأسبوعية « أن الأعمال المنجمية في مشروع وادي « مدن » للتنقيب عن الذهب تسير بوتائر عالية . وتهدف هذه الأعمال إلى معرفة مكامن خام الذهب واحتياطه ، وأفضل الطرق لاستخراجه . ومن المتوقع الانتهاء من إنجازه خلال الأشهر القليلة القادمة

أما عن النفط ، فحلم التنقيب منذ نصف قرن مضى وأكثر . فقد حمست أعمال البعثات الاستكشافية السوفيتية والفرنسية التي استمرت في بحثها بعد هروب الشركات الأخرى آمالا قوية لاحتمالات توافر النفط بكميات اقتصادية ويقال : إن بعض الآبار في شمال الوادي المتاخم لمديرية الخالي ـ محافظة شبوة ـ قد تفجر فيها النفط . وحتى تتحقق الاحتمالات فإن الحلم في صنع المجتمع ينحت في صخور الجبال ، ورمل الصحراء ، وطين الوادي ، بحثا عن مسارب ، ليتجسد واقعا ملموسا من خلالها .

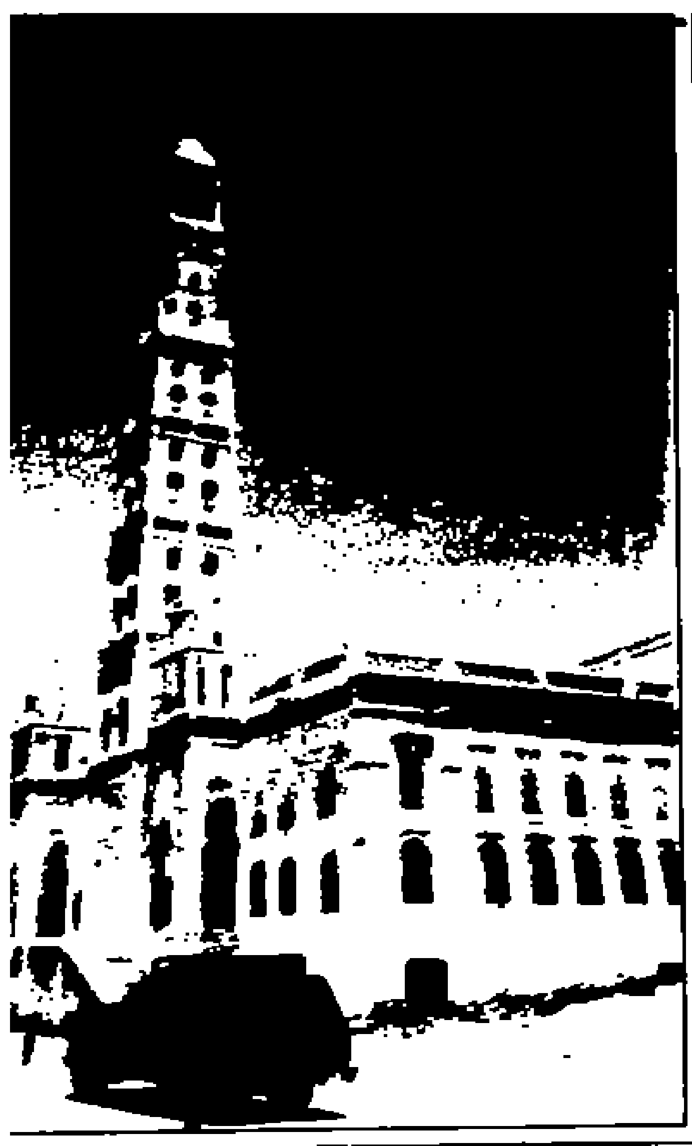
« المكلا والوجوه المتداخلة »

كانت البداية مدينة « المكلا » ، عاصمة حضرموت ، وثاني مدن اليمن الجنوبي ، عمرها يربو على تسعمائة عام ، فقد تأسست عام ١٠٣٥م يلفت نظر زائرها موقعها الفريد ، المحصور بين بحر العرب والجبل المنتصب خلفها كحارس عملاق ، كان يصد عنها الطامعين في مضى ، لكنه يحول الآن بينها وبين الامتداد العرضي لارتفاع كلفة البناء على مدارجه المرغوبة لدى السكان ، فتمددت وتوسعت طوليا بموازاة البحر حيثما أتاح لها المكان الذي ضاق بسكانها فأقاموا منذ سنوات قليلة ، مدينة « المكلا » الجديدة على بعد خمسة عشر كيلو مترا عبر محاذاة الطريق الساحلي إلى عدن

ولقد أدى تعرض المدينة إلى الغزو الخرساني ، في سعيه إلى احتلال اللوحة والتناسق القديم إلى تميز طابعها الشعبي ، ويكسبها ملمحها الخاص .

عندما دخلناها كانت حرارة الجو المصحوبة بالرطوبة العالية التي تميز الساحل اليمني كله في أعلى درجاتها (٣٧) . ولم نفطن إلى وسيلة نتعامل بها مع العرق غزير السيلان من أجسادنا ، إلا عندما وجدنا معظم اليمنيين يستخدمون فوطة صغيرة لمسح العرق .

تشق بنا السيارة شوارع المدينة الحديثة المعبدة لتعبر جسرا حديثا ، يربط بين حييها على جانبي مجرى السيول المتجه إلى البحر . يشير المرافق إلى مدخل أحد الأحياء القديمة ، بين حي « المكلا » والشرج « قائلا : « هنا







● نماذج من فن العمارة اليمنية مبنية بالطين .
(أعلى) :
- بوابة منزل قديم .
- منارة جامع المحضار بتريم ، ارتفاعها يزيد عن أربعين مترا .
- قصر الثورة (السلطان سابقا) بسيئون .
(أسفل) :
- قصر بمدينة تريم المشهورة بقصورها المتنوعة
- جانب من مدينة سيئون

كانت بوابة المدينة، هدمت بعد الاستقلال لتوسيع الطريق.

ويجوب بنا المرافق أحياء المدينة التي تبدلت أسماؤها القديمة، واتخذت أسماء حديثة، فحي «الديس» أصبح حي «أكتوبر»، و«المكلا» تحول إلى «السلام»، والبلاد إلى «الشهيد خالد»، وإن كنا لمسنا خلال تعاملنا اليومي مع الناس أن التغيير لم يتعد الاستعمال الرسمي حتى الآن.

شوارع المدينة القديمة الضيقة المتفرعة من الشارع الرئيس تغص بالمحلات التي تحصل على سلعها من مؤسسات القطاع العام المتنوعة النشاط، بأسعار محددة لاتلاعب فيها. وبالمقاهي التي يغشاها اليمنيون مرتدين «المعوز» المختلف الألوان، وهو قطعة من القماش المستورد من بعض الدول الآسيوية، يلفون بها الجزء الأسفل من أجسامهم ويسمونها «الفوطة».

حاولنا أن نجد «معوزين» متشابهين في النقشة والألوان فلم نوفق، وتساءلنا: لماذا لا يصبح محليا طالما أن إنتاجه مضمون التوزيع؟

توقعنا أن نرى «الجنبية» معلقة في أحزمة الرجال - خنجر اشتهر اليمنيون والعمانيون بتعليقه في الحزام لكن مرافقنا قال: لقد استغنى عنها يمنيو الجنوب بعد الاستقلال، ولم يعد مسموحا بحملها بعدما انتفت الحاجة إليها.

في المساء دخلنا الأسواق القديمة الضيقة، الشوارع والمحلات، كمعظم أسواق المدن العربية القديمة، يتم فيها تداول كل السلع المنزلية والنسائية، المسموح باستيرادها. وفي قبل كان ارتياد هذه الأسواق مقصورا على النساء وحدهن، ولذلك كانت الحركة تموت فيها بعد المغرب. صادفنا بعض النساء بزيهن التقليدي الذي لم يتبدل، عباءة سوداء تغطي المرأة من الرأس حتى القدمين، وبها فتحة للعينين، وهن يمارسن هواياتهن التقليدية في الفرجة والمساومة.

وإذا كان موقع «المكلا» أثر في نموها العمراني، فإنه حكم نشاط سكانها الاقتصادي. فبالإضافة إلى الأعمال الإدارية في قطاع الخدمات الحكومية والمؤسسات العامة، تحظى الأنشطة المرتبطة بأعمال الميناء في منطقة «خلف» بحي «الشهيد خالد» الذي افتتحت مرحلته الأولى عام ١٩٨٥، بنسبة كبيرة من الأيدي العاملة، وكذلك أعمال صيد الأسماك التي تمثل مصدر دخل رئيس لمدن الساحل اليمني، ومادة أساسية لوجبتهم اليومية الرئيسة، وغالبا ما تكون وجبة الغداء.

مدينة الشهداء السبعة

وإذا كان صيد الأسماك واحدا من أنشطة سكان المكلا، فهو أهم أنشطة سكان مدينة «الشحر» التي تبعد عن المكلا ٣٤ ميلا شرقا. وقد كانت ميناء لقديم حضرموت قبل أن تأخذ منها «المكلا» أنشطة الميناء بعد نشأتها.

وبمدينة «الشحر» ثلاث تعاونيات لصيد الأسماك، أكبرها وأقدمها المنشأة بالمدينة نفسها في فبراير ١٩٦٦.

وصيادو الأسماك كما يقول السيد «عوض عبيد مسعود»، مسئول تعاونية «الشحر»، ينقسمون إلى صياد [تعاوني]. وهو الذي يعمل على وسيلة إنتاج (القوارب والمعدات) المملوكة للتعاونية. وصياد [مالك] لوسيلة الإنتاج. والتعاونية هي التي تتولى تصريف إنتاج جميع الصيادين وتسويقه. ولكن تختلف الأساليب المحاسبية لكل نوع منه. فالإنتاج اليومي للصياد التعاوني يتم تقسيم عائده بينه وبين التعاونية، نظير استخدامه وسائل الإنتاج بنسبة ٣٠٪ للتعاونية، و ٧٠٪ للصياد.

أما الصياد المالك وسيلة الإنتاج، فينال ثمن إنتاجه الذي يسلمه للتعاونية نقدا، ويدفع ١٨٪ ضريبة إنتاج وخدمة تعاونية.

وتشتهر «الشحر» كذلك بصناعة الفضيات «الخناجر والحلي المختلفة»، ولكن انكمش نشاط هذه الصناعة الحرفية لأسباب كثيرة، منها شيوع استخدام الذهب، والتخلي عن اقتناء الخناجر، كما أن الأنسجة الحديثة المستوردة أزاحت صناعة النسيج اليدوي.

ويعتز أبناء «الشحر» بعلمائها القدامى، كالفقيه عبدالله بن عمر بامخرم الذي كان يلقب بالشافعي الصغير، وصاحب دراسات في الفلك. والصيادون والمزارعون مازالوا يتبعون تقويما له حتى الآن. وسليمان المهري، الملاح، المولود في القرن العاشر الميلادي الذي ذكرته كتب التاريخ كمعاصر وصنو لابن ماجد البحار العربي الشهير.

وعن المدينة وتاريخها يقول عبدالرحمن الملاحي، ابن المدينة، الباحث المتفرغ في مركز الأبحاث اليمني: «الشحر من المدن القديمة، فقد سميت قديما «ميناء اللبان»، لأنه كان يصدّر منها. ونُسب الساحل الجنوبي إليها في كتب الرحالة القدماء. حيث كانوا يطلقون عليه اسم «الساحل الشحري»، وعندها ينتهي خليج عدن ويبدأ المحيط الهندي، وكانت بذلك نقطة اتصال بين افريقيا وآسيا، وكانت تتحكم في فترة رسو السفن. خاصة في الخريف عندما تتحرك الكتل المائية إلى الشحر التي سماها ابن ماجد وسليمان المهري «زعوم الشحر». وموقعها قد جذب إليها الطامعين. فقد غزاها البرتغاليون في عام ١٥٢٢ م ولكن أبناءها استبسلوا في الدفاع عنها. وتمكنوا من صدهم عنها بعد أن استشهد سبعة منهم في معركة عنيفة. ونحن نحتفل بذكراهم كل عام. كما أن مدفنهم الجماعي أصبح مزارا سياحيا».

علاج السكري بالمياه المعدنية

لم نصدق عندما قالوا لنا: إن هناك عين مياه معدنية، تشفي من السكري في أربعين يوما، ومن الأمراض الجلدية، فذهبنا إلى هناك، «الصويبر»، التابعة لمديرية «الشحر» التي تتميز بعيون المياه المعدنية. واحة من النخيل حول عين مياه، في منطقة كانت تستخدم لإناخة الجمال، ثم أدرك الناس قيمة مياهها العلاجية بالتجربة، فأجرى تلفاز عدن استطلاعا مصورا عنها، فتدافع إليها المرضى من أنحاء اليمن الجنوبي. تذوقنا المياه، طعمها يشبه طعم المياه الغازية إلى حد ما، نتيجة تشبعها بالكبريت. سألنا واحدا من المرضى، طاعنا في السن، وهو عبيد سالم من محافظة المهرة قال «أعاني من السكري منذ فترة، وأثر ذلك على نظري بشدة، وعندما شاهدت برنامج «جولة الكاميرا» حول هذا المنبع حضرت ومعي أشرطة اختبار السكر، قبل استخدامي للمياه، كان لون الشريط يصل إلى أقصى درجات ألوانه، وبعد خمسة وعشرين يوما من إقامتي الكاملة، تراجعت الدرجات إلى المستوى الثاني. ومازال أمامي خمسة عشر يوما وينتهي السكري تماما».

ولقد قامت «أكاديمية» الطب في بلغاريا بتحليل مياه عيون المياه المعدنية المنتشرة في هذه المنطقة، وأكدت نتائج التحليل قيمتها العلاجية العالية لكثير من الأمراض، كالتهابات الكبد المزمنة، وأمراض البنكرياس، والروماتيزم، والسمنة، وأمراض الغدد الدهنية.

يبقى أن نسأل، لماذا لايقوم المستثمرون من المغتربين الحضارمة والعرب باستثمار هذه المنطقة سياحيا وعلاجيا، إنها دعوة من المسئولين، وهناك بانتظارهم الدراسة والتنفيذ.







● فلاحان من مزرعة الدولة ببور في قلب حقل برسيم .
- إعداد الشاي على الجمار ، عدته كانت جزءا مهما من جهاز العروس في الواحي .
- الليلة المدنية في والضويري .

في جولتنا بالمدينة نشاهد بقايا السور الذي أقامه حولها القعيطيون بعد استيلائهم عليها عام ١٨٦٧ ، وقد بقي منه البوابة الشمالية « سدة العيدروس » ، وقد تم ترميمها بإشراف هيئة « اليونسكو » منذ سنوات قليلة ، وهي تجسد الفن المعماري اليمني القديم .

كما شاهدنا التدمير الذي أحدثته سيول هذا العام ، حيث ارتفعت مياه الأمطار إلى ثلاثة أمتار في المناطق المستوية ، فانهار ٢١٧ منزلا انهيارا كاملا ، وتضرر ٢٠٧٥ منزلا مازال ترميم ما يصلح منها جاريا . وعلى الرغم من أضرار السيول التي أدت إلى إشغال أبنية المدارس والأجهزة الحكومية بالمنكوبين المتضررين فإن المدينة القديمة تواصل استمتاعها بالحياة ، ومصارعة أمواج البحر بحثا عن الرزق .

الوعي والمتعة

في أثناء جولتنا المسائية في شارع فرعي من شوارع حي « المكلا » ، جذب انتباهنا تدافع أعداد من الشباب باتجاه مكتبة عامة مجاورة لمسجد يغص برواده ، دفعنا الفضول لمتابعتهم . فنحن في زمن ينحسر فيه الإقبال على الكتاب لصالح « التلفاز والفيديو » خاصة في دول العالم الثالث . وهنا يتدافع الشباب على مكتبة . لماذا ؟

دخلناها . روادها كثيرون ، منكبون على القراءة . استطلعنا محتوياتها . وهي كتب للتراث والفلسفة ، والآداب . والأديان وغير ذلك من فروع المعرفة . حاورنا أمينها . قال : تأسست المكتبة عام ١٩٤١ باسم « المكتبة السلطانية » . تطورت بعد الاستقلال . وتبدل اسمها إلى « المكتبة الشعبية » . وهي الآن تعرف باسم مكتبة « الشهيد باعطوف » . تخليدا لذكرى المؤرخ الحضرمي محمد عبدالقادر باعطوف ، المتوفى منذ عامين ، وصاحب المؤلفات والدراسات العديدة حول حضرموت وتاريخها .

وتحتوي المكتبة على ١١,٣٠٠ كتاب في مختلف فروع المعرفة ، عدا الدوريات ، والاستعارة عامة ، لكنها مقصورة على الذكور فقط ، لأن طبيعة المجتمع المحافظة لا تسمح للبنات ـ حتى الآن ـ بالاستعارة المباشرة منها .

إن إقبال الشباب على القراءة والثقافة الذي رصدنا مظاهر كثيرة له في مدن المحافظة ، يعكس رغبة دفينة لدى الإنسان الحضرمي في ضرورة امتلاك الأدوات المعرفية التي تمكنه من تأكيد ذاته ، وتعويض آثار التجهيل المتعمد في ماضيه . ويتجلى ذلك في الاعتزاز بالتاريخ ، قديمه وحديثه ، والسعي لتدوينه . لكل مدينة مؤرخ من أبنائها يعرف دقائق تاريخها ومراحله في إطار تاريخ اليمن كله .

متاحف في المدن الرئيسية تضم آثارا مكتشفة من مختلف العصور ، مكتبات عامة وخاصة ، دوريات شهرية ومطبوعات متنوعة جادة ، تضم بين دفتيها إبداعات متدفقة في مجالات المعرفة ، فقيرة في الشكل والإخراج ، ولكن الرغبة المتشوقة للخروج من الشرنقة تبتكر وتبدع ، وتتغاضى عن متطلبات الشكل الأنيق كما يقول لنا أديب شاب . نشاط مكثف لفروع اتحاد الكتاب والأدباء اليمنيين الذي يوحد بين مبدعي اليمن شطريه . في سيئون دعينا لحضور الأمسية الأسبوعية لفرع الاتحاد في دار الأديب الراحل علي أحمد باكثير التي تحولت إلى متحف يضم مؤلفاته وآثاره ، كان الموضوع « من مفكرة الخامس من يونيو . النثرية والشعرية » . وكان ذلك في بداية شهر حزيران « يونيو » . حضور كثيف . متعدد الأجيال . تجلس على الأرض بينهم . تسمع مناقشات ومداخلات واعية تعمر الحفل وتثريه .

في « المكلا » استمتعنا بإلقاء شعراء شباب من الجنسين لقصائدهم التي تحلق في الآفاق الإنسانية الرحبة ، وتتوغل في حنايا الذات بهمومها الممزوجة بهموم الوطن والأمة العربية . وأيا كان مستواها فإنها تعبر عن وجدان مترع بالحيوية والثراء .

ونلتقي في « سيئون » بالمؤرخ عبدالقادر أحمد الصبان الذي نال وسام المؤرخ العربي في فبراير ١٩٨٩ ، من اتحاد المؤرخين العرب ، ووسام الآداب والفنون اليمني الجنوبي عام ١٩٨٨ تجاوز الخامسة والسبعين من العمر ، ومازال يعمل مسئولا عن المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار ، بمديرية « سيئون » ، وله ٢٨ كتابا ، وهو يمثل نموذجا حيا لروح هذه المنطقة يقول « بدأت الكتابة بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين من عمري في البداية كتبت « المقال » ، وكنا ننسخه بخط اليد لعدم وجود مطابع لدينا ، ورأست تحرير مجلة « زهرة الشباب » في سيئون قبل الاستقلال بزمن . سجنت في هذا القصر الذي تجلس فيه ـ قصر السلطان السابق في سيئون ـ في سنة ١٩٦٠ ، بعد أن ألقيت قصيدة بمناسبة المولد النبوي ، تعرضت فيها لحالنا المتردي آنذاك ، والآن أعكف على الكتابات التاريخية . وقد أهدانا بعضها .

وفي مدينة « تريم » زرنا مكتبتها الشهيرة المعروفة بمكتبة الأحقاف للمخطوطات

عمارة الطين

لايمكن لمن يزور وادي حضرموت ، ويتجول بين مدنه وقراه ، أن يمنع المتعة المصحوبة بالإعجاب من التسرب إلى نفسه ، وهو يشاهد نماذج العمارة المختلفة في المدن والقرى المتناثرة على جانبي الوادي التي تقام على منحدرات المرتفعات والجبال ، أو تلك الماجمة في قلب مزارع النخيل وأشجار « العلب » ـ النبق ـ التي تنتشر بكثافة في الوادي وفروعه ، لأن النمط المعماري الذي تتميز به البيوت هو تجسيد لتفاعل الإنسان مع البيئة المحيطة عندما يستخدم إمكاناتها المتاحة ، وتوظيفها لتلبية احتياجاته ، وهي هنا الطين الذي يُخلط بأعواد القش (التبن) ، ويصنع منها الطوب (اللبن) الذي يطلى بالنورة ـ خلاصة الحجر الجيري ـ بعد بنائه ، وخشب أشجار « العلب » ـ ذات المكانة الأسطورية ، لقدمها واستخداماتها الاقتصادية المتنوعة ـ الذي يستخدم في السقوف والأعمدة والأبواب . وليس كل طين يصلح للبناء ، لأن للطين الصالح أماكن محددة (كطين زبر)

والأعجب كذلك ابتكاره نظاما للتهوية والإضاءة ، يعتمد على توزيع الفتحات ـ نوافذ وفتحات تهوية ـ بكيفية تؤدي إلى تخفيف حدة الحرارة في الصيف ، وترشيد الضوء

والملفت للنظر تلك القيم الجمالية التي يخلقها التكوين المعماري الخارجي للبيوت ، الجامع بين تناغم ارتفاعاتها المتراوحة بين الطابقين والأربعة ، ورشاقة الخطوط وانطلاقها . وتناسب مسطحات الفتحات للنوافذ والأبواب والتهوية مع المسطحات الكبيرة للحوائط أو التنوع في ابتكار أشكال نهايات حوائط السطوح . ويبرز هذا التكوين المعماري التشكيلات اللونية المبهجة ، المكونة من تناغم وتناسق في ألوان الطلاء المتنوعة للأسطح والحوائط والنوافذ التي يغلب عليها اللون الأبيض المتداخل مع الخدر الفضي ألوان ناصعة مبهجة . تبدو بها البيوت كالعرائس المقبلات على أعراسهن .

وعلى الرغم من أن هذا النمط يشيع في الوادي كله ، فقد لاحظ بعض التمايزات للمدن عن القرى ، وكل مدينة عن الأخرى .



● يحتفي الإنسان الحضرمي بالحياة ، ليعبر عن مشاعره بالرقص والغناء .

ـ الصورة العليا رقصة شعبية تؤديها فرقة حضرموت للرقص .

ـ المطلع للشاب ليلة عرسه (في سيئون) .



● يقال عن المرأة في الوادي : إنها رجل ونصف ، لأنها تقوم بأعمال الرجل في الزراعة (الصورة العليا) ، وفي اليمن يصنعن مقابض خشبية للعمارة اليمنية في وحدة إنتاجية بالشحر .

فالمستوى الاقتصادي لسكان المدن انعكس على عماراتهم، بحيث تعددت فيها القصور، وارتفعت الطوابق، وتلاصقت، وبرزت تأثيرات ثقافات المهاجر وفنونها، خاصة الاندونسية والماليزية في «تريم» و«سيئون»، والهندية في «المكلا». وإن بدأت هذه الظاهرة تختفي نتيجة العودة الجماعية للمغتربين. ولارتفاع المستوى الثقافي العام مع انتشار التعليم بقيمه الجديدة.

وعند اختراقنا للوادي في طريقنا من «سيئون» إلى «المكلا»، جذب انتباهنا بعض الظواهر التي بدت شاذة في سياق تشكيلة الوادي المعماري، أبرزها «الخرسانة» المسلحة كمادة بناء، بدلا من الطين.

وعندما ناقشنا المسئولين بالمحافظة حولها قالوا: «إن هذه الظاهرة لن تستمر طويلا، لأن المكتب الفني للمحافظة أصدر توجيها بالحد من استخدام هذه المواد داخل الوادي، إلا في أساسات البيوت فقط، لأن تجربة السيول هذا العام فرضت استخدامه في الأساسات كي تحميها من الانهيار، بالإضافة إلى أن المباني «الخرسانية» لا تلائم الجو الحار في الوادي، إلا إذا استخدمت مكيفات هواء، وسعر الطاقة الكهربائية العالية تحول دون انتشارها، ثم إننا نريد الحفاظ على طابع الوادي على الرغم من أنه يسبب لنا المشاكل في حالة السيول، وعموما فنحن نستخدم «النورة» في الطلاء حتى نتلافى تأثير الأمطار على المباني الطينية».

«شبام» تنادي

وإذا كان الوادي يمتلئ بالشواهد الأثرية التي تكشف عن نمط الحياة وإبداعها في مختلف العصور التاريخية، كالقلاع المقامة على المرتفعات، أو المدن المطمورة في جوانب الوادي التي اكتشف بعضها بعثات التنقيب السوفيتية اليمنية المشتركة أو الفرنسية، أو اللوحات الجدارية التي تحمل حروف «الخط المسند» الذي يعده بعض المؤرخين أساس الكتابة العربية، إلا أن مدينة «شبام» تنتصب وحدها في قلب الوادي، كشاهد على إبداعات «حضارة الطين» التي تصارع الأجيال الحالية ضد تعرضها لخطر الهدم، أو الضياع في ثنايا الزمن.

و«شبام» التي يقول عنها نداء هيئة اليونسكو للعالم في ديسمبر ١٩٨٤: «بأنها من أكمل الشواهد على ما بلغه الفن والهندسة المعمارية، فهي تبهر المسافر الذي يكتشفها فجأة، بعد أن يكون قد عبر هضبة صحراوية صخرية، إذ تتراءى له منبثقة في أعماق واد أخضر، وسط غابة من النخيل، منطلقة برشاقة نحو السماء، وتتكون المدينة من أبراج عالية من سبعة أدوار أو ثمانية، متراصة، متلاصقة».

ولقد شهدت المدينة خلال العقود القليلة الماضية، ظهور أنماط جديدة من المساكن الحديثة، غير أنها نجحت في إقامة التوازن الدقيق بين مساحتها وعدد سكانها، بين ماضيها وحاضرها. هذا التوازن الذي يحافظ على هويتها. على أن الوادي بكامله، وعاصمته الرائعة، قد أصبحا مهددين بالخطر، نتيجة الأثر المشترك للسيول والفيضانات المدمرة، وقد جرفت الفيضانات خلال السنوات الأخيرة جزءا من سد «موزا» الذي يقع في الشمال، على مقربة المدينة، وأزالت فيضانات هذا العام «سد الموزع» الذي بني منذ القرن العاشر الميلادي. وعند زيارتنا للمدينة التي تتكون من خمسمائة بيت، يسكنها الآن عشرة آلاف نسمة، وبعض بيوتها عمره الآن ٥٠٠ عام، شاهدنا التشققات في بعض البيوت من جراء الأمطار.

وقد تبنت اليونسكو عام ١٩٨٤ مشروع حماية « شبام » من خلال حملة دولية ، تسعى إلى ترميم الآثار والمواقع ذات القيمة التاريخية والثقافية والطبيعية الموجودة في وادي حضرموت وصيانتها ، وبوجه خاص التراث المعماري لمدينة « شبام » .

وعلى الرغم من نداء اليونسكو الموجه إلى العالم فإن المساهمة ماتزال محدودة ، والأعمال التي تتم تتحملها حكومة اليمن الديمقراطي ، «المطلوب لحماية المدينة ، وتحريك السياحة فيها ، كما قال الاستاذ عبدالله الحويزي ، مسئول تنسيق الحملة مع اليونسكو ، هو ١٣٠ مليون دولار فقط . قلنا ونحن نغادر « شبام » : وهل عسير على أبناء الوطن العربي تدبير هذا المبلغ لحماية هذه المدينة الفريدة ؟

الزراعة هي الأصل

واصلنا رحلتنا في أنحاء الوادي نتابع وجوه الحياة المتعددة فيه . ويستكمل مرافقنا معلوماته عن الوادي : « يصل عرض الوادي في أجزائه الشمالية الغربية من ١٥ - ٢٠ كيلو متراً ، وينتهي في الشرق عند سيحوت بكيلومتر واحد ، وبه عدد من الأودية الفرعية . ونشاط السكان الرئيسي هو الزراعة ، ومحاصيله هي القمح والذرة العويجة والخضراوات و التمور .

ويمسك خيط الحديث منه ، المهندس الزراعي ، صالح عوض ، فيقول : إن المساحة الصالحة في الوادي زادت من ٣٪ من المساحة الكلية لحضرموت عام ١٩٧٣ إلى ٥,٥٪ عام ١٩٨٦ . وتطورت المساحة المزروعة فعلا من ١,٠٪ عام ٧٣ إلى ٣,٣٪ عام ١٩٨٦ . والزراعة في الوادي تتم وفق أنماط ثلاثة : مزارع تعاونية ، دولة ، ملكية خاصة . وبالوادي ١١ مزرعة تعاونية ، وعشر مزارع دولة . وهناك مشروعات لتطوير الزراعة في الوادي : الأول مشروع وادي حضرموت الزراعي ، وقد اكتملت المرحلة الأولى والثانية منه ، بتكاليف ٤٢ مليون دولار ، واستهدفت المرحلة الأولى إعداد البنية التحتية (شق طرق وقنوات) ، وانشاء وحدة لتعبئة التمور ، وتأسيس جهاز للإرشاد الزراعي ، ثم إنشاء ١٥٠ هكتاراً كمزارع نموذجية .

والمرحلة الثانية إعداد ٣٣٦٠ هكتاراً للزراعة ، وانجز ذلك بالفعل عام ١٩٨٨ ، واعداد ٥٦ بئرا ارتوازية ، ولقد استخدمت طرق جديدة للري في هذه المساحات ، للحد من مفقود المياه ، فيتم ري ٦٠ هكتاراً بالرش والتنقيط ، و٥٠٥ هكتارا بالأنابيب بدلا من القنوات . كما كان متبعا بالطريقة التقليدية كما تم حماية الوادي الرئيسي بإقامة ١٣ مسقطاً مائياً (مضالع) لتهدئة سرعة مياه الأمطار ، وتدرجها ، خاصة في وادي « عدم » « والمسيلة » ، وتم تهذيب شبكة (الري من مياه السيول) في منطقة « تريم » ، كما ادخلت الآليات الزراعية في مراحل البذر والحرث والحصاد .

والمشروع الثاني يتم بالاشتراك مع الاتحاد السوفيتي ، حيث يتم استصلاح اراض جديدة ، على مساحة ٧٠٠٠ فدان . تم توزيعها على ثماني مزارع دولة ، تتراوح مساحة المزرعه من ٦٠٠ - ١١٠٠ فدان .

وفي قرية « بور » التابعة لمديرية « سيئون » زرنا مزرعة الدولة التي تأسست عام ١٩٧٤ ، وتنتج حمح والذرة الرفيعة والخضراوات . مساحة المزرعة الكلية ٧٦٣ فدانا ، المزروع منها ٦٥٤ فدانا ، والباقي قنوات ومنافع عامة

ونترك المزارعين يهدون الأرض ، ويبعثون الحياة في قلب الوادي الذي قامت فيه حضارة متميزة ، شغلت حيزا مهما من مساحة الزمن العربي ، عساهم أن يعيدوا مجدها ، أو يحموا آثارها من الاندثار . □



عندما تحافظ الشعوب على تاريخها

تجربتان ثقافيتان من تايوان



الشعب في تايوان خليط من جماعات عرقية موغلة في القدم . كانت هي صاحبة الأرض . والثقافة والتاريخ . انضمت إليها جماعات جديدة مهاجرة . زاحفة من الصين الأم . على فترات متتالية . كان آخرها عقب الصراع « الأيديولوجي » . في منتصف القرن العشرين الذي أدى إلى قيام جمهورية الصين الوطنية على جزيرة فورموزا . ومنذ قامت الدولة الجديدة نشأت رغبة عارمة في المحافظة على الجذور . جذور قديمة ثابتة . تمثل الأصول السكانية القبلية التي تضم تسع قوميات بدائية . لها ثقافتها وتقاليدها وخبراتها . وجذور حديثة متشبثة . تمثل المقيمين الجدد من المستوطنين الصينيين . الحالمين بالعودة إلى الصين الأم . المرتبطين بمعالمها وآثارها وتراثها . ومن خلال التمسك بالجذور جاء تحقيق تجارب ثقافية رائدة . لعل أبرزها إنشاء « قرية فورموزا البدائية » . وفتح « نافذة على الصين » .

نافذة على الصين

لماذا نافذة على الصين ؟

الحلم الدائم لسكان تايوان من أصحاب الأصول الصينية المهاجرة هو العودة إلى الصين الأم . عندما يتم تحريرها كما يتصورون . أو على الأقل عندما تتحدان . وإذا لم يكن الجيل الحالي قادرا على ذلك . فقد يستطيعه الجيل الثاني . ولكن كل ذلك لا يكون إلا بغرس التعلق بالوطن الأم في أذهان أبناء الشعب . وفتح عيونهم على المعالم التاريخية الرئيسية التي تضمها أرض الصين منذ عهودها الامبراطورية القديمة التي لم يرها الأبناء . والتي ما تزال محفورة في رؤوس الآباء والأمهات .

كان السبيل إلى ذلك إقامة مدينة قزمية نموذجية صغيرة . أطلقوا عليها اسم « نافذة على الصين » . تضم ٧١ نموذجا من أشهر معالم الصين التاريخية . في منمنمات تم تصغيرها بنسبة واحد إلى ٢٥ . تعبر عن الأساليب المختلفة للحياة في مختلف عصور المجتمع الصيني .

زرنا المدينة القزمية في منطقة لونجتان . على مسافة ٣٥ كيلومترا . جنوب غربي تايبيه . منشآت المدينة وحدها أقيمت على مساحة ٢٠ ألف متر مربع . واستغرقت عملية إنشائها منذ بدأ تنفيذ مخططاتها عشر سنوات . بدأت في عام ١٩٧٥ . حتى تم افتتاحها في ٧ يوليو ١٩٨٤ .

المعالم التاريخية البارزة في الوطن الأم التي أقيمت في المدينة صورة طبق الأصل من المعالم التي شهدناها قبل ذلك في مختلف أنحاء الصين الشعبية . أبرز هذه المعالم سور الصين العظيم الذي أحيطت به المدينة القزمية . والمدينة المحرمة بقاعاتها وقصورها وأسوارها وتقاليدها وتماثيلها . بما في ذلك ساحة تيان آن من . ومعبد السماء في بكين . وممر شويونج . والباجودا البوذية لمعبد فوكنج في مقاطعة شانسي . البالغ طولها الأصلي ٧٦ مترا وترتفع ٢٢ طابقا أنشئت عام ١٠٥٦ (انظر العربي ٣٥٦ يونيو . و ٣٥٩ اكتوبر ١٩٨٨).

ويحتل نموذج للقصر الصيفي مساحة واسعة . وكذلك نموذج للمعبد السماوي في شنتا الذي استغرق إنشاؤه في عصر شينج تسعين عاما . بين ١٧٠٢ و ١٧٩٢ . والمقام على ارتفاع ألف متر فوق سطح البحر . وكان البلاط الامبراطوري ينتقل إليه خمسة شهور كل عام . وتبعد عنه قليلا قاعة إلهة السماء في معبد شيني بمقاطعة شانسي . ويرجع تاريخ إنشائه إلى عام ١٠٢٣ في عصر سونج . تمثال الالهة الأم يتمثل في شكل الامبراطورة « دواجر تونبي » تحيط بها تماثيل أربعين من نساء البلاط كل منها قطعة رائعة من كنوز الفن . وتشتهر عن هذه القاعة أسطورة تحكي عن انتشار الجماعة

والجفاف الذي غطى أراضي المنطقة وارتفعت بتهالات الصلاة داخل قاعة إلهة السماء ، فتساقطت على الفور أمطار غزيرة كانت كافية لزراعة ٤٠٠٠ هكتار من الأرض ..!

ومن أجمل النماذج مغارات لونجهان في لويانج بمقاطعة هونان التي بدأ نحتها في عام ٤٩٤م حتى ٦٧٦م ، خلال عصر تانج ، في أعلى قمة الجبل خلف معبد فنجسيان . المغارات تمثل الطراز الهندسي الصيني وأروع زخارف الفن مع تمثال هائل لبوذا القاعد القرفصاء ، بطول ٨٥ قدما ، وحوله الملائكة الحارسة والملوك وقوفا ، بطول ٥٠ قدما .

مظاهر النهضة الحديثة

كل هذه المعالم يتمثل فيها أفراد الشعب وطوابير الجيوش الامبراطورية في تماثيل صغيرة يبلغ عددها ٥٠ ألف تمثال ، طول كل منها يبلغ حوالي ٧ سنتيمترات ، مصغرة بنسبة ١ إلى ٢٥ ، وشكلت بالنسبة نفسها الأشجار والطيور والحيوانات والحدائق ومختلف أنواع التماثيل . مصممو منشآت « نافذة على التاريخ » لم يكتفوا بالمعالم التاريخية في الصين الأم ، لكنهم أضافوا إليها معالم حديثة ، تعرض بالأرقام والبيانات مظاهر التطور الاقتصادي والاجتماعي والصناعي في تايوان ، ليشهد الأبناء مدى النهضة التي بلغتها بلادهم خلال عدد قليل من السنين . من بين ذلك نماذج من المشروعات الصناعية وخطوط قطارات الأنفاق والسكك الحديدية المكهربة التي تربط تايبيه ببقية المدن الرئيسية ، وكذلك أرصفة ميناء تايشونج ، ومطاحن الدقيق ، وصهاريج تخزين النفط والغاز ، ومحطة الكهرباء الرئيسية ، ورافعات الشحن ، بالإضافة إلى الشاحنات البرية وسفن الشحن البحرية التي تنقل الصادرات والواردات . ومن أجمل النماذج مطار تايبيه وطائراته التي تتحرك على الأرض وتصعد وتهبط في مدارج المطار ، وحديقة الحيوان ، ومسجد تايبيه الكبير ، ومنشآت جامعة تايوان ، والقاعات التذكارية لشيانج كاي شك ، وصن يات سين ، والمتحف الوطني .

هنا يشهد الأبناء بالنماذج والأرقام والبيانات المتحدة حقيقة المعجزة الاقتصادية التايوانية وتطورها ، وكيف استطاعت تايوان تحقيق فائض نقدي كبير ، أخذ يتراكم في خزائنها ، بسبب الزيادة الضخمة في صادراتها بالنسبة لوارداتها ، وكيف تجاوز الاحتياطي النقدي ٧٣ بليون دولار ، وما يزال يسجل ارتفاعا مطردا وراسخا ، وكيف أصبحت الجزيرة ، بحجمها المتواضع الذي لا يزيد عن ٣٦ ألف كيلو متر مربع ، إحدى أغنى دول العالم ، حتى أن دخل الفرد فيها بدأ يتجاوز هذا العام ٦ آلاف دولار . وقد تحقق كل ذلك من خلال قناعة بأنه « إذا أردت أن تبني بلدا غنيا ، يجب عليك أولا أن تجعل الشعب غنيًا ، فإذا أثرى الأفراد ازدهر الوطن » .

قرية فورموزا الحضارية

التجربة الثقافية الثانية نشهدها حين نصل إلى تايشونج ، ثالث أكبر مدينة في جزيرة تايوان ، ونلتقي في جنوبها الشرقي ببحيرة « الشمس والقمر » (صن مون ليك) وشواطئها . في هذه المنطقة نزور « قرية فورموزا التقليدية » التي تمثل مرحلة بدائية من مراحل الحضارة الصينية القديمة .

القرية تمتد على مساحة ٦٢ هكتارا (الهكتار = ١٠ آلاف متر مربع) . وكان الهدف من إقامتها المحافظة على تراث تايوان منذ الزمن الذي كانت تستوطن الجزيرة فيه تسع قبائل أو قوميات ، ما يزال المنحدرون منها يفخرون بجذورهم فيها ، ويعتزون بانتمائهم إليها .









شهدنا معالم القرية مقسمة إلى تسعة أقسام ، تمثل أساليب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفنية لكل مجتمع من المجتمعات السكانية .

ففي نموذج مجتمع « يامي » الذين كانوا يسكنون جزيرة « لانيو » نشهد كيف تقوم حياتهم على صيد الأسماك . هنا القوارب الصغيرة ذات المجاديف التي يستخدمها فردان أو ثلاثة في ملكية خاصة ، وهناك القوارب الكبيرة للصيد التعاوني ، يشارك فيها بالجهد عدد من الأفراد ، يقسمون حصيلة الصيد بينهم بالتساوي . حياة أبناء القبيلة تقوم على الصيد وصناعة القوارب وتجفيف الأسماك وتمليحها . كل فرد يبذل جهدا مساويا لقدرات عمره . الجميع أسرة واحدة ليس لها زعيم . فكل منهم يعرف واجبه ، ويدرك حقوقه ، في ظل النظام التعاوني المشترك . وتتغير مهمات الأفراد حسب تغير الفصول والشهور . الرجال الناضجون يتولون صناعة السفن والقوارب وبناء البيوت وصيد الأسماك وصنع المشغولات المعدنية والأواني الفخارية . والنساء عليهن فلاحة الأرض وجمع الحصاد وإعداد الطعام ونسج الملابس . ويترك للكبار ، أصحاب الخبرات ، صناعة الصدريات الذهبية والخوذات الفضية وتصميم زخارف المباني « وديكوراتها » ، وكل ما يحتاج للمهارات الفنية .

المرأة قبل الرجل !

أما قرية قبيلة « آمي » أكبر المجتمعات القبلية فهي تستوطن سهول وادي تايتونغ وسفوح مرتفعات وسط تايوان ، حيث الأنهار والقنوات والأراضي الخصبة الصالحة للزراعة . وهم يشكلون عدة تجمعات قروية أسرية ، يضم كل منها حوالي ٥٠٠ فرد من الأقارب . ولخصوبة أرضهم وسهولة ريها فقد برعوا في شئون الزراعة وحرث الحقول ، مستخدمين

الثيران . بالإضافة إلى اشتغال قلة منهم في الصيد النهري . ويتميز مجتمعهم الأسري بالتنظيم الإداري والمجالس القروية . وتلعب المرأة دورا متميزا في العشيرة ، بينما الرجال في حكم الأتباع والمرؤوسين

وتتحمل المرأة مسئولية الحصاد وتجفيف المنتجات الزراعية وتخزينها . سواء في القاعات المقامة خارج البيت مستقلة عنه . أو على جوانب جدران الأكواخ السكنية المصنوعة من أعواد ، البامبو ، والقش . والمبنية من طبقتين مزدوجتين . بينما تكل كوخ بابان متباعدان ، بحيث لا يسمح للرياح العاصفة أن تدخل بشكل مباشر إلى داخل البيوت إذ تتكسر حدتها بين البابين غير المتقابلين . وتبرع النساء في الصناعات اليدوية الريفية . وبخاصة في صنع الأواني الفخارية التي تستخدم في الطبخ

وهم يحرصون على الروابط الأسرية ، بحيث يخصص في كل كوخ غرفة للابن أو البنت عند الزواج ، فإذا زاد العدد ، بحيث لا يستوعبه الكوخ ، فإن الأب يقيم كوخا آخر على مساحة أخرى غير بعيدة من كوخ الأسرة .

وقبل انتقال العروسين إلى البيت الجديد يقام احتفال ديني في كوخ الوالدين ، تقدم خلاله فطيرة الأرز قربانا للآلهة ، مع دعوات بألا تنفصل عرى الروابط الأسرية بين البيتين . وتتميز الأكواخ من الداخل بالزخارف اللونية والرسوم وتماثيل إلهة السماء المنحوتة على الأعمدة الخشبية التي ترفع السقوف لتضمن لها الأمن والاستقرار .

القديم والحديث

النماذج التي تضمها قرية فورموزا الحضارية تتميز بأن كلا منها أقيم في بيئة طبيعية مماثلة للبيئة التي تعيش فيها كل قبيلة ، بجبالها وأنهارها وسفوحها وقنواتها وحقولها وحدائقها وأنماط مساكنها وبيوتها وتقسيماتها الداخلية وساحاتها الخارجية . كما تمثلو كل قبيلة فيرتدون زيهم الشعبي ، ويقومون بأداء رقصاتهم على أنغام موسيقاهم وطبولهم ، ويقفون أمام مشاغلهم الصناعية ينسجون وينحتون ويزخرفون ويؤدون كل الأعمال اليدوية التي يتميزون بها . ويمارسون حياتهم تماما كما يعيشونها في بيئاتهم الأصلية ، حتى الطعام يقدم بالطريقة التقليدية نفسها ، بالأواني الفخارية ، دون اللجوء إلى أي أداة من الأدوات أو الآلات الحديثة .

الرجال يؤدون الدور نفسه الذي كانوا يؤدونه حسب طبيعة مجتمعهم ، والنساء يمارسن كل أعمالهن التي يمارسنها في قراهن ، والأطفال من حولهم يلعبون ويمرحون ويلهون دون اللجوء إلى أي نوع من الألعاب الحديثة . فصورة الحياة البدائية تعرض بطريقة طبيعية ، لا يمسها أي تجديد أو تحديث ، حتى يمكن الحفاظ على الماضي الذي لا يريدون أن يفقد أو يضيع مع دورة التاريخ .

المقابلة بين القديم والحديث تبدو فور اجتياز البوابة الفاصلة بين قرية فورموزا والجانب الآخر المواجه لها . هنا أنشئت حديقة أوربية رائعة على النمط الحديث ، تمتد على مساحة ستين ألف متر مربع ، تزهو بالخضرة والزهور والورود في أحواض منسقة تنسيقا بديعا ، تتناثر بينها النوافير ، بينما تتوسط الحديقة نافورة موسيقية ضخمة ، تتراقص مياهها بأشعة الليزر ، باستعراضات ملونة تقدم ٥٧٦ نوعا من التشكيلات على الأنغام الموسيقية المتباينة شرقية وغربية .

المشهد كله تطل عليه ثلاثة أبراج صينية ، أوسطها من خمس طبقات ، يرتفع إلى ٩٠٠ متر ، بينما البرجان الآخران من ثلاثة طوابق . الإطلالة من فوق البرج الأوسط تقدم مشهدا متكاملا لقرية فورموزا ، ولبحيرة الشمس

والقمر . ثم لمعالم تجربة ثقافية أخرى متميزة نطل عليها من بعيد « مجمع فوكوانج شان ».

تجربة مجمع ثقافي

« فوكوانج شان » نعم « جبل بوذ المضيء ». لفت أنظارنا ونحن نطل من فوق البرج حيث شهدنا على بعد تمثالا مذهبا هائلا . يقوم على قمة الجبل ، قرب مدينة « كاوشنج » ، وهو يطل على ساحة واسعة تضم مجموعة من المباني متباينة الأشكال والأحجام

قالت لنا مرافقتنا : هذا المجمع أقيم على مساحة لا تقل عن ٥٠ هيكتارا (نصف مليون متر مربع) . وهو تجربة ثقافية متميزة من نوع خاص ، حتى ولو بدا لكم في صورة معبد بوذي !

في الطريق حدثتنا عن قصة إنشاء المجمع والرجل الذي أنشأه ، قالت : قبل اثنين وعشرين عاما ، في سنة ١٩٦٧ ، وقف الراهب العلامة شنج يون ، المسئول عن مكتب الخدمات البوذية في المنطقة ، يطل على هذا المكان الذي لم يكن سوى أرض مهملة على سفح الجبل ، تغطيها الأعشاب ، ولا تطؤها أقدام إنسان . وراح يتذكر المراحل التي مر بها منذ ترك بيته في شنجو وأصبح راهبا في سن الثانية عشرة ، ثم درس في الكلية الدينية في نانكين ، ليلتحق بعد ذلك بالدراسات العليا ، ليتخرج ، ويحصل على الدكتوراة ، ويعين مديرا لعدة مدارس ، ثم رئيسا لتحرير عدة صحف . وبعد الصراع المذهبي في الصين رحل إلى تايوان عام ١٩٤٩ . وراح يتابع طبع الدراسات البوذية ونشرها حتى تولى مسئولية مكتب الخدمات في كاوتشنج . وخطر له وهو يطل على هذه المساحة الواسعة من الأرض القريبة من مكتبه أنها مناسبة لتنفيذ مشروع طالما ملأ خياله فقرر أن يبيع مقر مكتب الخدمات الذي كان قد أقيم بحصيلة صناديق النذور ، وأن يضيف إليها قيمة مبيعاته من الكتب والدراسات البوذية التي أخذ يطبعها بالملايين ويوزعها على أتباع البوذية المنتشرين في جميع أنحاء العالم . حيث يتلقى منهم هبات ومعونات هائلة لتنفيذ مشروعه . وقاد حملة ، شاركه فيها الأهالي والرهبان ، لإعداد الأرض التي أطلق عليها اسم « أرض بوذا الطاهرة » . وبدأ بالجهد المشترك إقامة أول مبنى « فوكوانج شان » عند أقدام سفح الجبل ، لتتدرج مبانيه الأخرى بعد ذلك صعودا حتى القمة . لتصبح خلال سنوات قليلة أضخم مجمع ثقافي ديني تعليمي اجتماعي صحي تشغل مبانيه مساحة نصف مليون متر مربع . هو الأكثر شهرة في جميع أنحاء تايوان .

المشهد بالغ الإثارة ، وبخاصة عند قمة الجبل الذي يستقر عليه أضخم تمثال مذهب لبوذا ، طوله ١٢٠ قدما (حوالي ٣٥ مترا) ، يحيط بقاعدته ٤٨٠ تمثالا مذهبا لتلاميذه ، و ٣٠٠ تمثال لحوارييه . تمتد على طول الساحة المواجهة ، وحول جوانب الساحة أقيم ١٤ ألف و ٨٠٠ تمثال للرهبان البوذيين .

الأكثر إثارة هو المشاهد المجسدة المتتابعة في مجموعة القاعات الرئيسية التي تستقبل الزائرين ، والتي تمثل مراحل انتشار البوذية . وحياة « جاوتامابوذا » ، وقصة الصراع بين الخير والشر . والسبيل الخيّر للوصول إلى السمو ، وبلوغ « النيرفانا » ، من خلال اتباع طريق الفضيلة والأعمال الطيبة .

الكل في واحد

ولكن ليس هذا هو بيت القصيد بالنسبة للتجربة الثقافية المتميزة ، فالأهم هو ما أقيم في نطاق المجمع من معالم رئيسية ، تحقق الكثير من الخدمات للإنسان ، وتتناول كل مناحي





● تمثال بوذا ، وطوله ٣٥ مترا تحيط به تماثيل تلاميذه في مجمع فوكوانج شان . أما الصورة الثانية فلإحدى فتيات قبيلة آمي وهي تجتاز بقاربها النهر .

الثقافة ، بصرف النظر عن التوجه الديني . فقد تم في إحدى طبقات المجمع إقامة مدرسة ، تضم جميع مراحل التعليم من الرياض إلى التعليم العالي ، ولا يكتفى فيها بتدريس العلوم الدينية المتصلة بالبوذية ، ولكن التعليم يشتمل على المواد الحديثة ، بما فيها اللغات والرياضيات والعلوم الطبيعية والتقنية والبحثية ، ويلحق الخريجون بكلية الدراسات البوذية للحصول على درجة الأستاذية . ويسمح للقادمين من أي دولة في العالم بالالتحاق بهذه المعاهد . كما أن الإقامة والتغذية والتعليم بالمجان دون مقابل .

دراسة التمريض تهدف إلى تدعيم الهيئة الطبية في المستشفى التخصصي الذي يشكل أحد أقسام المجمع للخدمات الطبية والاجتماعية . هذا المستشفى يستقبل المرضى ، ويقوم بعلاجهم بالمجان .

يتبع الجهاز الطبي سيارات إسعاف طبية مجهزة لتلبية أي نداء لطلب العلاج . ولا يكتفي المستشفى بتلبية احتياجات المرضى ، ولكنه يزود المحتاجين منهم بالملابس والأغذية والأدوية دون مقابل . وضمن الأجنحة جناح مخصص للعجزة وكبار السن الذين يحتاجون للرعاية ، ويبحثون عن الراحة والأمان ، بالإضافة إلى جناح آخر لليتامى والأحداث ، يتلقون فيه العلم ، ويتمتعون بالحرية والسعادة والأمن الاجتماعي .

أما الجانب التثقيفي فيتم من خلال المكتبة التي تضم عشرات الآلاف من الكتب الدينية والأدبية والاجتماعية والعلمية والدراسات البوذية ، ومن خلال قسم خاص للنشر وطباعة الكتب بإشراف الجمعية الثقافية . كما يوجد متحف يضم الآثار التراثية للبوذية والمعروضات التاريخية التي تحكي تاريخ الحضارة في البلاد .

على الرغم من أن هذه التجربة الحية تقوم بها مؤسسة دينية بوذية فإنها نموذج يمكن أن يحتذى به لدعم الجهود الثقافية في أي مجتمع يؤمن بقيم الحياة وحرية البشرية . □

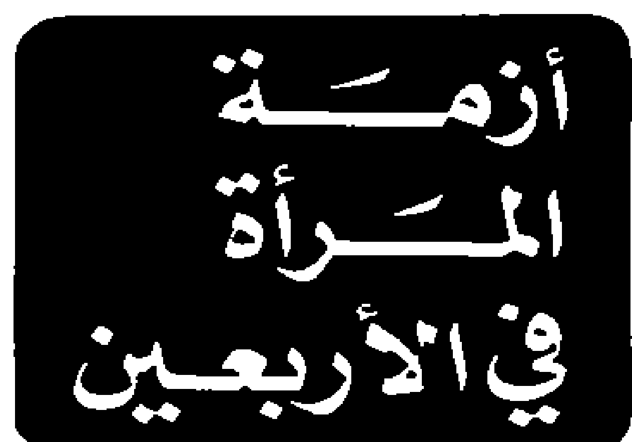
البيت العربي

مجلة الاسرة والمجتمع



ضرورة فحص الطفل عند ولادته





بين الحنين إلى الصبا الراحل ، والخوف من الشيخوخة القادمة ، تقف المرأة على حافة الأربعين ، خائفة ، يزيدها الخوف ذبولا ، فتقف حائرة بين العمر المنتصر والعمر المنكسر .

بقلم : نجوى قلعجي

مسكينة المرأة عندما تدرك سن الأربعين ، فمنذ الثلاثين يبدأ القلق والكآبة يعزوها خوفا من أفق الأربعين الشاحب . والنوادر التي تحكى عن علاقة المرأة بالعمر وتشبثها بالصبا لا تحصى ولا تعد ، ويقال : إنه ما من امرأة تعترف بوصولها إلى الثلاثين . وهذا واقع وليس مجرد نادرة تروى للتسلية . في السبعينات وفي بيروت رغبت ذات مرة بإجراء تحقيق صحفي حول هذا الموضوع مع عدد من النساء ، فأجريت اتصالا مع نساء من مختلف المجالات : كاتبات ، شاعرات ، رسامات ، ربات بيوت ، وسكرتيرات ، ولقد فوجئت أن نسبة عالية منهن رفض هذه التهمة التي وجهتها إليهن أي «أنهن بلغن الأربعين» ، ولازال صوت إحداهن يرن في أذني وهي تجيب بغضب : «من قال لك إني في الأربعين» وأغلقت سماعة الهاتف دون أدنى مظهر للباقة . لكن المرأة التي تعاني أزمة العمر تحيا مأساة حقيقية ، تغطيها أحيانا بمثل هذا التصرف الإنكاري . لذا لا يصح الاكتفاء بإلقاء النوادر . فعلاقة المرأة مع العمر علاقة درامية .

فات أوان قوس قزح

إن مشكلة العمر عند المرأة مشكلة جوهرية ، لا يعانيها الرجل بهذه الحِدّة ولا بهذا الألم ، بل على العكس تماما ، فالرجل يبلغ استقراره العاطفي والمهني ، في هذه السن «أي في الأربعين» ، وانطلاقا من هذا العمر الناضج يبدأ بالتدرج المريح نحو قمم النجاح والسعادة ، وفي هذا المجال يقول الفيلسوف برترندراسل : إن الدبلوماسي والسياسي يتطور نحو مزيد من الوعي والتفهم ليدرك كمال نبوته الفكرية في السبعين . ونقيض هذا التطور المتنامي للرجل وخاصة بعد الأربعين ، فإن هذا العمر الحرج يبدو بالنسبة للمرأة غالبا أضخم من سور الصين ، بل هو حاجز لايمكن تجاوزه . ذات مرة قالت لي امرأة أربعينية وهي تقف بحسرة أمام واجهة لبيع الألبسة تنظر بحسرة إلى قميص وردي اللون «فات الأوان» ، وعندما قلت لها : إذا كنت ترغبين في ارتدائه فلماذا لاتشترينه ؟ أجابت : «لقد رآني والدي منذ سنتين أرتدي ثوبا ورديا ، فنهرني قائلة : دعي هذه الألوان لابنتك ، إنها لم تعد تليق بك ، لقد كبرت وهذه المرأة صادقة حقا ، فإن الربيع ممنوع عليها بكل معانيه ومظاهره طالما أنها دخلت تحت سقف الخريف المنذر بغيوم الشيخوخة الرمادية ، وهكذا تنسحب ألوان قوس قزح من المرأة التي تبلغ الأربعين ولا يبقى لها إلا لون الحسرة على ماضي الشباب وأيامه ، وعلى الرغم منها تصاب بالشحوب ، وتهبط حيويتها النفسية وشعورها بالفرح،والأهم من ذلك أنها تفقد أهمية وجودها وجدارتها في الحياة .

وهكذا تعنف «سميرة» (٥٠ عاما) شقيقتها «زهرة» (٤٥ عاما) لأنها تفكر بعد زواج أولادها أن تتعلم الخياطة ، وتطمح إلى المزيد ، تقول : ماذا لو تعلمتُ العزف على العود ؟ فتسخر شقيقتها وتجيب : لستِ في حاجة إلى المال لتتعلمي الخياطة ، ثم ألم تسمعي المثل الذي يقول : «بعد أن شاب ذهب إلى الكتّاب» ! وما معنى أن تتعلمي العزف على العود ، دعي هذا للمراهقات . .

لكن «زهرة» أصرت لأنها اسم على مسمى ، فهي تتجدد في كل فصل قالت : لاأريد أن أنطفيء مثل سراج انتهى زيته ، إنني أحس بطاقة تنير أكثر من قنديل ، فالحاجة المادية لاتدفعني إلى تعلم الخياطة ، بل رغبة في اعطاء معنى لحياتي اليومية ، أن استيقظ وليس أمامي الجدران التي تقول لي بشماتة : إنني أصبحت مثلها باردة ، حمقاء بلهاء ، بل لريد إنجاز أمر ممتع ومفيد يشعرني بأنني مازلت على قيد الحياة . فدليل الحياة ليس التنفس فقط ، بل حيوية النفس . أما عزف العود فهذا حلم قديم منعني عنه زواجي المبكر ، وشغل بتربية الأولاد ، واليوم وبعد أن أتممت واجباتي الأسرية ، ماذا يمنعني من تحقيق هواية بريئة حيث أعبر من خلالها عن مشاعري وأبث أوتار العود همومي وأحلامي التي تحققت والتي لم تتحقق ؟

«زهرة» نادرة بين النساء في موقفها من هذا العمر ، ندرة زهرة الزنبق في حديقة مهجورة . فأكثرية النساء يستسلمن لكآبة وحزن سقيمين ، ويدخلن في عمر عقيم ويخضعن لآراء الآخرين ، وأكثر من هذا «يصبحن حساسات لأقل نظرة وأبسط ضحكة» . أجل إن المرأة في الأربعين تصبح مثل زهرة شقائق النعمان الهشة ، سريعة الانفراط تحت سياط النظرات اللاذعة ، وتعيش حياة السقم والغم والعقم والعتم .

لاعمر للرجل وخمسة أعمار للمرأة

تقول «ميني غريغوار» وهي كاتبة عالمية مشهورة في الصحافة مهتمة بشئون المرأة : «ليس للرجل عمر ، لكن النساء يعشن بعمر مقسم على مراحل خمس عمر المراهقة اللذيذ ، حيث رأسها محشو بالأزهار ، وحذاؤها مسطح بمداعب التراب . هذا العمر نيس بعد أنثويا ، ولايستمر لأكثر من خمسة عشر عاما . وفي العمر الثاني تنضج ثهار الرأس وتعطي رحيقها ، ويصبح هاجس الفتاة حبا وزوجا وأطفالا وتلتهم هذه الاهتمامات المرأة وتشغلها خلال خمسة عشر أو عشرين عاما .

ويأتي العمر الثالث - الذي يفاجىء النساء غالبا بمجيئه في الفترة الزمنية بين ٣٥ و ٣٦ عاما حيث تضعف هرمونات الجسد الأنثوية وينتاب النساء شعور بأنهن على هامش أنوثتهن الخاصة ، رغم ذلك يبقى هذا العمر مقبولا ، فالوجه مازال مشرقا بدون تجاعيد ، والحياة اتخذت طريقها للاستقرار العاطفي والعائلي حيث تم بناء الحب والزواج والأولاد .

اما العمر الرابع : والذي تسميه «ميني غريغوار» «عمر العزلة» وعمر الهجرة والتخلي ، حيث تبلغ المرأة الاربعين ويأتي هذا العمر للمرأة كاكتشاف لايشبهه الحب والزواج والأولاد ولكن اكتشاف أمر تجهل بالضبط ما هو ، ولا تعرف كيفية تحديده .. كيف لا ؟! وهو يمن اكتشاف المرء بالوحشة والهامشية وهجر الأولاد وتخلي الزوج عن نظرات الإعجاب والرغبة .. لكن هناك بعض النساء يتجاوزن هذه المرحلة بسلام ويحولنها إلى عمر الطمأنينة .

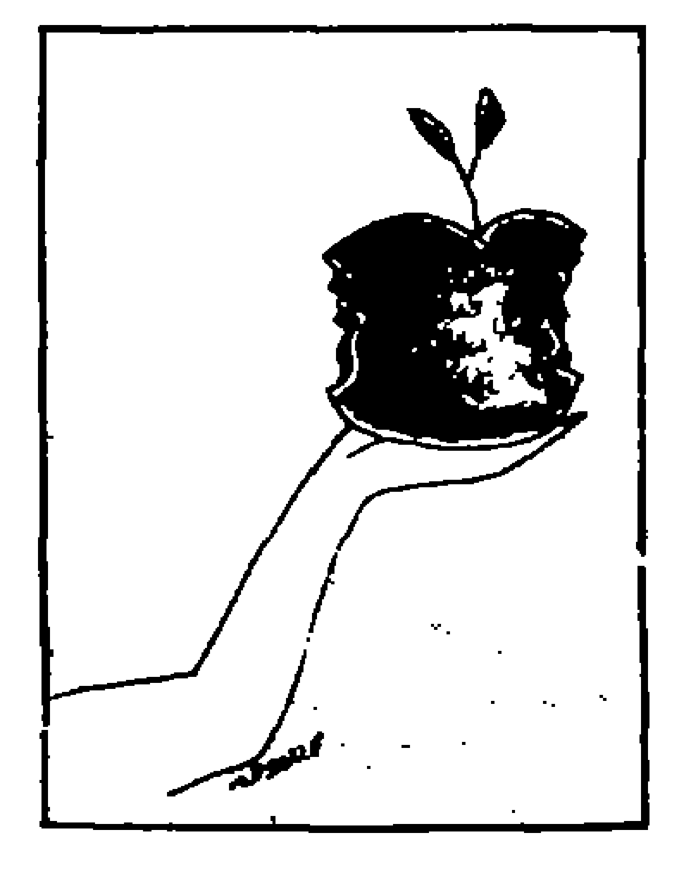
وبشكل عام فهذه هي مرحلة القلق الوجودي الكبير في حياة المرأة ، فالقلق يتصاعد يوميا مع اقتراب العمر الخامس، عمر الشيخوخة الذي يأتي ليغلق حلقة المصير حيث تذهب المرأة تاركة خلفها «صورة» صباها - وهي تبتسم طبعا - معلقة فوق جدار غرفتها .

وكما رأينا فإن أطول عمر هو عمرها الرابع وأصعب عمر نوعيا هو العمر الرابع أيضا ، ولكن هذه حقيقة يخفيها الرجال والنساء ولا يتكلم أحد عنها وغالبا ما يسيّجها صمت قاتل .

بعد أن «ميني غريغوار» تعقب مطمئنة النساء ، أن الاربعين هو «العمر الذي يمكن أن تكون فيه المرأة جميلة أيضا» وقد سبقها إلى هذا القول مثل شعبي قديم «إن الاربعين زهر البساتين» ويؤكد ذلك حديث الكثيرين ومنهم



كيركغارد الفيلسوف ، الذي يرى أن جمال الروح أهم من جمال الجسد وأبقى . ورغم ذلك فالقول باستمرار الجمال بعد الأربعين في الوجه والقامة أو في انتقاله إلى النفس ، هو مجرد اعتقاد من شأنه تخفيف القلق وليس إلغاؤه . أما لماذا ؟ فلأنه يبقي للمرأة كائنا للزينة فلا يصل لعمق المشكلة ولايمسك بجذورها ، وقد يكون من الأفضل رؤية الوضع النسائي في هذا المجال كما هو عليه ، لايجاد حلول وضعية وموضعية لهذا الداء ، فالنساء في الأربعين غالبا يصبحن بدون مستقبل (طالما أن المستقبل محدد بأمرين : الجمال والانجاب) ولا يتحدد أمامهن غير تلاشي الذات . وللأسف الشديد فإن هاجس الأربعين تحياه المرأة قبل هذا العمر بكثير ، وهاهي «سيمون دي بوفوار» ، تكتب «ذات يوم وأنا في



الأربعين ، فكرت قائلة ، هاهي الشيخوخة في عمق المرأة تترقبني» إذ مهما تباين عمر المرأة ، ومهما تنوعت بيئتها الاجتماعية ، يبقى هذا العمر في كيانها هاجسا يردد أصداء مزعجة .

من الهامش إلى المتن

في إحصاء قام به «هارولد بورتنوا» (وهو أحد المهتمين بمجالات علم النفس والتربية في الكلمة المكتوبة والمسموعة في فرنسا) تقول طالبة لايتجاوز عمرها ١٩ عاما : «لاأستطيع أن أتصور نفسي في الخمسين . هذا أمر محزن جدا إن الناس الذين بلغوا هذا العمر ، والذين أشاهدهم حولي هم منطفئون يحيون على ذكرياتهم وليس لديهم من أمل بشيء . هذا فظيع» .

وهذه شهادة لامرأة متزوجة ، أم لثلاثة أولاد ، زوجها معلم مدرسة ، وهي لاتعمل وتبلغ ٣٣ عاما تقول : «لدي انطباع أنني أقف على قمة وأنه ابتداء من الآن لن أفعل شيئا غير الهبوط» .

وفي هذا الصدد تقول الكاتبة «كوليت اودري» .

«إن امرأة تهرم ، هي امرأة لم تعد تصلح لشيء وتعيش ماتبقى من حياتها على الهامش» .

ماذا نقول بعد ؟! إن كلا من أطباء الصحة وأطباء الأمراض النسائية يؤكدون أن الأربعين هو عمر النضج الجسدي والصحي للمرأة ، حتى أن أزمة انقطاع الحيض لاتشكل أزمة إلا على صعيد التناسل ، فطاقة المرأة بعد انقطاع الحيض تصبح أكبر وأشد تركيزا ، في هذا المجال يبين الدكتور «ويليام براون» (وهو محلل نفسي أميركي اهتم بهذا الموضوع وآثاره الجسدية والنفسية) أن عددا كبيرا من النساء اللامعات

كن هشات وضعيفات قبل سن الخامسة والأربعين وأن طاقتهن لم تنطلق إلا مع هذه السن ويذكر منهن : القديسة «تيريزا دافيلا» و «فلورانس نايتنغيل رائدة الصليب الأحمر» «وجين آدامز» التي حازت على جائزة نوبل عام ١٩٢١ لجهودها من أجل السلام وحقوق المرأة «ودوروتيه ديكس» التي ناضلت حتى أقرت الولايات المتحدة أول شروط قانون حماية المعوقين والسجناء

العمر المتصر والعمر المنكسر

واذا كان الطب قد بدأ يرى أن عمر الأربعين يمكن أن يشكل مرحلة السنوات الذهبية بالنسبة لصحة المرأة وطاقتها ، فان عالم الاقتصاد يضيف بعد أن يطالع احصائيات العمل النسائي أن هذا العمر «هو زمن العمل وزمن المردود» كذلك فإن عالم الاجتماع يرى فيه عمر اللباقة ، وعالم النفس اصبح بمستطاعه أن يرى فيه عمر التوازن الأفضل .

لكن النساء يبقين محشورات بين عمر بناتهن اللواتي بلغن الخامسة عشرة وعمر امهاتهن اللواتي بلغن الستين ويقفن في الأربعين بين العمر المنتصر والعمر المنكسر خائفات لاعمر لهن ولا لون ، يزيدهن الخوف من الذبول شحوبا وذبولا . يعشن بين حين إلى الصبا الراحل وخوف من الشيخوخة القادمة . لا يجرؤن على البوح بما يعانينه من ضياع . وتكاد تسر الواحدة منهن لنفسها : أحلى ، الأولاد ماعادوا بحاجة لرعايتي لقد أتموا تعليمهم أو تزوجوا . والزوج بات عبرته تخف ونظرته الولهى تجف فما معنى حياتي

كلمة أخيرة لحديث يلزم ان تكون له خلاصة : تماما كما أن المرأة تساوى مع الرجل في البقاء فهي تتساوى معه في النماء وإذا كانت ثمة فروق في التكوين الجسدي والنفسي بين المرأة والرجل فإنهما يتساويان معا في البقاء وفي النماء ، في حق العيش والارتقاء ، وأول حق من حقوق المساواة بين المرأة والرجل في الشروط العامة هو حق المساواة في العمر ، فتماما كما يكتمل نضج الرجل في الأربعين وتبدأ مسيرته نحو تفتح طاقاته ونحو ذروة عطاءاته ، كذلك ليكن هذا العمر بالنسبة للمرأة نقطة بداية وليس نقطة نهاية .

وعلى المرأة قبل الرجل ـ وهذه مشكلتها هي ـ أن تعي أن نضجها يبدأ من الأربعين ، فلتكن هذه المرحلة من العمر لديها انطلاقة جديدة نحو السنوات الأكثر طولا والأكثر غنى ، إذ بعد أن عاشت كلياً لأجل الزوج والأولاد ، تستطيع أن تلتفت قليلا إلى ذاتها ، وأن تستعيد ماضيعته من هوايات واهتمامات . وبعد أن أدت واجبها نحو الزوج والأولاد ، أصبح بمقدورها ان تنظر إلى واجبها تجاه نفسها . فترتقي بنفسها نحو الاهتمام بصحتها ورشاقتها والاهتمام بذوقها ومعرفتها والاهتمام بدائرة أوسع من دائرة الزوج والأولاد الاهتمام بالمجتمع حتى تكون الأربعون عتبة مرمرية تجتازها لتحقيق ماسمي حقا عمر الذوق واللباقة . □



فحص الطفل عند ولادته ضرورة ملحة

بقلم : الدكتور عمر فوزي تجاري

فرحة الأم بقدوم مولود جديد إلى الأسرة ، ينسيها شهور الحمل الطويلة ، وما صاحبها من مشاكل صحية ونفسية ، ولكي تدوم السعادة لا بد من الإسراع لإجراء كشف طبي مبكر على صحة المولود للاطمئنان على سلامته ، وتجنيبه الكثير من المشاكل التي قد تترتب على إهمال مثل هذه القضية .

يقاس تقدم الأمة ورقيها حسب معايير اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية وصحية . ولعل المقياس الصحي من أبرز هذه المعايير ، حيث تظهر نسبة المواليد إلى نسبة الوفيات في بلد ما ، مدى رقيّ الأمة وتطورها .

وتكون هذه النسبة عادة منخفضة في البلدان المتقدمة ، فالطفل منذ ولادته يخضع لرقابة صحية جيدة ، ولضمان صحي جيد ، كما تشكل الولادات في المستشفيات أكثر من ٩٠٪ في تلك البلدان ، بينما لا تتجاوز هذه النسبة في بلدان العالم الثالث ٥٪ ، وهذا يعني أن غالبية المواليد في البلدان المتقدمة يخضعون منذ الولادة للكشف الطبي المبكر من قبل أطباء مختصين .

بينما لا تتجاوز نسبة الأطفال الذين يكشف عليهم عند الولادة في البلدان النامية ١-٢٪ ، ذلك أن الكشف الطبي الأول للطفل حتى في الولادات التي تتم في المستشفيات لا يشمل جميع الولادات ما لم يطلب الأهل ذلك ، أو ما لم تلاحظ على الطفل مشكلة مرضية .

أسرع للفحص المبكر :

لعل من الضروري هنا التأكيد على أهمية الكشف الطبي المبكر على صحة الطفل الآنية ، وعلى مستقبله الصحي بعامة ، لما قد يكشفه هذا الفحص الأولي من مشاكل صحية قد يكون



● جهاز للكشف عن صحة الطفل داخل رحم الأم.

علاجها الباكر وتدبيرها الآني منقذا لحياة الطفل . وكثيرا ما أتذكر حالات لأطفال تم إنقاذهم من موت كان محققا لو تأخر الأهل بعرض طفلهم على الطبيب ، ومن هذه الحالات ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ طفلة لها من العمر أربعة أيام ، راجعني أهلها لأن ابنتهم لم تتغوط على الرغم من مرور أربعة أيام على ولادتها . وبسؤال الأهل تبين لي أن الطفلة تعاني من اقياءات صفراوية مستمرة ، وبفحص الطفلة لوحظ وجود انتفاخ في البطن مع كبر حجمه . وبالكشف على فتحة الشرج تبين لي غياب فوهتها ، وهذه الحالة تعني وفاة محققة للطفلة . ما لم يتم إجراء عمل جراحي اسعافي لها لإيجاد فتحة شرجية للطفلة . وقد تم ذلك وتحسنت حالة الطفلة ، وهي الآن تمشي على قدميها .

من المسئول ؟

إن الاهتمام بصحة الطفل الوليد يبدأ من تكوينه في رحم أمه ، وحتى اكتمال نموه وولادته ، ولهذا توصي الحوامل بمراجعة الطبيب بشكل دوري أثناء الحمل ، لمراقبة حملهن وتزويدهن بالتعليمات والنصائح المناسبة ، ولعل بعض أهم هذه الارشادات ، العناية بالتغذية الجيدة من أجل صحة الحامل والجنين معا ، والامتناع عن التدخين والمشروبات الكحولية ، لما لها من تأثير ضار على صحة الأم والجنين . وتعد هذه من أهم الأسباب المؤدية للخداج ولولادة أجنة ناقصة الوزن مقارنة مع أقرانهم . وننصح الحوامل بعدم تناول أي دواء دون مشورة الطبيب ، خاصة خلال فترة الحمل الأولى لما قد تسببه بعض الأدوية من تشوهات في الأجنة التي كثيرا ما نشاهدها في ممارستنا اليومية .

ولا شك في أن فترة الولادة من أهم الفترات التي تؤثر على المستقبل الصحي للطفل . ولذ يتوجب أن تتم الولادة في المشافي المختصة ، وبإشراف اختصاصيين كي يتم اتخاذ الإجراءات الصحية المناسبة في حال حدوث طارىء ما ، وهذا ما لا يمكن اتخاذه إذا ما تمت الولادة في منزل ناء أو قرية بعيدة .

تشوهات واضحة

ومن المشاكل التي قد يتعرض لها الأطفال حديثو الولادة ما هو ناجم عن ظروف الوضع كالورم الدموي الناتج عن انضغاط فروة الرأس بين جمجمة الطفل وحوض الأم ، ويظهر على شكل انبعاج في قمة الرأس غالبا ، وهو انبعاج طري القوام ذو حواف عظمية قاسية الملمس . وغالبا ما يزول هذا الانبعاج تلقائيا خلال فترة قد تصل إلى الأسبوعين ولا يحتاج لأي علاج .

هنالك التشوهات الخلقية الولادية ، وهي الأسوأ ، كالتشوهات المشاهدة في الوجه المعروفة باسم « شفة الأرنب » وهي عبارة عن شق في الشفة العليا للطفل قد يمتد فيشمل قبة الحلك وقد يصل إلى اللهاة . ومثل هذا التشوه يحتاج لعلاج جراحي ولعناية تمريضية جيدة .

ومن التشوهات الأخرى المشاهدة ما يعرف باسم الأقدام القفداء الروحاء ، وهو تشوه خلقي أيضا يصيب ناحية القدمين ، ويظهر بميلان القدم نحو الداخل والأسفل ، ويبدو كأن الطفل يقف على حافة قدمه بدلا من أخمصها .

وهذا التشوه يصيب الأنسجة الرخوة للقدم ، فإذا أهملت معالجته إلى سن متأخرة ، يؤدي إلى تشوه في شكل عظام القدم ، ومن هنا كانت المعالجة الباكرة ضرورية جدا ، إذ كلما بكرنا في معالجة الطفل كانت المعالجة أجدى .

وأخرى خفية

ومن الأمراض التي قد تصاحب المواليد ، أمراض القلب مثلا ، كالثقب بين البطينين ، والثقب بين الأذينين ، وبقاء القناة الشريانية ، وهنالك أيضا التشوهات المختلفة التي قد تحدث على مستوى الأنبوب الهضمي كالنواسير القصبية المريئية ، وغياب فتحة الأمعاء والانفتالات وغياب فوهة الشرج . وهذه التشوهات الخفية جميعها لا يمكن كشفها إلا من قبل طبيب مختص وقد يكون منقذا لحياة الطفل في بعض الحالات .

ومن التشوهات الأخرى المهمة التي قد يتأخر اكتشافها إلى ما بعد الفحص الدوري الأول ، وربما الثاني هو خلع الورك الولادي ، وهو آفة خلقية مزعجة جدا للطفل وأهله ، لما يسببه من اضطراب نفسي ، ولما يتركه من تشوه جمالي وجسماني ، ومن إعاقة لحركات الطفل الطبيعية ، هذا إذا تأخر اكتشاف المشكلة وتأخر بالتالي العلاج . وهنالك أيضا رباعي فاللو وهو مرض خلقي يصيب القلب ، وقد لا يكشف من الفحص الفيزيائي الأول للطفل ، إذ غالبا ما يتم اكتشافه بعد فترة من الولادة . وفيه لا يشفى المريض إلا بإصلاح العيب الخلقي جراحيا .

وهنالك أيضا الفتوق على اختلاف أشكالها ، كالفتق السري الذي يحدث في منطقة السرة ، والذي يتأخر ظهوره إلى ما بعد سقوط السره لدى الطفل (الفتوق الصغيرة) .

أهمية الفحص الدوري :

تنبع أهمية الفحص الدوري للطفل خلال السنة الأولى من عمره من إمكانية هذا الفحص في كشف حالات مرضية باكرا ما أمكن ، وبالتالي اتخاذ الإجراءات المناسبة تجاه ما يمكن أن يطرأ على صحة الطفل من تدهور أو انحراف .

ولعل أهم ما في الفحص الدوري هو مراقبة نمو الطفل جيداً ، والتدخل لصالح الطفل في حالة ملاحظة أي اضطراب في نموه . □

هو.. هي

هوس ثقافي

لا أشك أبدا بذكاء زوجي، ولا أنتقص أبدا من ثقافته، ولا أقلل من حبه للعلم والثقافة والفن، لكن مشكلته كما يبدو لي هي أنه لكثرة متابعاته الثقافية والأدبية نسي الحياة نفسها، واكتفى بالنظريات والأفكار. وبدل أن يعيش الحياة كما هي، عاش مع شخصيات الروايات التي يقرؤها، أو الأفلام السينمائية التي شاهد منها الكثير، وبدل أن يستمع إلى مشكلات الناس الحقيقية وهمومهم وربما أغانيهم، هام عشقا بالموسيقا الكلاسيكية التي لا أشك بقيمتها الفنية الكبيرة، لكنني أعتقد أنها بحاجة إلى أجواء خاصة ومزاج نفسي خاص لسماعها.

وهكذا كان علي منذ بداية



حياتنا الزوجية أن أجاريه في كثير من «عاداته» الثقافية الكثيرة، وفي الوقت نفسه بدأت أعمل على التخفيف من هذا «الهوس الثقافي». وحتى المتابعة التي كانت تتوزع على أكثر من مجال. ودون أن يشعر زوجي وجد نفسه منغمسا في حياة اجتماعية حقيقية، يشاهد المشاكل الزوجية، ويحاول أن يحلها، ويراقب المشاكل العائلية لأصدقائنا، ويستمع إلى اهتمامات قد لا تكون في جمال الروايات التي كان يقرؤها، ولا في متعة المسرحيات التي كان يشاهدها، أو في رقي الموسيقا التي كان يستمع إليها، لكنها كانت حقيقية وواقعية، وأهم من ذلك كله كانت مفيدة لشاب مثله خبر القراءة، ولم يخبر الحياة، وعاش الخيال قراءة وموسيقا ولم يعش الواقع. وشعرت بالاطمئنان وأنا أشاهد مركب حياتنا الزوجية سائرا بهدوء، حتى كان مجيء طفلنا الأول.

عندئذ قام زوجي بمحاولته الأخيرة ليعود سيرته الأولى، فقد ظن أن الأوان قد آن ليتركني منهمكة في رعاية الطفل، ويعود لمشاهدة الأفلام والمسرحيات، ومتابعة الندوات والحفلات، لكنه نسي أنه الآن أصبح مسئولا عن طفل يبدأ خطواته الأولى على طريق الحياة، وأن أطفالا آخرين في الطريق ليساهموا في تعمير الكون ويعطوا للحياة معنى وقيمة. وفي أحد الأيام كان زوجي منهمكا في قراءة رواية عندما بدأ طفلنا بالصراخ، فأغلق الكتاب بهدوء، ونظر إلى الطفل الباكي، ثم حول نظره إلي، وصمت قليلا، ثم تمتم بكلمات لم أفهمها، لكنني ميزت من بين جميع كلماته اسم «فرويد». وقبل أن أسأله عن علاقة كل هذا بفرويد رأيته ينهض ويتوجه للطفل ويحتضنه بحنان.

هي..



نظريّة وتطبيق

لم أكن أتوقع أن تكون النظريات التي نقرأ عنها والأفكار التي تشيع في كتب علماء النفس والاجتماع بعيدة عن الواقع إلى هذه الدرجة .

فقد كنت أعتقد بصحة نظرية فرويد التي تقول : إن حب المرأة لزوجها ينتقل بعد إنجاب الطفل الأول إلى الابن ، وإن الزوج يشعر بأن الاهتمام به بدأ يقل بالتدريج ، حتى يصل حدا قريبا من الإهمال بعد إنجاب مزيد من الأطفال . وأصارحكم بأنني كنت أخاف على نفسي من هذا المصير ، لكنني الآن بت مقتنعاً بعكس ذلك تماماً .

فقبل الزواج كنت أبدو في سباق مع الحياة ، أقرأ وأتابع الجديد في عالم الكتب ، وأستمع إلى المحاضرات والندوات ، وأستمع إلى الموسيقا العربية والكلاسيكية ، وأشاهد الأفلام السينمائية ، وأتابع الجديد في المسرح ، وأحب مشاهدة مباريات كرة القدم .

وقد حاولت أن أبقى هكذا بعد الزواج ، لكنه كان أمرا مستحيلا ، فمع الزواج وجدت نفسي منغمسا في عدد كبير ومتداخل من العلاقات الاجتماعية المتشابكة ، بأصدقائي ، وزملائي ، وأقاربي ، وصديقات زوجتي وزميلاتها وأزواجهن . وبالطبع كان من المستحيل استمرار متابعاتي تلك بالوتيرة نفسها ، فبدأت بالتدقيق في اختيار الأفلام السينمائية والمسرحيات التي كان عليّ مشاهدتها مع زوجتي ، وأوقفت الاستماع للموسيقا الكلاسيكية التي لا تحبها ، وتوقفت عن مشاهدة مباريات كرة القدم ، لأن زوجتي لا تطيقها ، وخفضت عدد المجلات والصحف التي كنت أقرؤها ، وأقلعت عن متابعة المحاضرات والندوات ، فلا مكان في الحياة الزوجية لكل هذا . لكنني كنت أقول لنفسي : إن هذا أمر مؤقت ، فما أن يأتي طفلنا الأول حتى تشغل زوجتي به ، وأعود سيرتي الأولى ، غير أن ما حدث كان العكس تماما .

لأن الطفل بحاجة إلى رعاية دائمة لذا فقد أضيفت إلى مهماتي بعض شؤون البيت ، والأعمال والشراء الذي ازداد مع قدوم الطفل ، ولم أعد أستطيع الخروج للسينما أو الذهاب إلى المسرح ، أو متابعة الندوات ، لأنني يجب أن أبقى مستعدا لأي طارىء قد يحدث للطفل ، ولم أتمكن من الاستماع للموسيقا الكلاسيكية لأنها تزعج الطفل النائم . وحتى قراءاتي لم أتمكن من مواصلتها كما كنت آمل بسبب بكاء الطفل في أوقات غريبة ، اعتقدت فترة أنها كانت بتحريض من زوجتي .

ومع أنني كنت أخشى إهمال زوجتي لي بعد الطفل الأول والاهتمام به ، فإنه قد جاء عليّ وقت ، كدت أصرخ فيه متمنيا أن يكون فرويد على حق .

هو..



ضغط الدم المرتفع
ماذا لو أهملنا علاجه ؟

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

كثير من الناس قد يخطئون في توهمهم بأن ضغط الدم مرض من أمراض الإنسان ، لأن الحقيقة أننا جميعاً لا حيلة لنا أن نعيش بمعزل عن ضغط الدم ، فهو الضمان الوحيد لتدفق أسباب الحياة واستمراريتها في كل خلية من خلايا الجسم ، حاملاً معه الغذاء والأكسجين ، ناقلاً معه الفضلات في أوبته . وربما قصدوا أن يعبروا عن ارتفاع ضغط الدم عن معدله الطبيعي فخانهم التعبير وقالوا : ضغط الدم .

ومادام هناك قلب ينبض ، وهناك دم يتدفق ، وشرايين لها جدران ذات عضلات تنقبض وترتخي ، فلابد أن يكون للدم ضغط ، فإذا مازاد أحد هذه العوامل عن حده فالمحصلة هي ارتفاع ضغط الدم عن معدله ، وإذا ماتدنى تعطلت أسباب الحياة .

والأطباء يذهبون الى القناعة بأن موطن العلة هو ضيق يعتري الشرايين الطرفية ، ذات المقاطع الصغيرة والمتوسطة في دورة الدم العامة في الجسم ، ولهذا فلا موضع لضغط الدم المرتفع في الأوردة أو الأوعية الشعرية أو الدورة الرئوية . كما يعدون الحد الأقصى لضغط دم إنسان بالغ طبيعي سليم هو ١٥٠ مليمتراً من الزئبق عند انقباض عضلة القلب ، ولذا سموه بالضغط الانقباضي ، ومقدار ٩٠ مليمتراً من الزئبق للضغط الانبساطي الذي يتوافق مع ارتخاء عضلة القلب .

والواقع أن ضغط دم الطفل عند ولادته يكون منخفضاً بما يقدر بحوالي ٧٥ مليمتراً من الزئبق للضغط الانقباضي ، و ٤٠ مليمتراً من الزئبق للضغط الانبساطي ، ويعبرون عنه بكسر بسطه الضغط الانقباضي ، ومقامه الضغط الانبساطي ، ثم يزداد ارتفاعاً مع تقدم العمر وتوالي السنوات .

قد يذهب فريق من الأطباء الى إطلاق اسم المرض الصامت على ضغط الدم المرتفع ، لأن المعاناة فيه لا تصاحبها أعراض ولا علامات محددة واضحة المعالم تدل عليه ، وإنما هو قياس ضغط الدم العابر الذي يكشف عن هذه المعاناة مصادفة ، أما الأعراض والعلامات فتأتي متأخرة ، عند استفحال المرض ، بل ربما تكون مضاعفات خطيرة لا تحمد عقباها ، لهذا نصحوا وشددوا في نصيحتهم بضرورة الكشف المبكر والفحص الدوري .

مضاعفات القلب :

في بداية الأمر تتضخم عضلة القلب ، حتى تتغلب على المقاومة الطرفية لدورة الدم ، بسبب ضيق الشرايين الصغيرة ، مما أحدثه

انقباض عضلات جدرانها ، ولكن دون معاناة ، وإذا ما استمر الحال وتفاقم الأمر ، وزاد ضغط الدم ارتفاعاً عن ذي قبل ، تعجز عضلة القلب عن المجاراة ، فتستسلم وترتخي وتصاب بهبوط ، وهذا هو فشل القلب الذي يعرف بهبوط القلب على ألسنة عامة الناس ، مما قد يكون سبباً شائعاً للوفاة بعد طول معاناة .

مضاعفات الأوعية الدموية :

في علم الطبيعة قانون يؤكد أن لكل فعل رد فعل ، وهذا فزيادة ضغط الدم داخل تجويف أنبوبة الشريان تدفع عضلات الجدار الى مزيد من الانقباض ، مما يؤدي الى مزيد من ضيق مجرى الوعاء الدموي ، فتصل الحال الى أمرين أولهما حلقة مفرغة من زيادة ضغط الدم . وثانيهما دمار جدار الوعاء الدموي ، وموت عضلاته . بل ربما انتهى الأمر الى انفجار بعد تمزق ، أو الى حدوث تجيّب وانتفاخ ، يعرف باسم « الانيوريزم » في لغة الطب .

إن العلاج المبكر المتواصل يكبح جماح ارتفاع ضغط الدم ، حتى لايفلت الزمام من صاحبه ، كما يتطلب مواصلة العلاج واستمرارية الكشف الطبي طوال الحياة لدى طبيب مختص ، يتولى الإشراف الطبي ، وقياس ضغط الدم ، واستطلاع حال المصاب احترازاً من المضاعفات التي قد تداهم صاحبها دونما توقع ، ودون أعراض وعلامات سابقة للخطر واضحة المعالم تنذر بوقوعه .

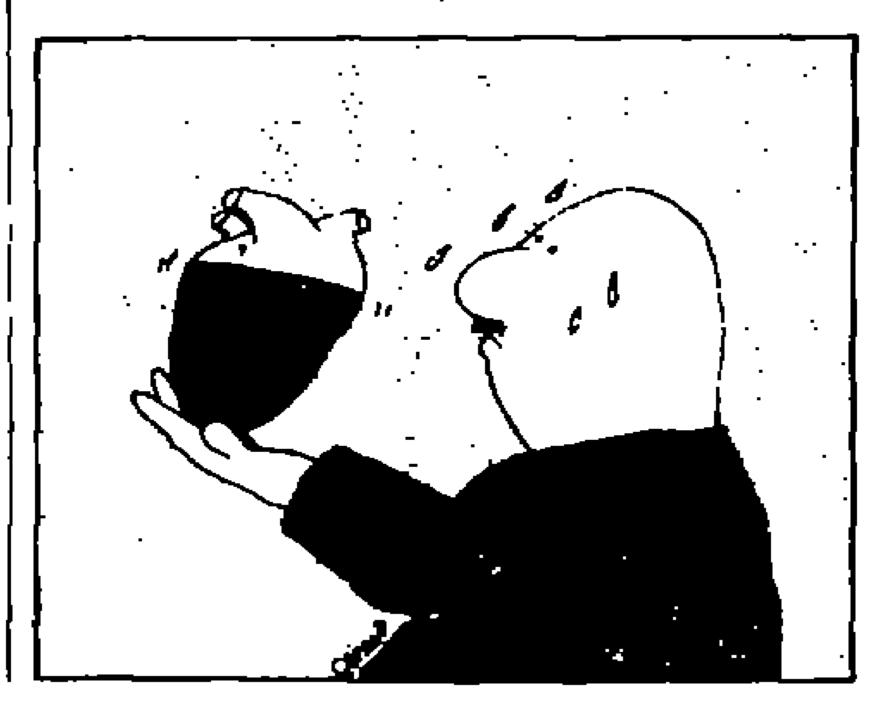
علاج ضغط الدم المرتفع :

القاعدة الذهبية في الطب تؤكد أن علاج المرض يبدأ من البحث عن سببه ولو تقصينا أسباب ارتفاع ضغط الدم لطالعتنا حقيقة غريبة ملحة هي : أن مابين ٨٠ - ٩٠٪ من المصابين بارتفاع ضغط الدم لاتتبين لمعالجهم سبباً محدداً أبداً ، وهذا النوع يطلق عليه في الطب اسم ارتفاع ضغط الدم الأساسي أو الأولي . وهنا يتركز العلاج على تخفيض منسوب ضغط الدم ، والعودة به الى الحدود الطبيعية بأي وسيلة تتناسب وحال المريض وعمره .

ربما كانت هناك بعض العوامل التي يشار اليها بأصبع الاتهام ، أكدت الملاحظات مشاركتها في ترسيب المعاناة بضغط الدم المرتفع ، وهذه تؤخذ باعتبار الطبيب المعالج ، غير أن النظريات والاجتهادات لتفسير ارتفاع ضغط الدم تبقى مستثناة من الاعتبار عند علاج ضغط الدم المرتفع .

أما البقية الباقية وهم القلة من المرضى ، فقد نجد لارتفاع ضغط الدم لديهم سبباً محدداً ، فيصبح علاج هذا السبب - لو أمكن - كفيلا بعلاج ارتفاع ضغط الدم بالتبعية ، وهذا هو ماتسميه « ارتفاع ضغط الدم الثانوي » .

فإذا ماعدنا الى ذكر العلاج فلابد أن نعود الى تأكيد البحث عن السبب واستئصاله أولاً ، غير



أن هناك طرائق علاجية أخرى ، لايمكن الاستغناء عنها ، خاصة إذا ماتعذّر معرفة السبب في ارتفاع ضغط الدم كما هو الحال مع ارتفاع ضغط الدم الأساسي أو الأولي ، ومنها :

أولاً : محاولة التخفيف من ضغوط الحياة على المصاب ، سواء الضغوط النفسية ، أو الاجتماعية ، أو الجسمانية ، وهذا يتطلب معونة الأهل والمجتمع مع الأسرة الطبية بالإضافة الى المختصين في علمي النفس والاجتماع .

ثانياً : تخفيض وزن المريض ، والالتزام بحدود الأوزان الطبيعية للعمر والجنس ، فالبدانة رفيق درب مستحب لارتفاع ضغط الدم .

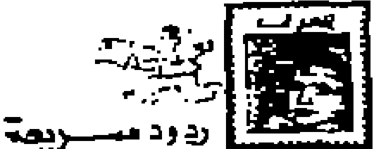
ثالثاً : الامتناع عن تعاطي ملح الطعام أو التقليل منه بأقصى قدر ممكن ، بعد أن ثبتت التهمة عليه في المساهمة في رفع ضغط الدم . والشعوب المسرفة في تناول ملح الطعام هم أكثر ضحاياها هذه المعاناة .

رابعاً : العقاقير ، وهذه أمرها معقد ومتشعب : تدخل في نطاق اختصاص الطبيب المعالج ، وهي تتراوح بين مدرات البول وبين العقاقير التي تعطل التغذية العصبية لجدران الأوعية الدموية التي تؤدي الى توترها وانقباضها ، فيصاب الإنسان بما يعرف باسم « بيتا بلوكر » ، يضاف الى هذا قائمة طويلة من العقاقير المهدئة للتنفس ولعضلة القلب ، والعقاقير التي ترخي الشرايين وتوسع مجراها وتحد من مقاومتها لسريان الدم .

إن الأمر الذي يجب أن يدركه المصاب هو ضرورة الالتزام بما يحدده الطبيب المعالج من أدوية ، وبما ينصح به ، حيث لابد من الانتظام في المواعيد والاستمرارية في أخذ العلاج .

إن مريض أمراض ضغط الدم المرتفع عليه أن يتعايش مع مرضه ، وأن يتحلى بالصبر الجميل على مواصلة العلاج سنين طويلة متعاقبة ، بل ربما كانت رفيقة العمر كله في حال يصعب الحكم فيها بإمكانية الشفاء منها أو الخلاص من براثنها .

فربما يأتي ارتفاع ضغط الدم وهو لايحمل في حد ذاته لصاحبه معاناة ولا أعراضاً ، مما يغري المصاب بالإهمال والتراخي ، غير أن الغاية دائماً من العلاج هي الحذر من غدر المضاعفات التي لاترحم .



ردود مسريعة

الرجال وسرطان الثدي

السيد غالب محمد ـ الاسكندرية ـ جمهورية مصر العربية

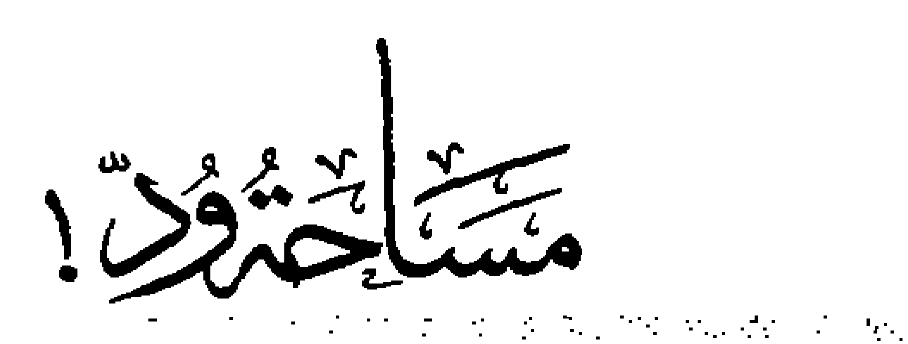
أمر سرطان الثدي مألوف ومعروف لدى النساء ، لكنه لم يُعهد في عالم الرجال ، واحتماله نادر ، والأندر منه أن يصيب السرطان كلا الثديين معا .

وسرطان الثدي يظهر في أكثر من صورة ، لكنه ينمو تدريجيا ، والأغلب أن يكون صامتا بلا ألم ، وتشخيصه يقوم على الشبهة ، ولا يملك أي طبيب أن يؤكد الإصابة به ، إلا بعد فحص عينة من الدم ، تثبت وجود تغيرات سرطانية .

والصورة التي تصف بها معاناتك تبدو بعيدة كل البعد عما تتوهم ، والأفضل لك استشارة طبيب مختص ، ليحسم لك الأمر ، وننصح بألا تذهب بعيدا مع المعاناة في صحبة الأوهام .

السيد/ عارف ط حماة ـ سورية

تلوّن الجلد واحراره في منطقة العجان ، يوحي بالإصابة بعدوى فطرية ، وهو أمر بحاجة الى كشف طبي ، وعلاج مناسب ، ولابد من استشارة اختصاصي الأمراض الجلدية ، لكنه لا يستوجب القلق . □



عـــــودة

للوهلة الأولى بدت « قريتي » هي « قريتي » ، المدخل المؤدي إلى ساحتها ، والسراي القديم الذي بقي شاهدا على وجود السلطة في هذه القرية النائية ، وبعض المنازل التي كسر الألفة بيني وبينها تقادم العهد بها ، واستحالة لونها ، ونمو الأعشاب بين حجارتها غير المنتظمة ، وإلى جانبها انتصبت بيوت ومنازل جديدة نضرة البنيان ، وارتفعت مبان عرفتها منخفضة ، وزالت مبان أخرى ، وشقت شوارع عريضة في القرية الصغيرة ، فتغيرت وجه الأزقة التي عرفتها جيدا ، وتحولت الفسحات التي كانت ملاعب لأطفال ذلك الزمن إلى ساحات رحبة حديثة التصميم .

كانت تلك هي الزيارة الأولى « لقريتي » بعد أكثر من عشرين عاما . « وقريتي هي الاسم الذي أطلقه على هذه القرية التي عملت فيها خلال سنوات دراستي الجامعية .

لم أحاول نسج علاقات مع أحد أو مصادقة أحد من أهل القرية ، فقد كنت مهتما بدراستي الجامعية وقراءاتي الخارجية أكثر من الاهتمام بإقامة علاقات اجتماعية ، وكنت أكثر ميلا لمراقبة القرية وهي تستيقظ مع ساعات الفجر الأولى ، ومشاهدة الحياة تدب في جسدها النائم .

لكن أهل القرية أصروا على انتزاعي من هذه الحالة غير المألوفة لديهم ، إلى أن نجحوا في إدخالي إلى عالمهم القروي البسيط ، وكأنما بترتيب مسبق وجدت الجميع يخاطبونني باعتباري واحدا منهم ، ويشيرون إلى قريتهم باعتبارها قريتي . ووجدت نفسي الحاضر الدائم في أماكن سهرهم ، وليالي سمرهم ، ومجالسهم الخاصة . وحين كان علي أن أغادر القرية لم أكن أتوقع ، ولا كانوا هم يصدقون ، أن الغياب سيستمر أكثر من عشرين عاما .

ووقفت أتأمل وجه « قريتي » الذي تغير ، راقبت المارة والعابرين الذين بدت هيئاتهم أثناء السير مألوفة لدي ، وخطواتهم وملامحهم ليست غريبة عني ، لكنهم لم يكونوا أهل قريتي الذين عرفتهم .

عرفت البيوت والشوارع القديمة ، لكنها لم تعرفني ، وعرفت مداخل القرية ومخارجها ، وطريق المدرسة ، وطريق الكروم القريبة ، وطريق المدينة المجاورة ، لكنها لم تألفني . هل هو تواطؤ الزمان مع المكان احتجاجا على رفضي حضن قريتي ، أم هو عقاب لي على خيانة عهد لم يكتب مع « قريتي » التي غادرتها كل هذه السنين ؟☐

صلاح حزين

بقلم : الدكتور حسن عباس

التصحيف والتحريف

الصحيفة هي التي يكتب فيها ، وتجمع على صحف وصحائف . وقد جاء في التنزيل : « إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صحف ابراهيمَ ومُوسَى » ، ومعناها الكتب التي أنزلت عليهما . والصحيفة إذ تجمع على صحف فذلك من باب جمع فَعِيلةٍ على فُعُل ، كـ سَفِينةٍ وسُفُن . والمُصَحِّف والصَّحَفِيُّ هو الذي يروى الخطأ عن قراءة الصحف . أما التصحيف فهو الخطأ في الصحيفة . قال فيه المعري : أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال ، فيغيره عن الصواب ، وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث ، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : ومن يَعْرى من الخطأ والتصحيف ؟ لذلك نجد التصحيف يقل في مواضع ويكثر في أخرى ، على أن هذا الموضوع لا يخلو من طرائف وقع فيها المُصَحِّفون ، ثم انبرى بعض أئمة الأدب واللغة إلى حصرها وتصنيفها ، وقد وجدنا في بعضها فائدة لغوية فضلا عن طرافة . وإنما الذي ساعد على شيوع التصحيف قديماً أن العرب لم يكونوا يعجمون الحروف ، فلما أعجموا ـ أي وضعوا النقاط ـ زال اللبس ، وبان المعنى ، فاختفى التصحيف أو كاد . ومن هنا جاء القول الشائع : « يضع النقاط على الحروف » ، أي يبين المعنى بتحديد اللفظ وإزالة اللبس .

من ذلك ما جاء في كتاب « الصحاح » حيث يقول الأصمعي ، وهو من المقدمين في رواية الشعر : « كنت في مجلس شعبة ، فروى الحديث ، فقال : تسمعون جَرْش طير الجنة (بالشين) . فقلت : جَرْس ، فنظر إليَّ وقال : خذوها منه ، فإنه أعلم بهذا منا . والجَرْس هو الصوت ويقال : أجرس الحادي إذا حدا للإبل ، أي أصدر صوتاً .

وقد قرأ الأصمعي أيضاً على أبي عمرو بن العلاء شعر الحطيئة ، فقرأ قوله :

وغَـرَّرتني وزعمتَ أنـ . . . . ك لابنٌ بالصيف تامِرُ .

أي كثير اللبن والتمر ، فقراها « لاتني بالضيف تامُر » ، وهو يريد بذلك أنك لا تتوانى عن ضيفك تأمر بتعجيل القِرى إليه .

فقال له أبو عمرو : أنت والله في تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة !

وقد روى أبو بكر بن الأنباري عن أبيه قوله : قرأ القُطْرُبُلِّي المؤدب على ثعلب بيت الشاعر الأعشى :

فلو كنت في جُبٍّ ثمانين قامة
ورقيت أسباب السماء بسُلَّم

فقرأ في « خُبٍّ » (بالخاء المهملة) فقال له ثعلب : خرب بيتك ! هل رأيت حباً قط ثمانين قامة ! إنما هي « جُبٍّ » .

وفي كتاب « نزهة الألباء » قال أبو الحسن الطوسي : « كنا في مجلس اللحياني ، وكان عازما على أن يملي نوادر ضعف ما أملى ؟ فقال يوماً . تقول العرب : مثقل استعان « بذقنيه » . فقام إليه ابن السكيت وهو حدث (صغير) وقال : يا أبا الحسن ، إنما تقول العرب : مثقل استعان « بدقّيه » ، وهم يريدون أن الجمل إذا نهض للحمل وهو مثقلٌ استعان بحنيه . فقطع الإملاء . فلما كان في المجلس الثاني أملى : تقول العرب هو جاري « مكاشري » . فقام إليه ابن السكيت أيضاً وقال : أعزك الله ! وما معنى مكاشري ! إنما هي « مكاسري » (بالسين المهملة) أي كسر بيتي إلى كسر بيته . قال فقطع الإملاء ، فما أملى بعد ذلك شيئاً !

رجاله في كتاب « ليس » لابن خالويه : الناس كلهم قالوا . قد بلغ فيه الشيب ، إذا وخطه ففتهد (وهو أول ما يظهر من الشيب) إلا ابن الأعرابي ، فإنه قال بلغ (بالغين المعجمة) وصحف . وهذا الكلام يعزى إلى رؤبة ، وذلك أنه قال ليونس النحوي : إلى كم تسأني عن هذه الخزعبلات . . . وقد بلغ منك الشيب ؟

ويرد في كتاب « الأمالي » لأبي علي القالي قول الأعشى :

تـروح عـلى آلِ المـحلّقِ جَـفـنـةٌ
كجـابـيـةِ « الشَّـيـخِ » العـراقي تَفْهَقُ

وكان أبو عمرو يرويه كجابية (السيح) ويقول . « الشيخ » تصحيف ، والسيح هو الماء الذي يسيح على وجه الأرض .

وجاء في كتاب ابن خالويه أيضا :

جمع المفضل والأصمعي مجلس فأنشد المفضل :

وذات هِـدْمٍ عـارٍ نـواشِـرُهـا
تـصـمُـتُ بـالـمـاءِ تَـوْلَـبـاً جَـدِعـا

فقال الأصمعي : صحّفت ، إنما هو جدِعا ، أي سيء الغذاء ، فصاح المفضل ، فقال له : والله لو نفخت في ألف شبّور لما أنشدته بعد هذا إلا بالدال . أما لسان العرب فيورد في مادة جَدَعَ الشرح التالي : جدع الغلام يجدع : ساء غذاؤه .

وقال الزبيدي : حدثني قاضي القضاة منذر بن سعيد قال : أتيت أبا جعفر النحاس فألفيته يملي في أخبار الشعراء شعر قيس بن معاذ المجنون حيث يقول :

خليليّ هل بالشام عينٌ حزينةٌ
تبكي على نَجدٍ لعلّي أعينها

قد أسلمها الباكون إلا حمامةً
مُطوّقةً باتت وبات قرينُها

فلما بلغ هذا الموضوع قلت : باتا يفعلان ماذا ؟ أعزك الله ! فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟ فقلت : بانت وبان قرينها . ويروي ابن فارس في المجمل عن محدثيه بيتاً أنشده أبو عمرو بن العلاء :

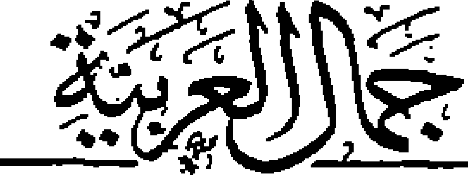
فما جنَبوا أنّا نشُدُّ عليهمُ
ولكن رأوا ناراً تُحَشُّ وتَسفعُ

قال : فذكرت ذلك لشعبة فقال : ويلك ! إنما هو

فما جُبِّنوا أنّا نشُدُّ عليهم
ولكن رأوا ناراً تحش وتسفع

قال الأصمعي : وأصاب أبو عمرو وأصاب شعبة . وما رأيت أحداً أعلم بالشعر من شعبة . أما المعنى فهو تحشّ : توقد ، وتحس : تمس وتشوى ، وكلاهما تفيد معنى .

وذهب أبو عبيد في قولهم « لي عن هذا الأمر مندوحة » . أي متسع ، إلى أنه من قولهم : انداح بطنه ، أي اتسع ، وهذا غلط وتصحيف ، لأن انداح : انفعل ، وتركيبه مَندوح ومندوحة على وزن مَفعولة ، وهي من تركيب ندح . والنُّدح : جنب الجبل وطرفه وهو إلى السعة ، وجمعه أنداح . أفلا ترى إلى هذين الأصلين تبايناً وتباعداً ؟ فكيف يجوز أن يشتق أحدهما من الآخر ؟ ◻



□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الأدباء

عذلتُ أهلَ العِشق حتى ذقتُه !

للمتنبي

يحار من تناط به مهمة اختيار قصيدة من جيد شعر المتنبي . فإذا تصفح الديوان وقف أمام عيون الشعر ودرر الكلام وذخائر الحكمة ، لا يعرف أي القصائد يختار وأيها يدع . ولكن الذي يغرى في هذه القصيدة التي وقع عليها الاختيار أنها تحمل من خصائص شعر المتنبي الكثير .

والمتنبي هو شاعر العربية الأشهر ، ظل على ألف عام أو أكثر شغل الناس ، وموضع الإعجاب والخصومة ، فيه تختلف الأجيال . وحول شعره ونفسه الكبيرة يحتدم النقاش والجدل . وما أكثر الآراء التي قيلت فيه ، والأوصاف التي خلعت عليه . إنه أحمد بن الحسين . . الكوفي الشاعر المعروف بالمتنبي . كان أبوه يعرف بعيدان السقا . وكان مولد أبي الطيب في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م . واختلف في تسميته المتنبي ، منهم من عزا ذلك إلى ادعائه النبوة ، ومنهم من قال غير ذلك . كان « يخبط القبائل » كما قال هو نفسه ، أي يتنقل بينها ، وانتقل كذلك إلى بغداد وحلب وغيرها من بلاد الشام ومصر وبعضا من بلاد فارس .

قال هذه القصيدة في صباه يمدح بها أبا المنتصر ، شجاع بن محمد ، ولم يقتصر فيها على المديح ، بل جاوزه إلى وصف حاله وهو المحب العاشق . وانتقل إلى الحديث عن الحكمة التي استمدها من تاريخ الغابرين ، حتى بلغ الغاية من القصيدة وهي المديح . والقصيدة تفيض حيوية واندفاعا وإقبالا على الدنيا . هاهو يخوض تجربة الحب بكل تبعاتها من سهد وأرق ، حتى تبلغ فيه الصبابة غايتها واكتمال معناها ، فإن غاية الشوق أن يبدو المحب على النحو الذي تصوره أبيات القصيدة . وهو شوق تكل نار الغضى عن أن تحرق بمثل ما تحرق ناره ، وتنطفيء دونه ! وتعمل عوامل الطبيعة على إذكاء تلك النار ، فإذا لمع البرق ، أو تغنى الطائر ، أعاد له الذكرى حية قوية على أشد ما تكون الحياة والقوة .

ينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة نقلة مفاجئة إلى الحكمة ، فيرى أن الناس يقيمون في منازل يتفرق أهلها عنها بالموت . ويضرب المثل بالملوك الغابرين ، ممن جمعوا الأموال الطائلة ، وحشدوا الجيوش الجرارة ، فذهبوا وذهبت ، وانتهى المطاف بهم إلى قبور ضيقة ، يرين عليها صمت حزين ، كأن الكلام قد حرم على أهلها . والحكمة المستفادة من ذلك كله هي أن الموت آت وإن كانت النفوس عزيزة ، والعاقل الفطن من لا يغتر بما جمع أو حشد .

يقف الشاعر وقفة قصيرة عند ذكر الشباب ، فيذكر فيه سواد الشعر قبل المشيب ، ونضارة الوجه وحسنه ، فيبكي هذا الشباب قبل زواله ، حتى يكاد جفنه يضيق بدموعه .

يجتمع للقصيدة كما بدت لنا صفات من القوة والضعف ، على أن صفات القوة فيها أظهر وأرجح ، فهي - على جزالة ألفاظها وفصاحة لغتها - سهلة يسيرة المنال ، وقد توافر لها من الصور الشعرية ومن الحكمة ما يضعها في مصاف روائع المتنبي ، ولكن انتقالها المفاجيء من وصف إلى وصف ، ومن أجواء شعرية إلى أخرى ، دون تمهيد ، هو أكثر ما يؤخذ عليها .

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ   وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ[1]

جُهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أُرَى   عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفِقُ[2]

مَا لاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ   إِلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَيِّقُ[3]

جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا تَنْطَفِي   نَارُ الْغَضَى وَتَكِلُّ عَمَّا تُحْرِقُ

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ   فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ

وَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِيَ أَنَّنِي   عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا

أَبَنِي أَبِينَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ   أَبَداً غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ[4]

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ   جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

أَيْنَ الأَكَاسِرَةُ الْجَبَابِرَةُ الأُلَى   كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلا بَقُوا

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ   حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ[5]

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا   أَنَّ الْكَلامَ لَهُمْ حَلالٌ مُطْلَقُ

وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ   وَالْمُسْتَغِرُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ

وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ   وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبِيبَةُ أَنْزَقُ

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمَّتِي   مُسْوَدَّةٌ وَلِمَاءِ وَجْهِي رَوْنَقُ[6]

حَذَراً عَلَيْهِ قَبْلَ يَوْمِ فِرَاقِهِ   حَتَّى لَكِدْتُ بِمَاءِ جَفْنِي أَشْرَقُ

أَمَّا بَنُو أَوْسِ بْنِ مَعْنِ بْنِ الرِّضَا   فَأَعَزُّ مَنْ تُحْدَى إِلَيْهِ الأَيْنُقُ[7]

كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ   مِنْهَا الشُّمُوسُ وَلَيْسَ فِيهَا الْمَشْرِقُ

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ أَكُفِّهِمْ   مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورُهَا لا تُورِقُ

وَتَفُوحُ مِنْ طِيبِ الثَّنَاءِ رَوَائِحٌ   لَهُمُ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنْشَقُ

مِسْكِيَّةُ النَّفَحَاتِ إِلاَّ أَنَّهَا   وَحْشِيَّةٌ بِسِوَاهُمُ لا تَعْبَقُ

أَمُرِيدَ مِثْلِ مُحَمَّدٍ فِي عَصْرِنَا   لا تَبْلُنَا بِطِلابِ مَا لا يُلْحَقُ

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ   أَبَداً وَظَنِّي أَنَّهُ لا يَخْلُقُ

يَا ذَا الَّذِي يَهَبُ الْجَزِيلَ وَعِنْدَهُ   أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً   وَانْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لا أَغْرَقُ

كَذَبَ ابْنُ فَاعِلَةٍ يَقُولُ بِجَهْلِهِ :   مَاتَ الْكِرَامُ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ

□

---

(١) - الأرق : فقد النوم . والجوى : الحرقة ، من حزن أو عشق . (٢) - الجهد : الطاقة والوسع . الصبابة : رقة الشوق . (٣) - انثنيت : رجعت . (٤) - أبني أبينا : يا إخوتنا . (٥) - لحد : قبر . (٦) - اللمة من الشعر : ما جاوز شحمة الأذن . (٧) - الأينق : النياق ، جمع ناقة .



بقلم : الدكتور عبداللطيف الرجال*

لم يجد العلماء والأطباء وسيلة لتحسين صحة الإنسان وتخفيف آلامه إلا سعوا إليها بالبحث والتجربة والتطوير . وهاهو العلم يقتحم مجال نقل نخاع العظم (نقي العظم) من شخص إلى آخر . فكيف تتم هذه العملية الخطيرة ؟ وإلى أي مدى يتحقق لها النجاح ؟

لقد بدأت عمليات نقل نخاع العظم في الغرب في أواخر الخمسينيات ، وأوائل الستينيات ، في محاولة معالجة مرض سرطان الدم (اللوكيميا) . ثم سعى الباحثون والأطباء لتطوير هذه العمليات ، واستخدام نتائجها في علاج أمراض أخرى ، غير سرطان الدم ، وحققوا إنجازات أولية جعلت السعي مستمرا ومطلوبا .

وعملية نقل نخاع العظم من العمليات التي تحتاج إلى عناية طبية فائقة ، وتعتمد على التحاليل المخبرية المكثفة ، في مراحل تحضير المريض للعملية وأثنائها ، ثم لمتابعة نتائجها ، وهي تحتاج إلى مدة علاج طويلة ، أدناها أربعون يوما ، وقد تصل هذه المدة إلى خمسة شهور كاملة أو ستة ، ولذلك كانت كلفتها عالية ، بالإضافة إلى أن غرفة العمليات لاتستخدم بأدواتها إلا مرتين فقط ، حرصا على عدم انتقال العدوى ، بأي وسيلة كانت ، لأي إنسان آخر ، أو حدوث اختلاطات للمريض أثناء إجراء العملية ، حيث تكون مقاومته شبه معدومة خلال هذه الفترة ، نتيجة لتدمير كرات الدم البيضاء المريضة التي تقوم بهذا الدور الحيوي . المرة الأولى عند سحب النخاع من المتبرع للمريض ، وهو لايخرج أبدا عن دائرة أقاربه من الدرجة الأولى ، والمرة الثانية

* استشاري طب الأطفال بمستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض ـ السعودية .

عند زرع النخاع في جسم المريض ، كما أنه يراعى عند إجراء هذه العملية ، منذ مراحلها التحضيرية وحتى نهايتها ، أن يكون جميع أفراد الفريق الطبي القائم بها ، بدءا من فني المختبر والأشعة وانتهاء بالأطباء ، معقمين تعقيما كليا خلال تعاملهم مع المريض . والعملية في حد ذاتها بسيطة جدا ، لاتحتاج إلى استخدام مبضع الجراح ، وإنما إلى استخدام إبرة خاصة لسحب نخاع العظم من عظم الورك ، تحت التخدير العام من المتبرع ، ثم زرعه عن طريق الحقن بالإبرة في المريض .

واحتمالات حدوث تعقيدات صحية ، كاحتمال حصول فشل كلوي أو رئوي أو كبدي أو حتى فشل الدورة الدموية ، أو احتمال حصول رفض الجسم للنخاع الغريب عنه بشكل حاد أو مزمن . كل هذه الاحتمالات تفرض ، بالإضافة إلى العناية والمتابعة المستمرة ، استخدام علاجات وأدوية خاصة عالية الكلفة .

ولقد أصبح إجراء هذه العملية يتم بشكل « روتيني » في بعض المستشفيات في الولايات المتحدة ودول أوربا الغربية والشرقية واليابان . وفي الوطن العربي يكاد يكون مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض هو المركز الطبي العربي الوحيد الذي تجرى فيه هذه العملية (على حد علمي) .

لماذا ينقل النخاع ؟.

وهذه العملية تجرى لعلاج عدد من الأمراض التي كان يصعب علاجها من قبل ، ومنها :

أولا : السرطان ، وبخاصة سرطان الدم الذي يسمى أحيانا ابيضاض الدم « Leukemia » ، والورم اللمفاوي ، وهما الدافع الأول ، والأكثر شيوعا ، لإجراء مثل هذه العمليات ، وعادة تجرى العملية لعلاج بعض أنواع ابيضاض الدم ، وليس بجميع أنواعه ، وكذلك تتم عند وصول المرض إلى مرحلة معينة من السيطرة عليه ، وهنا يمكن أن يكون المريض نفسه هو المتبرع ، وقد يكون أحد أقرب الأقارب مثل الأخت أو الأخ ، وأحيانا يمكن أن يكون المتبرع أحد الوالدين ، ويندر أن يكون أحد الأقارب من خارج هذه الدائرة صالحين لاستخدامهم متبرعين .

ثانيا : بعض الأمراض التي يرافقها خطر يهدد الحياة ، نتيجة عجز نخاع العظم عن إنتاج نوع أو أنواع من الخلايا ، مثل فقر الدم اللاتنسجي « Aplastic anaemia » ، وهو فقر الدم الناتج عن عدم مقدرة إنتاج نخاع العظم « Stemcell » ، وهذا النوع من فقر الدم يكون غاية في الشدة . حيث يؤدي إلى عدم قدرة نخاع العظم على إنتاج الأنواع الرئيسية الثلاثة ، وهي : الكرات الحمراء ، والكرات البيضاء ، والصفائح . والمريض يكون بحاجة إلى أن يزود بهذه الخلايا الثلاث بشكل مستمر ، إذا لم يتم علاج هذا المرض .

وحاليا توجد طرق مختلفة لمعالجة هذا المرض ، غير عملية زرع نقي العظام ، مثل استخدام عقاقير مثبطات المناعة . وكذلك تستخدم عملية نقل نخاع العظم في مرض نقص المناعة المرتبطة « Sever Combined immune deficiency » ، حيث يفقد نخاع العظم القدرة على إنتاج الخلايا اللمفاوية . ومرض تصخر العظم ، حيث يفقد نخاع العظم المقدرة على إنتاج الخلايا العظمية . وغيرها من الأمراض المختلفة التي سببها عدم قدرة نخاع العظم على إنتاج خلايا معينة ضرورية أساسية لاستمرار الحياة ، بحيث تستحيل الحياة أو تصعب بدونها .

ثالثا : بعض الأمراض الوراثية « Genetic D » تؤدي إلى إنتاج خلايا غير طبيعية من نخاع العظم ، مثل الثالسيميا (فقر دم حوض البحر الأبيض المتوسط) أو نتيجة لنقص أنزيم .

رابعـا : بعض الأورام الصلبة ، وبعض الأمراض المتفرقة .

كيفية إجراء العملية :

بعد التأكد من أن المريض بحاجة ماسة إلى عملية نقل نخاع العظم ، سواء منه نفسه ، كما في حالات السرطانات ، أو من غيره من بعض الأقارب ، تجرى تحليلات بسيطة لجميع أفراد أسرته ، لمعرفة نوعية الأنسجة ، وإذا وجد المتبرع المناسب ، يتم فحصه سريريا ومخبريا ، للتأكد من خلوه من الأمراض ، ثم تشرح العملية بخطواتها ، وأهميتها وملابساتها للمريض وأهله وللمتبرع ، والتأكيد على أن المتبرع لنخاع العظم لايتعرض إلى أي مخاطر ، سوى مخاطر التخدير العام ، وهي نادرة الحدوث ، وبنسبة غاية في البساطة ، وأن المتبرع بنخاع العظم مثل المتبرع بدمه ، يعوضه الجسم بسرعة وبدون أي مشاكل ، ويلزم المتبرع دخول المستشفى يوما واحدا فقط ، أو يومين على الأكثر ، لسحب نخاع عظمه .

وقبل إعطائه للمريض ، يجب أن يمر المريض بما يسمى عملية التحضير ، وهي عبارة عن تدمير شبه كامل لجميع نخاع عظمه ، عن طريق العلاج بالأشعة ، أو استخدام بعض العلاجات المسممة للخلايا . والمستعمل منها حاليا ، في معظم الحالات ، عقارا « بيوسلفان » و « سيكلوفوسفمايد » ، أو غيرهما من العلاجات العديدة ، القادرة على قتل خلايا نخاع العظم .

وعملية التدمير هذه تتم خلال ثمانية أيام ، أربعة أيام لكل نوع من العقاقير ، حيث تحتاج إلى نوعين من العقاقير المسممة للخلايا حتى تكتمل . وخلال تلك الفترة تراقب خلايا دم المريض مخبريا ، حيث يلاحظ هبوط مستمر في جميع أنواع خلايا الدم ، من كرات بيضاء ، وحمراء ، وصفائح ، وبعد انتهاء المدة المحددة للعلاج اللازم لتدمير نخاع العظم يعطى المريض ، عن طريق الحقن الوريدي ، نخاع العظم الجديد (من المتبرع) ، وهو عبارة عن كمية بسيطة ، تحسب بدقة بالمختبر ، ومقدارها يتراوح مابين ١٥٠ سم^3 - ٥٠٠ سم^3 ، حسب عمر المريض ، ووزنه ، وحالته المرضية التي استدعت إجراء هذه العملية له ، وتعطى للمريض خلال ساعة أو ساعتين .

ونتيجة لتحضير المريض ، كما أسلفنا ، بعلاجات لتدمير نخاع عظمه الأصلي فإنه يتعرض لنقص حاد في عدد كريات الدم المختلفة من بيضاء وحمراء وصفائح ، ولذلك يعطى المريض مضادات حيوية مختلفة ، حسب الحاجة ، أو حسب نتائج عمليات نقل النخاع ، أو بشكل تقديري ، لمواجهة النقص في كريات الدم البيضاء الذي يعد فقدها أخطر على المريض من مكونات الدم الأخرى ، لأنها أداة جسم المريض في المقاومة والمواجهة لأى نوع من أنواع البكتيريا أو الفيروسات أو الفطريات ، وهذا الدور الحيوي من أهم وظائفها . وهنا يجب مراعاة عزل المريض كليا ، لمنع وصول عدوى إليه من أي مرض من أي جهة كانت . وبعد فترة تتراوح بين أسبوع إلى ثلاثة أسابيع ، وأحيانا فترة أطول من ذلك ، من يوم زراعة نخاع العظم الجديد تبدأ نتائجه بالظهور تدريجيا ، ويظهر ذلك بوضوح بمتابعة عدد خلايا الدم بأخذ عينة من دم المريض ، وعندما يلاحظ زيادة مستمرة في عدد الخلايا ، خاصة الخلايا البيضاء التي يؤخذ عددها معيارا لفك عزلة المريض ، فإذا أصبح عدد هذه الخلايا في الدم أكثر من ٥٠٠ خلية لكل سم٣ ، فإن ذلك يعني أنه أصبح بمقدور النخاع الجديد العمل بشكل جيد وكاف لإعطاء المريض المقدرة - ولو جزئيا - على محاربة الخمج Infection . وبالتالي يسمح للمريض بالخروج من عزلته ، والتحرك داخل المستشفى ، وزيارة بعض أقاربه له داخل غرفته ، لأن ذلك ممنوع



● زراعة نخاع العظم في المختبر

منعاً باتا خلال فترة العزل .

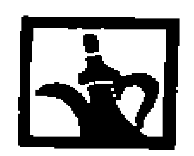
ويستمر نخاع العظم الجديد بالنمو ، كنمو النبتة الجديدة بالضبط ، وإذا قدر الله لنخاع العظم الجديد الظروف المناسبة للنمو بدون أي مشاكل ، سواء أكان خمج Infection ، أو رفض ، فإنه يستمر بالنمو والفاعلية .

احتمالات كبيرة للنجاح

وعلى الرغم من كل هذه التعقيدات ، والصور المتعددة الجوانب لهذه العملية ، فإن نتائجها مشجعة في كثير من الأحيان ، وتختلف نسب نجاحها من حالة إلى أخرى ، ويعتمد نجاحها ـ أو فشلها ـ على عوامل عديدة ، منها نوع المرض الأصلي الذي كان سببا في إجراء هذه العملية ، وكذلك الحالة الصحية العامة للمريض ، فكلما كانت صحته العامة جيدة ، ولم يكن هناك خلل بأي عضو من أعضاء جسمه ، خاصة الأعضاء الرئيسية منها كالكبد والكلي والرئتين والقلب ، كانت نسبة نجاح العملية أكبر ، وكذلك على عمر المريض ، فهي بالأطفال تعطي نتائج أفضل منها بالكبار ، وعلى التطابق الكامل بين نوع خلايا المتبرع والمريض نفسه ، فكلما كانت متطابقة تماما كان احتمال نجاحها أكبر .

فمثلا نسبة نجاح عملية نقل نخاع العظم في حالات سرطانات الدم تبلغ حوالي ٦٠٪ في معظم مراكز العالم ، في حين أن نتائجها في مرض التالسيميا Thalacemia تبلغ ٨٠ ـ ٩٠٪ في الأطفال الذين تبلغ أعمارهم سنتين إلى ثلاث ، إذا وجد نخاع عظم مطابق كليا من متبرع قريب جدا كالأخ والأخت . وتنزل هذه النسبة إلى ٧٠٪ تقريبا في الأطفال الذين تبلغ أعمارهم فوق سبع سنوات للمرض نفسه وللظروف نفسها .

ومع هذا فإن العملية ـ كما ذكرنا ـ مازالت في مراحلها الأولى ، ونسبة المخاطر فيها وكلفتها مازالتا عاليتين وأقل مما يرضي الطموح الطبي ، إلا أن الأمل في الارتقاء بها وتطويرها وتخفيض كلفتها يتعاظم ، خاصة مع جهود الباحثين والأطباء الدموية التي تستفيد من معطيات العلم الحديث المتقدمة . □



يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										١
							■			٢
				■						٣
■					■					٤
		■				■				٥
■					■		■		■	٦
			■		■					٧
						■				٨
	■	■						■		٩
					■					١٠

كلمات أفقية

١ . أكبر نحاتي عصر النهضة من آثاره « داود » .

٢ . تألم ، من أعظم فناني عصر النهضة الايطاليين .

٣ . ننميه ونرفع من فعاليته ، جمع قد .

٤ . يخفي في نفسه ، فاكهة تمتلىء باللؤلؤ .

٥ . متأخر ، رفعة ومجد .

٦ . شمندر .

٧ . ذو علاقة بالدين ، دال على الصداقة .

٨ . أكثر أهمية ، فنان هولندي عاش ومات فقيرا تباع لوحاته بالملايين .

٩ . فنان فلمنكي شهير من فناني القرن ١٧ .

١٠ . يقوم بعمل فني مستخدما الصخر أو الرخام ، تطريب وغناء .

كلمات عمودية

١ . فنان انطباعي فرنسي من فناني القرن ١٩ ، إسباني من أكبر سيرياليي العصر .

٢ . مدرسة فنية تهتم بالانطباع العام لا التفاصيل .

٣ . تَصلب ، نتصرّف بمرح وانطلاق .

٤ . أعدت من جديد ، شبع ، تجدها في حوت .

٥ . عابث ، أول فراب وآخرها .

٦ . تلمر مشجوب ، هولندي من نوابغ فناني القرن ١٧ .

٧ . غير راضين ، قليل .

٨ . حَسَناً ، الأحرف الثلاثة الأولى من اسم فنان القرن اسمه يفان جوخ .

٩ . الاسم الأول لصاحب « العشاء الأخير » .

١٠ . صبي ، يسيطر أو ينتشر .

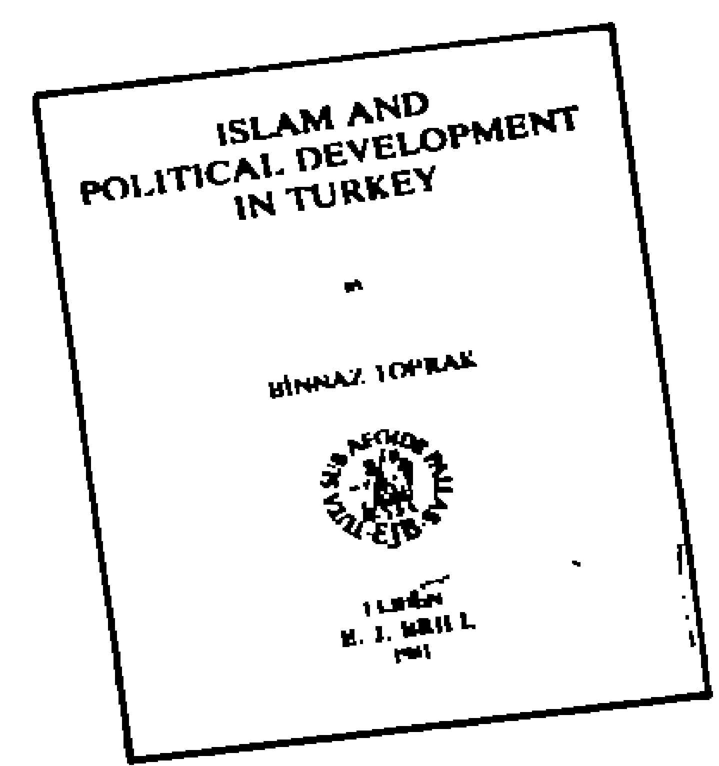
● حل مسابقة العدد الماضي سبتمبر ١٩٨٩ م

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
■	س	ن	ا	ن	ب	ك	ل	ا	أ	١
ن	ه	س	ح	■	ن	ا	م	ل	ع	٢
■	ر	ه	م	س	■	د	ه	ش	ن	٣
د	ه	■	د	ه	م	ح	■	ا	ه	٤
ا	■	س	ب	ا	ع	■	ك	ف	ا	٥
ه	ه	ف	ن	ح	ل	ا	■	ع	ل	٦
م	■	ا	ح	ه	م	■	ن	ه	ا	٧





مكتبة العربي


ISLAM AND POLITICAL DEVELOPMENT IN TURKEY

BINNAZ TOPRAK

LEIDEN
E. J. BRILL
1981

الإسلام والتطوّر السياسي في تركيا

تأليف : بيناز توبراك / عرض وتعليق : جمال وردة

على الرغم من كل القوانين الأوربية الحديثة التي أدخلها أتاتورك إلى تركيا فقد فشل في بناء المجتمع الحضاري الجديد ، ذلك أنه أقحم الدين في معركة غير مجدية ، متجاهلاً الخصوم الحقيقيين لهذا البناء المنشود . وبذلك لم يحسن اختيار العجلات المناسبة لعربة التقدم والتحديث في بلاده .

الدين والسياسة قضية جدلية قديمة لقطبين متحركين ضمن معادلة ثابتة . يتجاذبان حيناً لدرجة الانصهار ، ويتنافران كنقيضين أحياناً ، ولكنهما أبداً متداخلان تأثراً وتأثيراً .

يقول « فرانك بلركن » : هناك تشابه بين الدين والثورة ، فكلاهما يسعى لاختصار المسافة وتضييق الفجوة بين المعطيات الذهنية والمادية للحياة ، ولكن بأسلوبين مختلفين ، ففي حين تؤجّج الثورة طموحات الطبقات المطحونة ، وتعمل على تصعيد أمانيها ، تحاول الأديان الحدّ من غلواء هذه المشاعر وتخفيفها ، وصولاً إلى الاستقرار والتجانس الاجتماعي . وفي حين تحطّم الثورات هذه الفروقات عنوة وقهراً فإن الأديان تسعى لإذابة هذه الفروقات تطهراً واقتناعاً . ويفرّق « دونالد سميث » بين فئتين من هذه العلاقة الناشئة : فهناك أنظمة دينية عضوية وشاملة ، ينعدم فيها التمايز بين الدين والدولة ، وعند ذلك تستمد السلطة السياسية شرعيتها من الدين مباشرة . وأنظمة كنسية تتميّز بانفصاله الواضح بين الدين والسياسة ، وتبقى متقوقعة داخل كيانها المستقل ، وهي ذات علاقة معقّدة مع القوى السياسية الأخرى . وفي الحقيقة هناك بعض الأديان تصرّ على ربط الأرض بالسماء ، من خلال مصعد صغير ، يتسع لراكب واحد فقط . فقد جعلت الخلاص الروحي والتطهير النفسي فردياً وذاتياً . إن الارتقاء إلى مرحلة « النيرفانا » في البوذية مثلاً يتم من خلال الإنسان وحده ، وليس من خلال القوانين الجماعية أو الاجتماعية للدولة .

لا كهنوت في الاسلام :

أما الهندوسية ففيها عزوف وترفّع ، ليس عن السياسة فحسب ، بل عن الحياة كلها . وكذلك المسيحية ، فهي تنادي بالمجتمع المتسامح الفاضل ، من خلال الإنسان المتسامح الفاضل ، وعلاقتها مع السياسة أخلاقية بحتة ، وليست « أيديولوجية » كما في الإسلام الذي ربط بين الدين والدولة ، وزاوج بين الحق الإلهي والعدل الاجتماعي . كما يختلف الإسلام عن غيره من الأديان فقد أعطى الجميع حقّ التحدث بالدين والعمل بتعاليمه ونفى دور الوسيط . فلا كهنوت في الاسلام . وهكذا بقيت العلاقة بين العبد وربه مباشرة ، ولا حاجة لطرف ثالث يتمحور داخل مؤسسات خاصة ، لها سياستها وأموالها وعقاراتها وسفراؤ ها ، وكأنها دولة داخل دولة ، كما أن التبتّل والزهد والتنسّك ليست فضائل مقدسة في الإسلام . وحين جاء الغرب بعلمانيّته وفصل الدين عن الدولة ، أعاد للدين دوره القديم في مجتمعاتهم بعد أن امتزجت مصالحه مع السلطة ، وأصبح الدفاع عن مصالحه مرتبطاً بالدفاع عن تلك الأنظمة السياسية القديمة ، فكان لا بد من الصدام مع القوى الثورية الجديدة . كما حدث في معظم الثورات الأوربية الحديثة . وكان لزاماً على هذه الثورات أيضاً ، أن تحطّم هذه العلاقة الناشئة بين الكنيسة والدولة .

وحين انهارت الدولة العثمانية أصيب أتاتورك بالذهول أمام فداحة هذا الإرث الكبير ، فسارع إلى دفن « الرجل المريض » قبل أن يلفظ نفسه الأخير ، وعجّل باستيراد القبعات الأوربية وإلباسها لجمهور المعزّين والمشيّعين قبل أن يفيقوا من صدمة السقوط .

ولكن التاريخ يقول : إن « الأيديولوجيات » لا ينهيها فزع الكوابيس ، ولا انبهار أحلام اليقظة . ففي غمرة حماسه وانبهاره بالتفوق الأوربي استورد أتاتورك كل شيء ، القيم والرموز والأحرف اللاتينية والتقويم

الجمهوري ، لقد أخطأ حين عد الإسلام حجر عثرة أمام التقدم الحضاري ، وأخطأ مرة أخرى حين نظر في القشور والشكليات ، دون العمل على خلق المتغيرات الاجتماعية اللازمة لإعطاء هذه المفاهيم الجديدة فكراً وقيماً . لقد نزع الوجدان من الجسد ، ناسياً أن الدين فطرة ومشاعر . لقد تصور أن الصراع الحضاري ينحصر بين الدين والدولة ، أو بين العلمانية وغير العلمانية ، بينما الصراع الحقيقي يمتد بين الجهل والعلم ، وبين العوز والاكتفاء ، وبين التكافؤ والاستغلال . وهذه الحقيقة فطن لها المثقفون الأتراك بعد نصف قرن من التجربة « الكمالية » ، حين اكتشفوا أن الخلل كامن في القوى الإنتاجية وعلاقاتها المعقدة ، وليس في القبعة أو الطربوش . وعن أثر الدين في السياسة التركية الحديثة قدم الكاتب التركي « بيناز توبراك » هذه الدراسة التي أعدها في الأصل كأطروحة لنيل درجة الدكتوراة من جامعة نيويورك ، مستعرضاً التطور السياسي الذي طرأ على الساحة التركية منذ إعلان الجمهورية عام ١٩٢٣م ، وكيف استطاع الإسلام على الرغم من علمنة الدولة أن يلعب دوراً حاسماً في عملية التطور هذه . في عام ١٩٦٧ « كتب اندرو مانجو » : إن القارىء العادي للصحافة التركية يلحظ بأن السياسة هناك أصبحت ذات حس ديني واضح ، والواقع أن هذا الانطباع ليس جديداً ، فمنذ التحول السياسي الذي حدث عام ١٩٤٦ بإلغاء نظام الحزب الواحد أصبح الدين محوراً لمعظم البرامج الحزبية الجديدة ، وقبل ذلك أيضاً . فخلال حرب الاستقلال (١٩١٩ - ١٩٢٠) اعتمد أتاتورك نفسه على أئمة المساجد وخطبائها في تعبئة الجماهير وتحفيزهم للدفاع عن وطنهم ضد الغزو الأجنبي ، وحتى بعد إعلان الجمهورية بقي الدين حافزاً وملهماً لأنصاره الذين عدوا حركته تمهيداً للدم التركي . وحين أصدر شيخ الإسلام في الأستانة الفتوى المشهورة بتكفير أتاتورك رد عليه بفتوى مضادة من مفتي أنقرة ، تحمل تواقيع أكثر من ١٥٢ عالماً دينياً ، من مختلف مناطق تركيا ، بل إن المؤتمر الأول للجمعية الوطنية كان يضم ٧٣ عالماً دينياً من بين ٣٦١ . لقد استطاع رجال الدين في البداية تمهيد الطريق أمام حركة أتاتورك التجديدية ، معتبرين أن خلع السلطان لا يعني خلع الخلافة ، ولكن أتاتورك انقضّ عليهم بعد أن استتب له الأمر عام ١٩٢٨ .

حوار طريف :

وهناك حوار طريف بين أتاتورك وأحد الفلاحين البسطاء أثناء الحرب في الأناضول ، فقد استغرب أتاتورك من هذا الفلاح الذي مازال يحرث أرضه بكل هدوء واطمئنان ، فقال له : كيف تفعل ذلك والعدو على حدود وطنك ؟ فأجابه الفلاح : « يا باشا ! كان لي ثلاثة إخوة وولدان قتلوا جميعاً في اليمن وجاليبولي ، وأنا الآن المعيل الوحيد لثلاث عائلات تعتمد جميعاً على فأسي . إن حقلي هو وطني ، ولا تتوقع مني أن أترك الفأس وأحمل البندقية قبل أن أرى الأعداء بأم عيني وهم يطأون حقلي بأقدامهم » .

لم يفعل أتاتورك شيئاً يذكر في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للريف التركي . لقد بقي « الأغوات » على حالهم ، يمارسون فوقيتهم واضطهادهم . وكذلك بقي « الأشراف » في المدن ، يمارسون استغلالهم ، وبقي الفلاح التركي والعامل التركي بين السندان والمطرقة ، حتى العلمانية المستوردة من أوربا لم يقم بتطبيقها بحذافيرها . فالعلمانية الغربية تضمن على الأقل حرية العقيدة وحرية التعبير ، لقد تجاهل أتاتورك

ذلك ، وأقلم « ديكتاتورية » الحزب الواحد - الحزب الجمهوري الوطني - وفي حين أطلق الحريات لبعض الأقليات الدينية ، كاليهود والأرمن ، فقد صادر مفاهيم إسلامية ، وحجزها داخل حقيبته الدبلوماسية . إن أوربا لم تصادر المفاهيم الدينية . وفي دراسة حديثة أجراها الكاتب « ريتشارد روز » ، للمقارنة بين ٧٦ حزباً سياسياً في ١٧ بلداً أوربياً اكتشف أن هنالك ٣٥ حزباً تنتمي إلى بعض المفاهيم الدينية ، وهي ذات صبغة دينية ، أو على الأقل هاجس ديني واضح ، وفي العهد العثماني كانت هناك اتفاقات سياسية ، ذات صبغة دينية ، كالمعاهدة الروسية العثمانية عام ١٧٧٤ بين كاترين الثانية وعبد الحميد الأول الذي كان له حق رعاية المسلمين في روسيا ، مقابل حماية كاترين للرعايا الأرثوذكس في الأمبراطورية العثمانية .

لقد ألغى أتاتورك المحاكم الشرعية ، واستعاض عنها بالقانون المدني السويسري ، والقانون الجنائي الايطالي ، والقانون التجاري الألماني ، ومنع تعدد الزوجات ، ولكن الإحصاءات تقول : إن نسبة تعدد الزوجات بعد نصف قرن من تلك القرارات تشكل ٢,٧٪ في الريف ، و ١,٦٪ في المدن الكبرى ، وشبه منعدمة في العواصم . والقضية إذن مجرد وعي واستدراك بدليل اختفائها في العواصم ، كما أن نسبة الزواج المدني لا تزيد عن ٣٥٪ فقط . وحين صدرت هذه القرارات العلمانية بدأت الساحة السياسية تستمد الكثير من الثورات والانتفاضات المضادة ، وكان أهمها ثورة الشيخ سعيد في شرقي الأناضول ، فعلى الرغم من وصف حركته بالانفصالية الكردية ، فإن من أهم أهدافها المطالبة بعودة الخليفة « وحيد الدين » ، آخر سلاطين بني عثمان . ونشطت أيضاً الجماعات « النقشبندية » ، وبقيت هذه الانتفاضات مستمرة حتى عام ١٩٣٦م ، وبعد ذلك اتجهت إلى المعارضة السرّية ، بعد تصفية رموزها ومحاكمهاتهم ، وفي عام ١٩٤٦م وافق « عصمت اينونو » ، خليفة أتاتورك ، على مبدأ تعدد الأحزاب من أجل حملاته الانتخابية ، وكسب مزيد من الأصوات الفلاحية . وفي الحال تشكل ٢٤ حزباً جديداً ، منها ٨ على الأقل ذات اتجاهات إسلامية ، وأهمها حزب العدالة الاجتماعية ، وحزب المزارع والفلاح ، وحزب الحماية الاسلامية ، وحزب المحافظين . وكان الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري ، يتنافسان في كسب أصوات الناخبين بمزيد من قرارات الانفتاح الديني . فعندما فاز الحزب الديمقراطي بالأغلبية « البرلمانية » عام ١٩٥٠ أصدر رئيس الوزراء « عدنان مندريس » قراراً برفع الحظر عن الأذان باللغة العربية ، وكان ذلك حدثاً جللا ، عمت بموجبه البهجة ودموع الفرح كل الأقاليم التركية ، ثم بدأت سياسة ترميم المساجد القديمة ،وفتح المزارات المقدسة ، وبناء المساجد الجديدة ، ويقدر عدد المساجد التي تم تعميرها خلال عشر سنوات من تاريخ القرار بحوالي ١٥,٠٠٠ مسجد ، كما ارتفع عدد الجمعيات الإسلامية من ٩٥ إلى حوالي ٥,٠٠٠ جمعية .

الطربوش والاستقلال :

وفي عام ١٩٦١ انشق حزب العدالة عن الحزب الديمقراطي ، واستطاع هذا الحزب الجديد ، ذو الاتجاه الديني ، أن يوصل إلى السلطة ، عام ١٩٦٥ ، « سليمان ديميريل » رئيساً للوزراء . وقد حدث تحول خطير آخر داخل حزب الشعب الجمهوري ، حين أصبح

« بولند أجاويد » سكرتيراً عاماً للحزب ، وبدأ يمارس نقداً ذاتياً « للكوادر » القديمة التي باعدت بين الحزب والجماهير ، واعترف « أجاويد » للمرة الأولى بأن الصراع الحقيقي ليس بين الطربوش والقبعة ، بل بين الفقر والاستغلال ، وأن الأحزاب جميعها قد استغلت الدين كغطاء لإخفاء عجزها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وفي هذه الفترة ولد حزب جديد ، انشق عن حزب العدالة ، وأطلق عليه اسم حزب « الخلاص الوطني » ، وهو حزب إسلامي جديد ، يجمع بين التقدم العصري والروح الإسلامية . ويدعو الى صحوة جديدة في المجالين المادي والروحي معاً ، وقد أسسه الدكتور « نجم الدين اربكان » ، وهو شخصية علمية فذة ، فقد نال درجة الدكتوراة في الجامعة التقنية في أنقرة ، ثم سافر في بعثة علمية إلى المانيا ، حيث رجع مبهوراً بالتجربة الألمانية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وكيف استطاع الشعب الألماني بإخلاصه وتفانيه وبانضباطيته أن يخلق مجتمعاً حضارياً جديداً على أنقاض النازية المهزومة .

وأثناء اشتراكه في الحكم رفع وزير العدل (أحد أعضاء الحزب) قضية ضد مدير التلفاز ، لسماحه بعرض بعض الأفلام الإباحية عن حياة قبائل الأمازون البدائية ، كما يطالب الحزب برفع بعض التماثيل العارية من الحدائق والميادين . وقد استطاع الحزب الفوز بـ ٤٨ مقعداً في « البرلمان » التركي ، في انتخابات ١٩٧٣ ، حاصلاً على ١٢٪ من مجمل الأصوات ، إلا أنه بقي حزباً للمثقفين فقط ، بعيداً عن عمق الريف وحارات المدن .

وفي أواخر الستينيات تغيرت المعادلة السياسية بدخول حزب العمل التركي الذي يضم الماركسيين الأتراك ، وأصبح الصراع الجديد بين اليمين واليسار .

الاسلام والعمل السياسي :

لقد لعب الإسلام دوراً بارزاً في إثراء العمل السياسي التركي ، فقد كان العامل الموجه بشكل أو بآخر لكل الأحزاب السياسية ، إذ أعطى للدولة العثمانية هويتها الدولية ، ووحد شخصيتها ، ومنحها الشرعية لقيادة العالم الإسلامي ، كما ساعد على خلق الاستقرار والتجانس الاجتماعي في مجتمع متعدد الجنسيات والقوميات . وفي فترة المد القومي ساعد أيضاً على رصّ الصفوف ضد القوى الأجنبية ، وعمل على إذكاء روح المقاومة والمعارضة « للديكتاتورية » الحزب الواحد . لقد دخل الإسلام معركة « الديمقراطية » التي انتهت بإعلان عام ١٩٤٦ وقبول النظام القديم مبدأ تعدد الأحزاب .

إن جذوة الدين التي حاول أتاتورك إخمادها لم تنطفيء ، بل ظلت نبراساً أخلاقياً وحافزاً للتحولات الاجتماعية والسياسية وللعدل الاجتماعي . □

من أقوال ماركوس اوريليوس انتونيوس الحكيم الروماني المأثورة قوله :
× من يستطيع أن يمنعك من أن تكون صالحا ؟
× الانهماك في الملذات أضر من الانهماك في الآلام .
× هل في حياة الإنسان أشياء أعظم من العدل والحكمة والشجاعة ؟



من المكتبة العربية

قصص الحب العربية: أغراضها وتطورها

تأليف : الدكتور عبد الحميد ابراهيم محمد
عرض وتعليق : أشرف مصطفى المندي

حفظت لنا كتب التاريخ والأدب كثيرا من قصص الحب التي دارت في أروقة القصور أو بين مضارب الخيام العربية .

وتجاوزت شهرة بعض عشاق العرب أحيانا ، شهرة حكام وخلفاء وقادة . والكتاب الذي نعرض له فيما يلي متابعة لبعض قصص العشق والعشاق ، وتطورها ، وتنوع أغراضها .

«الحب» واحد من أهم المضامين في الآداب العالمية كلها ، ولا يكاد يخلو منه أدب من الآداب، ولا فن من الفنون.

وقد اهتم الباحثون بدراسة الناحية العاطفية عند العرب . والكتاب الذي نحن بصدده تناول قصص الحب العربية على أنها نوع من الأدب الذي انتشر بين عامة الشعب ، فركز على كشف طبيعة هذه القصص ، ثم تتبع تطورها على مرّ العصور وفي شتى المناحي ، ثم كشف عن الأسباب التي قعدت بها عن النمو الكامل والتطور الملموس .

معنى القصة

والقصة التي حرص المؤلف على استجلاء معانيها ، وإظهار حقيقتها ، ليست تلك القصة القصيرة التي عرفها العالم في القرن التاسع عشر ، وإنما قصد المؤلف - كما يقول في الفصل الأول - ذلك المعنى الذي جاء في القواميس العربية لهذه المادة ، واهتم بالطبيعة الخاصة للقالب القصصي

العربي ، وخرج المؤلف من بحثه في القواميس العربية بمعنى عام ، محدد للقصة ، وهو « المتابعة » ، فقص الدراهم : تتبعها بالليل أو في أي وقت كان ، وتقصى الخبر : تتبعه .

وقد انتشرت هذه القصص بين الناس انتشارا واسعا ، حتى أن ابن داود لم يجد فائدة من ذكر كثير من هذه الأخبار في كتابه « الزهرة » ، لأنها - على حد قوله - قد كثرت في أيدي الناس ، فقل من يستشهد منها . كما أن هناك نظرة إلى هذه الأخبار على أنها شيء لا يتحرى الدقة التاريخية ، وأنها حكايات شاعت بين الناس ، قد تزيدوا فيها كما قال قيس بن ذريح وهو يعتذر لقيس بن الملوح أمام ليلى . فإن قيسا المجنون قال : إنه رأى ليلى فقط ليلة الغيل ، ولكن الناس قد تزيدوا في ذلك . وهذه النظرة تفسر الاضطراب في الروايات التي قد تسند خبرا إلى قيس ، ثم نراه مسنداً إلى جميل ، أو شعرا إلى عروة ، ثم نراه منسوبا إلى ابن ذريح .

وهذه النظرة تنتشل فريقا من الباحثين من حيرتهم أمام هذا التزيُّد ، وذلك لأن عقل المؤرخ لا يستطيع أن يضفي على هذه القصص صفة الصدق الواقعي والوجود التاريخي ، وعلى الرغم من ذلك فقد نجح المؤلف في مسعاه ، وضمن دقة بحثه بحسن اختياره للشواهد أمام الكمّ الهائل الذي تجمع لديه من كتب الأدب .

أغراض قصص الحب

وفي الفصل الثاني من الكتاب سلك المؤلف مسلك باحث الأدب ، ونظر إلى ما في هذه القصص من دلالات أدبية وإشارات فنية ، ولم يطلب منها الصدق الواقعي والوجود التاريخي ، حتى لنجده يقول : « لا يعني أن يكون قيس أو جميل أو عروة قد وجدوا تاريخيا ، وإنما الذي يعني أنهم شخصيات قصصية ونماذج بشرية » ، ولذلك فإنه قد دقق في البحث للإجابة عن تساؤله المطروح ، وهو : هل كان لهذه القصص أغراض ، أم أنها كانت خبط عشواء ، تنبت كنبات الصحراء ، بدون غاية مرسومة أو هدف معلوم ؟ !

وقد انتهى المؤلف من بحثه إلى أن قصص الحب قامت بعدة أدوار لتنفيذ أربعة أغراض رئيسية هي :

التفسير والشرح لبعض مواقف شعرية : لا سيما إذا انطوت هذه الأشعار على بذور حكايات وقصص ، كأن يذكر الشاعر ليلة التقى فيها بحبيبته ومالاقى من الصعاب . وحين انتشرت هذهِ البذور وتلك الإشارات أراد الناس أن يفسروها ويشرحوها ، فاختلقوا حولها القصص والحكايات التي تفسر الأبيات وتصل بعضها ببعض . وكثيرا ما حاك القاص أو الخيال الشعبي أبياتا مشهورة أنشدها « كثير عزة » عن بكائه وعن خيبته وحسرته ، يقول :

أَقُولُ لِماءِ العَينِ أَمْعِنْ لَعَلَّهُ
لِمَا لا يُرى مِنْ غَائِبِ الوَجْدِ يَشْهَدُ
فَلَمْ أَرَ مِثْلَ العَينِ ضَنَّتْ بِمائِها
عَلَيَّ ولا مِثْلِي عَلَى الدمعِ يُحْسَدُ

كما أن هذه القصص قد أدت وظيفة التسلية : لا سيما بعد أن أظلت الحضارة العرب بعد الإسلام ، فتبعها ألوان من الترف والملذات ، وكثر الظرفاء والمضحكون ، فقامت القصة بدورها في التسلية في مجتمع حضاري .

كما استغلت في الإعلان والدعاية : وعرف كثير من الأذكياء قيمة القصة في الدعاية لفنهم ، والترويج لشعرهم ، وبخاصة أن هذه القصص تشيع بين العامة ، وتذيع وسط الشعب ، فاستغلوا القصص وحلوها ما يريدون أن يحملوها ، وجعلوها تتنقل وسط الناس ، لاهجة بأسمهم ، مذكرة بهم . وقد برع في هذا النوع كل من حماد الراوية وعمر بن أبي ربيعة ، وكان عمر ذكيا ، فقد أكثر من الدعاية لفنه والترويج لشعره ، مرة برشوة المغنين والمغنيات حتى ينشدوا شعره ، كما جاء في الأغاني ، ومرة ثانية بإشاعة

هذا النوع من القصص التي أكثر من اختلاقها وترويجها .

وهناك قصص ذات أغراض تعصبية : حيث لم تستغل قصص الحب استغلالا شخصيا فحسب ، بل استغلت لأغراض تعصبية أيضا ، فقد عرف العرب في تاريخهم صراعا بين السادة والعبيد ، ونزاعات بين بعض وبعض ، فاستخدم كل فريق ما تيسر له من الأسلحة ، فكانوا ينتحلون الشعر ، ويختلقون الأحاديث تدعيما لنزاعاتهم ، وتأييدا لميولهم . فنالت بهذا القصص حظها من الانتحال والاختلاق ، بما يخدم فكرة الفريق المنتحل ، وينصر قضيته .

ومن الطبيعي أن يختلف كل فريق في سبب المهاجاة ، ثم يروح يؤلف القصص بما يرضي هواه ويشفي حاجته .

وهناك قصص ذات أهداف دينية : كأن تحث القصة على العفة والترغيب فيها والإثابة على الوفاء بالوعد والمكافأة على الصبر وكل العناصر الدينية الأخرى الكثيرة المتنوعة التي يستظل الحب بظلها .

تطور قصص الحب

وقد خصص له المؤلف ثلث الكتاب ، وفيه استعرض تطور قصص الحب عبر مختلف العصور العربية وأشكالها وألوانها المختلفة ، وذلك من عدة نواح رئيسية أهمها :

أولا : ناحية يتتبع فيها الباحث حكاية معيّنة ، وينظرها في مختلف المراجع ، ويراقب التطور والفروق بين هذه المراجع التي قد تكون فروقا شكلية ، كالاختلاف على اسم الخليفة الذي ترفع إليه القصة ، وقد تكون فروقا يسيرة ، كالاختلاف حول بعض أسماء شخوص القصة .

ثانيا : ناحية يتتبع فيها الباحث القصص المتشابهة ، ويراقب الفروق بينها ، وهي فروق لا تعدو الاختلاف في الأسماء ، أو زيادات في بعض الروايات ، بل إننا نلاحظ من الأمثلة التي أوردها المؤلف أن التقارب وصل ببعض الروايات إلى حد استعارة التشبيهات والألفاظ . وعلة ذلك أن الرواة لم يكونوا ينظرون إلى هذه القصص نظرة أدبية خالصة ، وكذلك النقاد لم ينظروا إليها نظرة جدية تقومها وتنير لها السبل ، فتركوها للعامة يحكونها في مجالسهم ، ويتصرفون فيها تصرفا فطريا .

ثالثا : ناحية يتتبع فيها الباحث تطور هذه القصص مع تطور ظروف العصر ، وتأثرها بالتيارات الثقافية والاجتماعية ، كما نرى فيما يلي :

أ ـ حكايات الحب الحسية التي رويت حول ابن أبي ربيعة وغيره من شخصيات العصر الأموي ، وقد كانت حكايات من النوع الظريف التي لم تبتعد كثيرا عن الخلق العربي ، ولكن بعد أن آتى الاتصال بالأمم المجاورة ثمرته ، وبعد أن عرف العرب فلسفة « ماني » وإباحية « مزدك » كثرت القصص الماجنة والحكايات المنحرفة والحب الشاذ .

ب ـ قصص العشق العذرية : كانت تدور في العصور العربية الأولى (في العصر الجاهلي والعصر الأموي) حول عشق فتى لفتاة ، عشقاً لا يشرك معها فيه غيره ، ولكن بعد ذلك نجد قصصا صوفية يتجاوز فيها العاشق حب البشر إلى حب الذات العليا ، حباً يملك عليه كل جوارحه ، ويجعله ينشد الأشعار الصوفية في محبوبه الذي لا يشرك في حبه أحدا .

ج ـ كثير من العرب في العصر الجاهلي وفي العصر الأموي كانوا يقدرون العاشق ، ويتعاطفون معه ، ويعدونه شخصية أرقى من غيرها ، ولكن هذه النظرة تغيرت عند كثير من الناس ، فأصبحوا ينظرون إلى العشاق نظرة سخرية ، ويعدونهم مرضى أصابهم الخلل في عقولهم والاضطراب في أفكارهم ، فكانوا يصفدونهم بالحديد ، ويضعونهم في دار تسمى

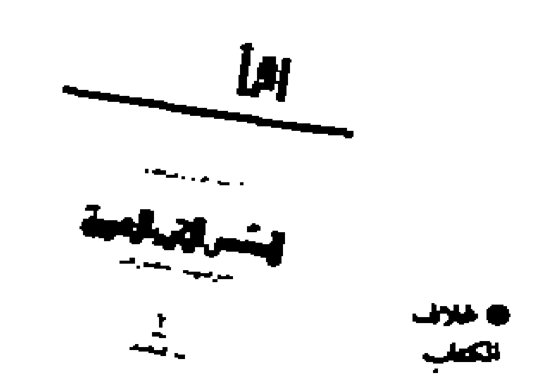
« دار المجانين » . وفي هذه الناحية يرى المؤلف أن قصص الحب حين عبرت عن المجون والشذوذ أو شفت عن الوجد الصوفي لم تتطور من الناحية الأدبية عن قصص الظرفاء والعذريين . وكل الفرق الذي حدث أنه بدل الظرف حل المجون ، وبدل العشق العذري حل العشق الصوفي . أما من الناحية الأدبية فما زالت القصة فقيرة ، فيها بذور فنية ، جاءت بمحض المصادفة ، وما زالت خبرا فخبرا ، سريعا متناثرا في بطون الكتب ، تختلط فيه الحقيقة بالوهم ، والتاريخ بالخيال ، اختلاطا لا يبين عن شخصية التاريخ المحققة ولا عن شخصية الخيال المنطلقة .

وخلاصة هذا الفصل ، أن تطور قصص العشق كان ضئيلا ، لأن الراوي لم يكن على دراية بالعمل الذي لا ينبغي أن يختلط بالتاريخ اختلاطا يضيع شخصية كل منهما ، وإنما ظهر التطور بوضوح في السير الشعبية ، ثم بصورة أوضح عند شعراء الفرس والترك ، ثم بصورة أكثر وضوحا في الأدب العربي الحديث ، ورواية ليلى والمجنون لأحمد شوقي تعد رائدة في هذا المجال .

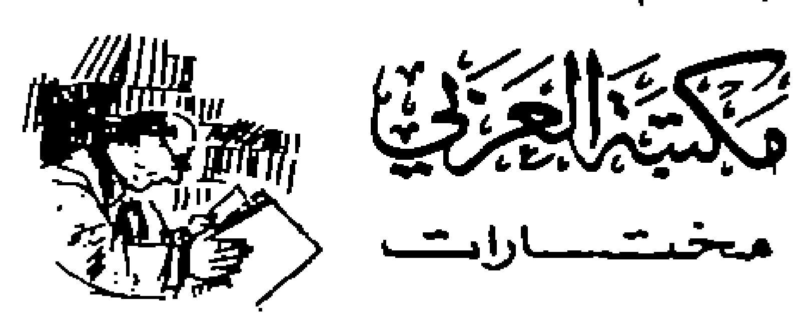
من قصص الحب العربية

وفي الفصل الرابع والأخير من هذا الكتاب تحدث الدكتور عبد الحميد ابراهيم محمد عن تقنية القصة القديمة ، ثم ذكر نماذج كاملة لهذه القصص اعتمد فيها على الكتب العربية القديمة مثل « التيجان » ، « لوهب بن منبه » ، واختار منه قصة لقمان بن عاد ، وقصة موطن الحب ، وكتاب « مصارع العشاق » لابن سراج ، واختار منه قصة « كتمت الهوى » ، وكتاب « تزيين الاسواق » لداود الأنطاكي ، ولم يكتف المؤلف بذكر هذه النماذج مجردة صماء ، بل حاول استنطاقها ، وقام بتحليلها ونقدها وقارنها بما يشبهها من نماذج أخرى . وهو بذلك قد أتاح للقارىء فرصة التذوق والاستمتاع بلا معاناة ، وبين بالنماذج التي قدمها ، أن أدبنا العربي غني بهذا النوع من القصص الجذاب ، وأن الامر لا يحتاج الا لحساسية خاصة تتلمس هذه القصص من بين بطون الكتب ، وتتفطن إلى هذا النوع من الأدب السهل السلس الذي لا ينبغي أن تقل العناية به عن العناية بالشعر والشعراء والرسائل والكتاب ، وغير ذلك من أنواع النثر التي فيها تأنق وصناعة ، وربما كان هذا النوع من النثر الذي ينطوي على شعبية ظاهرة وديمقراطية واضحة كونه يجري على ألسنة العامة في يسر وسلاسة ، وبعد عن التأنق والصناعة أصدق في الدلالة على نفوس منشئيه ومتلقيه من هذا النوع الذي نشأ كثير منه في بلاط الخلافة .

إن هذا الكتاب قد أعطى للنثر الشعبي اهتماما خاصا ، أهمله كثير من الدارسين والباحثين ، والباحث الذي يفرض على نفسه مهمة البحث والتنقيب والتأريخ لأحد الجوانب المعتم عليها ، ويتصدى لتحليل أبعاد صورها في سبيل اظهارها ، وتوسيع معانيها ، فإنه يضع نفسه في موضع دقيق قد يعرضه للسقوط في حالة هبوب ريح أو في حالة ظهور عقدة أو عقبة كأود تعيق خطواته . ولقد نجح الدكتور عبد الحميد ابراهيم محمد في مسعاه لأنه يملك خيوط لعبة التأليف وقواعدها ، فخرج كتابه إلى الناس باعتباره إحدى الدراسات الرائدة في هذا المجال . □



● غلاف الكتاب



اسم الكتاب : جذور حركة القرامطة
اسم المؤلف : عبد المنعم عزيز النصر
الناشر : مطبعة أسعد ـ بغداد
عدد الصفحات : ١٣٦ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧م

عرض تاريخي لبدء حركة القرامطة في التاريخ العربي الإسلامي، وخروجها على الدولة العباسية، ويعرض المؤلف بعد ذلك لتطورها ومضمون دعوتها وشيوعها، والنقد والاعتراضات اللذين ووجهت بهما.

□□□

اسم الكتاب : الصناعة والتكامل الاقتصادي العربي
اسم المؤلف : د. يوسف حلباوي
الناشر : دار طلاس للنشر ـ دمشق
عدد الصفحات : ٢٤٥ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩م

يقدم الكاتب في كتابه رؤية جديدة لكيفية تحقيق التكامل الاقتصادي العربي من خلال الصناعة، والكاتب الذي شغل فترة منصب المستشار الرئيس لدى منظمة التنمية الصناعية لهيئة الأمم المتحدة، يؤكد أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر سمته الصناعة ذات الحجم الكبير، وإذا استمر الجهد العربي جهداً قطرياً فإننا لن نتمكن من الخروج من دائرة التبعية. ويناقش المؤلف في كتابه نشأة الصناعة العربية، وتطورها خلال الأربعين عاما الماضية، ثم يعرض لمشاكل الصناعة العربية، وبعد ذلك يحلل السياسة الصناعية، ويقيم التنمية الصناعية الحالية والتنمية الصناعية البديلة. وفي القسم الثاني من الكتاب يناقش المؤلف قضايا التكامل الاقتصادي العربي وآفاقه.

□□□

اسم الكتاب : الرحلة
اسم المؤلف : فكري الخولي
الناشر : دار الغد ـ القاهرة
عدد الصفحات : ٢٥٢ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧م

عمل روائي، يسجل فيه كاتبه سيرة حياته، بلا حرج ولا تكلف، ويقدم هذا السرد في قالب فني فريد، مستمد من فطرة فنية واضحة، وموهبة أصيلة، وتدور أحداث هذه الرواية كلها في أوساط العمال والفلاحين، وبخاصة في الشرائح الأكثر فقرا، ويقدم الكاتب الصورة بلا «رتوش» ولا تجميل لواقع مجتمعي الريف والعمال منذ مطلع هذا القرن.

□□□

اسم الكتاب : صور من الماضي ـ المملكة العربية السعودية
اسم المؤلف : بدر الحاج
الناشر : دار رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن
عدد الصفحات : ٢٢١ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩م

دراسة عن تاريخ التصوير الشمسي من خلال أعمال مصورين عرب وأجانب، تتناول الحياة

السياسية والاجتماعية والعمرانية في المملكة العربية السعودية ، خلال فترة ١٨٦٥ ـ ١٩٤٠م . ويضم الكتاب مجموعة من الصور النادرة التي التقطت لوقائع وأحداث في هذه الفترة التاريخية المهمة .

□□□

اسم الكتاب : عشت مع هؤلاء الأعلام
اسم المؤلف : عبد الله يوركي حلاق
الناشر : مجلة الضاد ـ حلب
عدد الصفحات : ٢٢٧ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨م

يقدم المؤلف في كتابه وقائع وتفاصيل حياة عن أعلام عصره الذين عاصرهم ، وهو واحد من جيل الرواد ، ومؤسس وصاحب مجلة « الضاد » الأدبية ، فيقدم ذكرياته مع الشاعر القروي رشيد سليم الخوري ، وميخائيل نعيمة ، وأم كلثوم ، ومي زيادة ، والأخطل الصغير بشارة الخوري ، وأحمد حسن الزيات ، وايليا أبو ماضي ، وغيرهم . والكاتب لا يكتفي بتقديم ذكرياته معهم ، بل يضيف إليها لمحة عامة عن كل شخصية منهم ، وآثارها الفنية أو الأدبية من وجهة نظره .

اسم الكتاب : تعليم المواطن الأمريكي من أجل المستقبل
اسم المؤلف : إعداد لجنة التعليم بالمجلس القومي للعلوم في الولايات المتحدة .
ترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج
الناشر : مكتب التربية العربي لدول الخليج
عدد الصفحات : ١٣٣ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧م

يقدم الكتاب خبرة الشعب الامريكي في مجال الرياضيات والتقنية في مناهج التعليم العام ، متطرقا لظواهر التخلف التي اعترت هذه العلوم في الأزمة الأخيرة ، وظواهر السبق التي اتصلت به بعض دول العالم الأخرى مثل اليابان وبعض الدول الأوربية . ويتكون الكتاب في أصله الانجليزي من قسمين : خصص القسم الأول لعرض شامل للمشكلة التي تواجه التعليم في أمريكا ، والقسم الثاني عبارة عن مرجع ودليل عملي ، يورد ملخصات بعض الأبحاث التي تعنى بتدريس الرياضيات والعلوم والتقنية . وقد اقتصرت الترجمة العربية على تقديم القسم الأول من أصل الكتاب □

ولكن أبـي

قال المدرس للتلاميذ : يجب في قواعد الجمع أن يجمع كل صنف على حدة ، ولا يصح جمع أصناف مختلفة معا .

وعلى الفور أجاب التلميذ : ولكن أبي يخلط رطل لبن مع رطل ماء ، ويبيع رطلين للمشترين على الحساب .

في ستتيـن

قالت الحماة لزوج ابنتها وهي تزن نفسها ، وزني الآن ستون كيلو غراماً أي أنني فقدت ٥ كيلو غرامات في شهرين .

قال الصهر : اذن استمري على ذلك ، كي تنتهي في ستتين !



العدد ٣٧١

أكتوبر ١٩٨٩

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

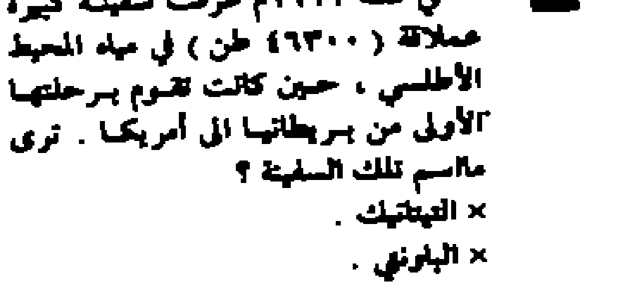
الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الصفاة الرمز البريدي 13008 - الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٧١ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ نوفمبر ١٩٨٩ . والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي والصحيح ، ورقم الهاتف إن وجد .

ارفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٧١

١


في سنة ١٩١٢م غرقت سفينة كبيرة عملاقة (٦٦٣٠٠ طن) في مياه المحيط الأطلسي ، حين كانت تقوم برحلتها الأولى من بريطانيا الى أمريكا . ترى ما اسم تلك السفينة ؟

× التيتانيك .

× البلوتي .

٢

نشبت الحرب بين روسيا واليابان في مطلع القرن العشرين . ترى أي الدولتين انتصرت ؟ وأيها هزمت في هذه الحرب ؟

× روسيا القيصرية هي التي انتصرت . ولا فخر لها في ذلك ، فقد كانت أكبر بكثير من اليابان .

× اليابان هي التي حققت النصر الساحق في تلك الحرب .

× اتفقت الدولتان على إنهاء الحرب دون أن يكون فيها منتصر أو مهزوم .

٣

من الحرائق الهائلة التي يذكرها التاريخ حريق لندن الذي وقع في القرن السابع عشر ، وحريق سان فرنسيسكو الذي وقع في القرن العشرين . ترى ما سبب اندلاع حريق سان فرنسيسكو ؟

× سببه « عقب » سيجارة ، ألقاه أحد المارة عن غير قصد .

× الحرب التي قامت بين الولايات المتحدة والمكسيك .

× الزلزال الذي ضرب سان فرنسيسكو فتسبب بالحريق .

٤

يذكر التاريخ أن النرويج لم تظفر باستقلالها إلا سنة ١٩٠٥م ، ترى أي الدول كانت تحكمها قبل ذلك ؟ .

× الدنمارك ، جارتها الصغيرة .

× السويد ، جارتها الكبيرة .

× بريطانيا ، الدولة الاستعمارية الكبرى آنذاك .

٥ « إميلين بنكهرست » امرأة انكليزية ، لمع اسمها في الربع الأول من القرن العشرين . ترى ما الإنجاز الذي اشتهرت به هذه المرأة ؟ .

× تزعمت الحركة النسائية التي حققت للمرأة حق الاقتراع .

× تزعمت الثورة على الأزياء النسائية القديمة التقليدية .

× أحدثت انقلاباً في ألوان الطعام وأساليب الطهي .

٦ من هو « صَن - يات - صِن » علماً بأنه اشتهر ولمع اسمه في أوائل القرن العشرين ؟

× كان صينياً ، وقد اشتهر بتأسيسه فن مصارعة الكراتيه .

× كان يابانياً ذاع صيته ، لأنه أسس أول مصانع السيارات في اليابان .

× كان من زعماء الصين ، وقد قاد الثورة الوطنية التي أطاحت بسلالة مانشو التي حكمت تلك البلاد زمناً طويلاً .

٧ تم اكتشاف القطب الشمالي سنة ١٩٠٩م . ترى من مكتشفه ؟ .

× البريطاني روبرت بيري

× الأمريكي الدكتور فردريك كول

٨ × تم اكتشاف القطب الجنوبي سنة ١٩١١م . ترى من المكتشف ؟

× المكتشف الانكليزي ، الكابتن روبرت سكوت ، كما يؤكد ذلك الانكليز .

× المكتشف النروجي ، روالد اموندسن ، كما يؤكد ذلك أهل النرويج وسواهم .

٩ أين ظهرت الحركة الكشفية لأول مرة ؟

× في بريطانيا .

× في بلاد الصين .

× في فرنسا عقب الثورة الفرنسية .

١٠ كم بلغت المسافة التي قطعها البث الإذاعي الأول ؟ وعلى بعد كم كيلومتراً سمع البرنامج الرائد الذي اشتمل على مقطوعات موسيقية وبعض الأحاديث ؟

× ٢٤ كيلومتراً .

× ٢٤٠ كيلومتراً .

× ٢٤٠٠ كيلومتر .

١١ اشتهر « هنري فورد » بصنع سيارته المعروفة بطراز (T) . ترى كم بلغ مجموع ما صنعه من هذه السيارة ، علماً بأنه بدأ إنتاجها في وقت مبكر (سنة ١٩٠٩) ، وتوقف سنة ١٩٢٧ .

× نحو نصف مليون سيارة .

× نحو ١٥ مليون سيارة .

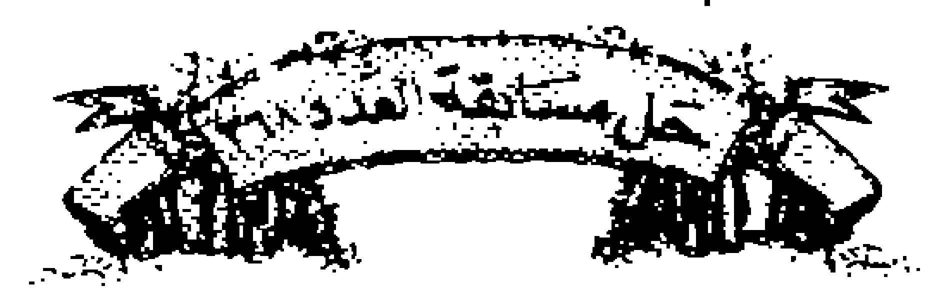
× نحو مليون ونصف مليون سيارة .

١٢ يذكر التاريخ ثورة الملاكمين في الصين ، تلك التي وقعت في مطلع القرن العشرين ، ترى ماذا استهدفت تلك الثورة ؟

× كانت ثورة رياضية ، قام بها الملاكمون ضد المصارعين التقليديين .

× كانت ثورة قومية داخلية ، استهدفت القضاء على الظلم والاستبداد ، شأنها في ذلك شأن الثورة الفرنسية .

× كانت ثورة قومية سياسية ، استهدفت التعبير عن البغضاء للأجانب ، والعداء للنفوذ الأجنبي في الصين .



يولـيـــو ١٩٨٩

١ العجيبتان السادسة والسابعة هما ضريح موسولوس ومعبد أرتيميس ، وقد بني الضريح في بلدة هليكارناسوس ، وبني المعبد في بلدة إفيسوس ، في آسيا الصغرى (تركيا حاليا).

٢ رقم (٧) كان مقدسا في نظر الاغريق ، وفي نظر الكثيرين غيرهم من أهل التاريخ القديم والوسيط ، لذلك حرص انتيباتر على ألا تزيد العجائب التي حددها عن (٧).

٣ كانت منارة الاسكندرية أول منارة ظهرت في التاريخ . يعود بناؤها إلى سنة ٢٧٠ ق . م ، وقد بلغت من الارتفاع ١٢٢ مترا ، وكانت مقامة على جزيرة صغيرة ، تقع في مدخل مرفأ الاسكندرية .

٤ يبلغ عدد الكتل الحجرية التي يتكون منها هرم خوفو أكثر من مليوني كتلة ، (٢,٣٠٠,٠٠٠) كتلة بالتحديد .

٥ تمثال أبوللو هو الأضخم ، سموه كولوسوس أي العملاق ، فهو يبلغ من الارتفاع ٣٢ مترا وقد أقاموه في المدخل من مرفأ جزيرة رودس بحيث كان لا مفر للسفن من أن تمر من تحت التمثال وبين ساقيه إذا هي أرادت الدخول الى المرفأ . . تم انشاؤه فيما بين سنة ٣٠٥ ـ ٢٩٢ ق . م ودمرته الزلازل سنة ٢٢٤ ق . م . .

٦ إرضاء زوجته أميتس هو الباعث على إنشاء الحدائق المعلقة فقد كانت من مهدها ، حيث الجبال والمراعي والأشجار ،فبنى لها الحدائق المعلقة لتسلو بها عن مسقط رأسها ، إلا أنها لم تكن معلقة بسلاسل أو ما إلى ذلك ، بل لم تكن أكثر من مصاطب مهّدها على سفح تل مرتفع ، كان يقع على ضفاف نهر الفرات وضمن القصر الملكي . على أن أكثر ما يبعث على العجب في الحدائق المعلقة شبكة الري التي ابتكرت من أجلها ، فقد جرّت تلك الشبكة الماء من نهر الفرات ، بل قل ضخّته ودفعته إلى أعلى ، إلى مصاطب الحدائق المعلقة تلقائيا .

٧ الكاتب اليوناني (انتيباتر) هو الذي سبق غيره في التحدث عن عجائب الدنيا السبع ، وقد عاش في صيدا في القرن الثاني قبل الميلاد .

٨ هرم المتود الحمر في شولولاريفا في المكسيك هو أضخم أهرامات العالم جميعا ، فهو يبلغ من الحجم ٣,٣ ملايين متر مكعب ، أي بزيادة نحو ٥٠٪ على حجم هرم خوفو البالغ ٢,٥ مليوني متر مكعب .

٩ سور الصين العظيم هو أضخم صروح التاريخ دون أدنى ريب ، اكتمل بناؤه في القرن الثالث قبل الميلاد (٢٤٦ - ٢١٠ ق.م) . ويبلغ طوله ٣٤٦٠ كيلومترا أي ما يعادل ٣ أضعاف طول بريطانيا ، ولهذا السور فروع لا يقل طولها عن ٢٨٦٠ كيلومترا . أما ارتفاعه فيتراوح بين ٤,٥ - ١٢ متراً . وسمكه يزيد على ٩ أمتار (٩,٨ أمتار) .

١٠ يبلغ عدد تماثيل جزيرة (ايستر) حوالي ١٠٠٠ تمثال ، وقد اكتشف الجزيرة وتماثيلها (جاكوب روجفن) الهولندي وذلك صبيحة عيد الفصح سنة ١٧٢٢ ، ومن هنا كانت التسمية .

١١ يجمع الكثيرون على أن تاج محل هو أجمل مباني العالم وأكثرها روعة وبهاء ، بناه امبراطور الهند (١٦٢٨ - ١٦٥٨) شاه جهان في مدينة اكرا ، وذلك كي تدفن فيه زوجته ممتاز محل ، وكان الامبراطور ينوي بناء (تاج محل) آخر على الضفة المقابلة من نهر يامونا ، وذلك كي يدفن فيه جثمانه ، ولكنه لم ينفذ خطته هذه ، وقد جرى دفنه في ضريح زوجته وغير بعيد عنها .

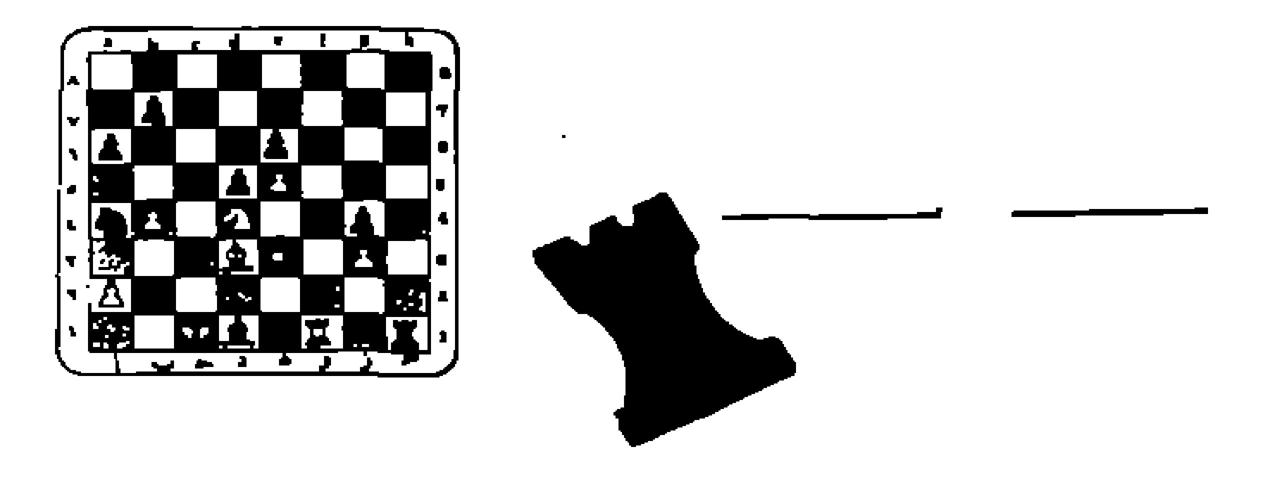
الفائزون في مسابقة العدد ٣٦٨ يوليو ١٩٨٩

الجائزة الأولى : توفيق محمد السهلي / دمشق - سوريا

الجائزة الثانية : المنجي الوغلاني / مدنين - تونس

الجائزة الثالثة : محمد عبدالله أبو وعر / عمان - الأردن

١) عبدالحفيظ عمر معاشر / كريتر - عدن - اليمن الديمقراطي
٢) شادية أحمد نصرة / دمنهور - مصر
٣) كتيج محمد المدني / كيرلا - الهند
٤) هاني أبودحيلة / الجامعة الأردنية / عمان - الأردن
٥) شادي يوسف محمد / طرابلس - ليبيا
٦) سليم صالح علي محمد اليحيائي / بهلا - سلطنة عمان
٧) سليماني الحيدة / الدار البيضاء - المغرب
٨) ماكانجو كامارا / غينيا - غرب افريقيا - كوناكري

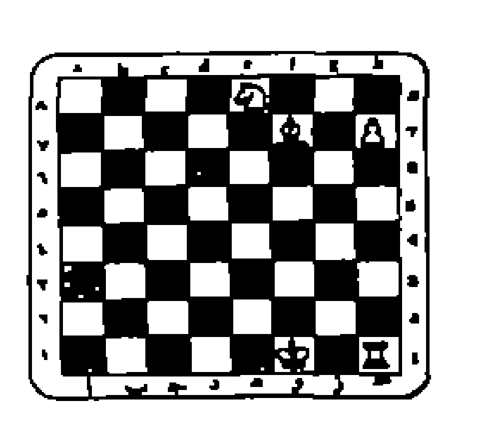


من المتفق عليه في الأوساط الشطرنجية أن أكبر صعوبة يلاقيها الأسود في الدفاع الفرنسي (١. هـ ٤ - هـ ٦) ، أن الأسود غالباً ما يجد صعوبة في نشر فيله الأبيض (فيل الوزير) الذي تشلّ حركته البيادق التي تحتل المربعات البيضاء المحيطة به في (د ٧) و (هـ ٦). ويرى العديد من المؤلفين الشطرنجيين أن استراتيجية الأبيض ينبغي أن تعتمد منذ البداية على التخطيط لنهاية الدور ، حيث يحتفظ الأبيض فيه بحصان نشط مقابل فيل الأسود المشلول ، ثم يزحف على البيادق السود بملكه لاحراز نصر فني سهل . غير أن فيكتور كورشنوي السوفيتي الأصل السويسري الجنسية تحدّى نظرية الفيل الأسود الضعيف في مباراة بطولة العالم ١٩٧٤ ، واضطر كاربوف أن يلعب (٢. د ٤ - د ٥ - ٣. ح - د ٢) ونجم عن ذلك عدد من الأدوار المثيرة . ومع أن الأسود عانى في نشر فيله الضعيف إلا أنه لم يخسر قط . وقد أفلح في نهاية الدور في تمكين فيله المشلول من القيام ببعض النشاط .

وقد تمكن كورشنوي في السنوات الأخيرة من الخروج بتنويعات مثيرة ، تمكنه من تحرير فيله الضعيف ، ففي اثنين من مباريات البطولة لعام ١٩٨٤ ، استطاع كورشنوي على الرغم من العقلات الافتتاحية للدور التي كانت في صالح الأبيض من الناحية النظرية أن يلحق هزيمة ساحقة بخصميه بتعبئة الفيل عن طريق (د ٧) ثم (هـ ٨) .

وفي إحدى بطولات الفرق الحديثة المقامة في لوزان في سويسرا ١٩٨٥ لعب كورشنوي بالأسود مع البريطاني جون نن الذي كان يفضل بدوره تنويعاً آخر مضاداً للدفاع الفرنسي ، يهدف إلى استغلال فيل الوزير ، غير أن كورشنوي سرعان ما أثبت قدرته في أفكاره حول الدفاع الفرنسي بتبادل الوزراء واثنين من القطع الصغرى ، والسماح لحصان « نن » باحتلال المربع المثالي (د ٤) ، ومرة أخرى استطاع الفيل الأسود الضعيف اختراق دفاعات الخصم والسير متبخترا بين صفوفه والتآزر مع بقية القطع السوداء لإحراز النصر .

● مسألة العدد ٣٧١



مات ٢

من إهداء سعيد شكري (اليمن)

	□ جون نن	■ فيكتور كورشنوي
١	هـ ٤	هـ ٦
٢	د ٤	د ٥
٣	ح - جـ ٣	ح - و ٦
٤	هـ ٥	ح (٦) - د ٧
٥	و ٤	جـ ٥
٦	ح - و ٣	ح - جـ ٦
٧	ف - هـ ٣	جـ × د ٤
٨	ح × د ٤	ف - جـ ٥
٩	و - د ٢	ح × د ٤
١٠	ف × د ٤	ف × د ٤
١١	و × د ٤	و - ب ٦
١٢	و × ب ٦	ح × ب ٦
١٣	ت ت	ف - د ٧
١٤	ف - د ٣	حـ ٥
١٥	ح - هـ ٢	م - هـ ٧
١٦	ح - د ٤ (مربع مثالي)	ز ٦
١٧	ز ٣	ف - جـ ٦
١٨	ر (د) - هـ ١	ح - د ٧
١٩	جـ ٣	ر (أ) - ز ٨

الأبيض يقوّي (د ٤) والأسود يهاجم جناح الملك .

٢٠	ر (حـ) - و ١	ز ٥
٢١	و ٥	ز ٤
٢٢	ر - هـ ٢	حـ ٤
٢٣	ب ٤ (م - د ٢ أفضل)	ح × ز ٣
٢٤	حـ × ز ٣	ف - أ ٤
٢٥	ح - ب ٢	ر - حـ ٣
٢٦	ر - ز ١	ر (و) - حـ ٨
٢٧	م - أ ٣	ر - جـ ٨ !
٢٨	م - ب ٢ (في الأحلام ٥)	أ ٦
٢٩	ر (١) - ز ٢	ف - د ١ !
٣٠	ر - هـ ٣	ح - ب ٦
٣١	ر - و ٢	ر - حـ ٨
٣٢	و × هـ ٦	و × هـ ٦
٣٣	ر - و ١	ح - أ ٤ +
٣٤	م - جـ ١	ر × جـ ٣ +
٣٥	يستسلم (الشكل)	

□■□

[illegible]

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١) عبد الله سعيد عبد الله - العمرية/ الكويت
٢) جمال حسين الزروق - طرابلس/ الجماهيرية الليبية
٣) علي سعيد محمد - الأنبار/ الجمهورية العراقية
٤) نور الدين البوزيدي - سوسة/ الجمهورية التونسية
٥) محمد مهدي الشمة - عمان/ المملكة الأردنية الهاشمية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١) صفية زين العابدين - قرية مناقلة/ المصاحيصا/ السودان
٢) فراس تلشبندي - دير الزور/ الجمهورية العربية السورية
٣) خالد علي العميسي - صنعاء/ اليمن
٤) محمد اسحاق بن عبدي - نواكشوط/ الجمهورية الموريتانية
٥) فارس علي صالح الجميلي - قضاء الفلوجة/ الجمهورية العراقية .

١ . (ر - و ٨ +) (و × و ٨) ٢ . (و - حـ ٧ +) (م × حـ ٧)
٣ . ز × و ٨ (حصان) مات



العربي - ص. ب ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي 13008 الكويت

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

تحية طيبة وبعد ،

● لقد بهرت ، والحق يقال ، بالمجلة شكلا ومضمونا ، كيف لا وقد رأيت فيها العديد من الفوائد ، من الناحية الحضارية والأدبية والثقافية والعلمية والتاريخية والدينية وغيرها .

إننا كثيرا ما نتداول المعلومات القيمة المنشورة التي تنمي العقل وتهذب الذوق ، وتزودنا بالجديد من العلم والثقافة ، والمجلة في كل زاوية من المدرسة والحي والمنزل ، وقد عرفتنا بكثير من العادات والتقاليد لدى كثير من الشعوب . والكويت ترعى هذه المؤسسة الثقافية ، وتعطيها من الإمكانيات ما ييسر لها الصدور كل شهر بموعدها وبالقوة والنشاط البارزين ، بل وبتطور يزداد يوما عن يوم ، وهذه شهادة من الجميع .

إن الدعم الذي تقدمه الكويت للثقافة العربية والمحافظة على نشر اللغة العربية وتزويد القارىء العربي بالمعلومات عن وطنه العربي،كلها ارتبطت باسم الكويت .

القارىء : غازي بوجلبان

صفاقس - تونس

□□

تعليق حول موضوع تطويل الأطراف

● في عدد ابريل من عام ١٩٨٩ المرقوم ٣٦٥ ، كتب الدكتور وليد السباعي مقالا عن قضية تطويل الأطراف التي تعالج مشكلة قصر القامة .

وقد كتب إلينا القارىء محمد الطحلاوي من الشرقية ، جمهورية مصر العربية ، يسأل عن إمكانية نجاح عملية إطالة عظام الساقين ، وكذلك عن التكاليف المالية للعملية . وكذلك كتب القارىء أحمد محمد ، من الاسكندرية ، يسأل عن مدى انتشار إجرائها في الأقطار العربية ، وهل هناك احتمال للمضاعفات بعد العملية . أما القارىء علي دياب ، من دمشق ، سوريا ، فيسأل عن العمر المناسب لإجرائها . وقد وصل كثير من الرسائل في هذا الاتجاه .

وعلى ما يبدو أن المعاناة من قصر القامة قد أصبحت قضية شائعة عامة ، لهذا حمل لنا البريد هذه الرسائل التي يتساءل أصحابها عن تفاصيل دقيقة ، ربما لم ترد في المقال ، كما يسألون عن أمور ما زالت تنتظر الأيام والتجربة للإجابة عنها إجابة حاسمة ، فالعملية الروسية الرائدة حديثة عهد ، وهي بهذا بحاجة إلى خبرة

وتجارب ودراسات ، ولم تنل نصيبها من الشيوع والانتشار ، ولهذا فهي ما زالت مقصورة على البلدان المتقدمة . ولا شك أن مزيدا من الصبر سوف يتيح للأسرة الطبية وفرة في المعلومات عن مدى نجاحها ، وعن احتمال وجود مضاعفات ، (وكيفية التغلب عليها) ، كما يتيح فرصة لمزيد من التجربة والمران . وهذا كله في صالح المرضى الذين يعلقون آمالا كبيرة على هذا الإنجاز الطبي الرائد ، لكنهم يستعجلون الأمر ، ويستبقون الأحداث ، ولهم في هذا عذرهم ، لكن الصبر والتروي ضروريان والأمل قريب بإذن الله في أن تشيع هذه العملية في أقطارنا العربية ، ويكتسب فيها أطباؤنا خبرة وتجربة ومعرفة شاملة .

□□

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

تحية طيبة وبعد ،

● أود أن أعرب عن إعجابي الشديد بمجلتنا الغراء « العربي » ، لما تحويه من مواضيع قيمة أدبية وعلمية ، تثري فكر القارئ العربي .

لقد اطلعت على العدد ٣٦٧ يونيو ١٩٨٩ ، وقد شدني عرض لكتاب « العالم والعرب سنة ٢٠٠٠ » لمؤلفه الدكتور محمد جابر الأنصاري في باب (من مكتبة العربي) ، ومن خلال قراءتي للعرض اتضح لي بأن الكاتب يتنبأ بمستقبل العالم ومستقبل العرب سنة ٢٠٠٠ ، معتمدا في ذلك على بعض الدراسات والأبحاث التي هي بمثابة مؤشرات للمستقبل القادم ، مستقبل القوة العـ... ، والتي يتقدم بها الدول الشرقية الآسيوية إن جاز التعبير ، اليابان ، الصين ، كوريا ، الهند ، ومن ثم يستطرد في عرضه حول دراسة في أحد فصول الكتاب ، تلقي الضوء على جذور التربية اليابانية ، وخصائصها المميزة ، وكيف استطاعت أن تجمع بين شعبية التعليم وارستقراطيته العلمية والفكرية ، ولم تؤخذ باللغات الأجنبية المتقدمة ، ولم تتميز بها على الرغم من مركزية التوجيه في النظام التربوي ، فإنه يقوم على مرونة ، ولا مركزية ملحوظة ، في تنظيم وزارة التربية والعلوم والثقافة .

فلو أمعنا النظر في ما كتبه الأستاذ رافع عبد الرحمن في عرضه سنجد أنه قد استخدم مصطلحات إدارية ، في حين أنه ينتقدها بشدة ، ويعتقد أنها معيقة للتقدم . وما أحب أن أؤكده هنا أنه لولا علم الإدارة لما وصلت اليابان إلى ما وصلت إليه حاليا ، ولما وصلت إلينا مجلتنا الغراء ، وذلك بغض النظر عن الأمور الأخرى ، أي بافتراض توافر كل الإمكانات المادية والبشرية . هنا يلزمنا العنصر



عزيزي مجلة العربي

الإداري المنظم الكفؤ ، القادر على أن يكيف العلم الإداري الحديث حسب ظروف بيئته . إذن سيبقى أمام سؤال هو : كيف يمكن لنا أن نوفر هذا العنصر ؟ قد تكون الاجابة بافتتاح معاهد متخصصة ، وكليات تعمل على تدريب هذه العناصر ، وعقد الندوات . وهذا لا يكفي ، وبكل تأكيد نحن لا نقل عن شعوب العالم ذكاء ، بل يلزمنا الإطلاع ، والبحث المستمر في المراجع العلمية الحديثة ، وهنا تكمن مهمة مجلتنا الغراء ، لتضفي على نفسها حلة جديدة من حلل العلم والثقافة ، فماذا لو زودتنا مكتبة « العربي » ببعض المراجع العلمية في علم الإدارة ، وخصوصا الأبحاث والدراسات المستجدة في هذا المجال الفريد من مجالات العلوم الاجتماعية الذي لم يتجاوز عمره مائة عام ؟

القارىء : جلال محمد علي القيسي
صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية

● تقوم المجلة بين فترة وأخرى بنشر ملخص لمجموعة من الكتب في باب مختارات من المكتبة العربية ، إضافة إلى الكتب التي يعرضها رئيس التحرير في حديث الشهر ، ونحن نرحب بكل ما يردنا من عرض للكتب ، مع الأخذ بعين الاعتبار صلاحية المادة للنشر .

□□

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،
تحية طيبة وبعد ،

● نحن طالبتان ألمانيتان ، ندرس اللغة العربية في جامعة « غرمير سهايم » ، في (ألمانيا الاتحادية) ، ويتطلب الأمر اطلاعنا على بعض المجلات العربية الجيدة للقراءة العامة . وقد سمعنا كثيراً عن مجلة « العربي » ، وما تحويه من موضوعات جادة واهتمام واسع بأمور اللغة العربية ، وكذلك الانتشار الواسع والتنوع في الموضوعات المنشورة ، وهذا كله يساعدنا على إتقان العربية ، واكتساب معرفة واسعة عن التقدم الذي وصلت إليه الأقطار العربية . وعليه فنحن بحاجة لتزويدنا بالمجلة بشكل دوري ، حتى تكون بين أيدينا في جميع الأوقات للقراءة والاطلاع وقت الحاجة ، ومن وقت لآخر .

لذا نسألكم عن إمكانية توفير أعداد من المجلة في ألمانيا الاتحادية ، كي يتسنى لأمثالنا الاطلاع عليها واقتنائها . وختاما نقدم لكم خالص الشكر على ما تقدمونه للغة العربية ولنا من خدمات جليلة .

القارئة : استفني روسن القارئة : كرن فارمك
ألمانيا الاتحادية

□□

● القارىء عبد العزيز السعيد ، من الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ يطالب المجلة بأن تعمل على تجليد المجلة بشكل أفضل ، لأنها مجلة يحتفظ بها ، وهي ليست مجلة سيارة ترمى بعد قراءتها مباشرة ، فالاهتمام بالتغليف الجيد يعكس اهتمامكم بالمجلة نفسها ، وباحتفاظ القارىء بها .

● القارىء خالد عشري عبد ربه ، من امبابة ـ الجيزة ـ جمهورية مصر العربية ـ يقترح أن تقوم المجلة بالتوسع في الاستطلاعات عن قارة افريقيا ، لا سيما المناطق الجنوبية من القارة والمناطق الوسطى الحارة ، وتسليط الضوء على بعض القبائل الافريقية المشهورة هناك ، وعن عاداتها وتقاليدها ، وعما سببته المجاعة من دمار وفقر ، وعن الخطوات الناجحة للقضاء على المجاعات .

● القارىء علاء بكري محمد ، من جامعة بنها ـ جمهورية مصر العربية ـ يقترح تخصيص باب للمواهب الشابة للتعبير عن آرائها وأفكارها ، وتنمية هذه المواهب ، خاصة الأدبية والعلمية منها .

● القارىء زيان محمد ـ البناية ، حي بن جرمة ، الجلفة ، الجزائر ـ بعث برسالة يشيد فيها بدور المجلة ، ويقترح قيام المجلة باستطلاع عن الجزائر ، وعن النهضة الزراعية فيها على الأخص .

● القارىء ياسر علي عوض ـ محافظة لحج ، جمهورية اليمن الديمقراطية ـ يقترح إيجاد باب بعنوان « فنون وآداب » يخصص للسينما والمسرح .

● القارىء محمد علي ، من البحرين ، يقول : إن المجلة وصلت الى كوريا الجنوبية ، إلا أنها لم تدخل كوريا الشمالية ، كما أنها وصلت أمريكا الجنوبية ، إلا أنها لم تصل « نيكاراجوا » . بودنا لو تقوم المجلة باستطلاع شامل عن هذه المناطق .


نجيب محفوظ

● القارىء محمود منصور رمضان ـ محافظة قنا ، جمهورية مصر العربية ـ يشيد بالملف الذي نشر عن حياة الأديب العربي الكبير نجيب محفوظ ، في عدد ٣٦٦ مايو ١٩٨٩ بمناسبة حصوله على جائزة نوبل للآداب ، ويثمن المجهود التي بذلت لإخراجه .

● القارىء محمد أحمد الأمين ـ مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ـ يشيد باستطلاعي المجلة عن موريتانيا وليبيا ، في عددي (٣٦٣ ـ ٣٦٤) ، (فبراير ، مارس ١٩٨٩) ، ويقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن مدينة « شنقيط » ، من مدن الصحراء الموريتانية .

عرض بجال القراء

● القارىء مصباحيها جواد ، من فاس ، المملكة المغربية ، يقترح زيادة المواضيع التي تتطرق لبعض الظواهر العلمية الخارقة ، مثل الأطباق الطائرة ، وزيادة المواد الأدبية مثل الشعر والقصة .

● القارىء أحمد محمد عبد الوهاب ، من كلية الطب ، بجامعة الأزهر ، بجمهورية مصر العربية ، يشيد بكتاب « العربي » وموضوعاته الشيقة ، ويطالب بزيادة كمية المرسل منه الى القاهرة ، لأنه يجد صعوبة في الحصول على نسخة منه في حالة تأخره في الذهاب للمكتبة التي توزع الكتاب .

● القارىء جمال أمين حسين - كلية الهندسة ، جامعة الاسكندرية - يقول : إنه قرأ بكل اهتمام ، في العدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩ ، في باب من المكتبة العربية ، موضوع مراجعة كتاب « الآلات في حياتنا ، وكيف تعمل » ، ويرغب في شراء الموسوعة . ونقول له : إن الموسوعة من إصدار جمعية رعاية الطفولة العربية ، خيطان ، الكويت . ويمكنك مراسلتها مباشرة .

● القارىء سلار مصطفى الجاف - بغداد ، الجمهورية العراقية - يشيد بالملف المنشور عن شركات توظيف الأموال في مصر - العدد ٣٦٥ ، ابريل ١٩٨٩ - فالقراء يفتقرون الى مواضيع كهذه .

● القارىء أسامة عبد المولى سند ، من القاهرة - جمهورية مصر العربية - يقترح تخصيص باب لتعلم لغة الحاسوب « الكمبيوتر » ، ومبادىء هذه اللغة .

● القارىء أحمد زيدان - حلب ، سوريا - يود لو أن المجلة قامت باستطلاع عن سوريا ، بمدنها وقراها ، وما طرأ عليها من تطور عمراني وصناعي ملحوظ .



● القارىء محمد الأمجد سلامة - المرس ، الجمهورية التونسية - يشيد بالمجلة على نشرها مقال الدكتور شذى التركزلي - « الانشطار النووي » في عامه الخمسين ، عدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩ - خاصة ونحن نعيش عصر العلوم والتقنية المتطورة الخارقة ، ويود أن ينتهز الفرصة ليطلب من العلماء العرب أن يعملوا على ترجمة الكتب العلمية الأجنبية ، كي يستفيد منها جيل الشباب العربي .



● القارئة إيمان ياسين ، من دمشق - سوريا - تود لو أنه تم نشر مواضيع مشابهة لما نشرته المجلة في عدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩ للأستاذ عبد الرحمن حامدي ، عن صورة العرب في السينما غير العربية ، نظرا لقلة المنشور في هذا المجال .

● القارئة هناء أحمد نعاونة - النعيمة - اربد ، الأردن - تقول : إنها قرأت في عدد ٣٦٥ ابريل ١٩٨٩م ، في باب « من دفتر الذكريات » ، للدكتور محمد جابر الأنصاري ، عن ذكرياته في مدينة المحرق ومدرسة « الهداية الخليفية » . فهل يمكن أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن هذه المدرسة الجليلة ؟ ونقول للقارئة : إن المجلة بصدد نشر استطلاع عن المدرسة وغيرها من المدارس القديمة في الخليج العربي في أعداد قادمة إن شاء الله .

● القارىء زكي أحمد عبده المخلافي - تعز ، الجمهورية العربية اليمنية - يقترح على المجلة أثناء القيام بالاستطلاعات أن تستغل الفرصة للقاء الجاليات العربية في البلاد التي تزورها بعثة المجلة ، لتقدم المهم عن حياتهم في تلك البلاد ، وكيف يعيشون ويمارسون حياتهم اليومية ، والمعلومات الاحصائية العامة عن أعدادهم ونسبة مواطني كل قطر عربي من المجموع .

● القارىء محمود محمد عمر ، محافظة الجيزة - جمهورية مصر العربية - يقترح أن تخصص المجلة بابا ثابتا للفن التشكيلي . □



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

أكتوبر ١٩٨٩ م

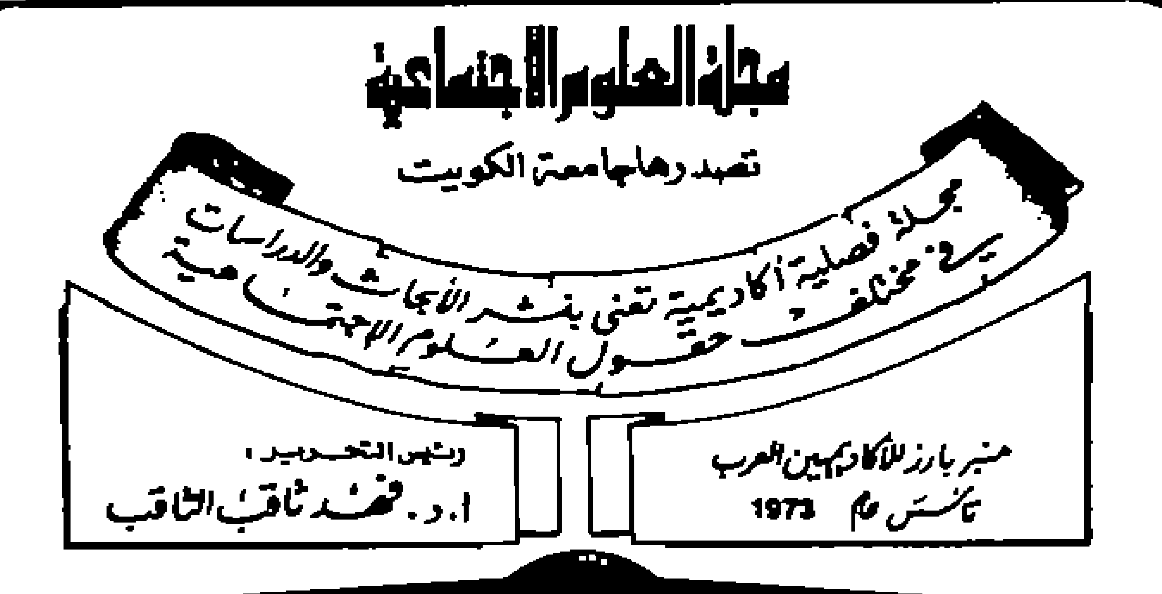
مستقبلنا المشترك

ترجمة : محمد كامل عارف
وعبد الإله مجبل النعيمي
مراجعة : الدكتور علي حجاج



الكتاب ١٤٢

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت


مجلة العلوم الاجتماعية
تصدرها جامعة الكويت
مجلة فصلية أكاديمية تعنى بنشر الأبحاث والدراسات
في مختلف حقول العلوم الاجتماعية
منبر بارز للأكاديميين العرب
تأسس عام 1973
رئيس التحرير:
أ. د. فهد ثاقب الثاقب
توجه جميع المراسلات إلى رئيس التحرير
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت ص ب: 5486 صفاة
الكويت - هاتف: 2549421 / 2549387 - تلكس: 22616 الكويت

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٤١ أول أكتوبر ١٩٨٩

مطعم القردة الحية

تأليف : غونكور ديلمان
ترجمة : نصرت مردان
مراجعة وتقديم : د. إبراهيم الداقوقي



مدخل للمسجد - الفنان النمساوي رودلف سفوبودا